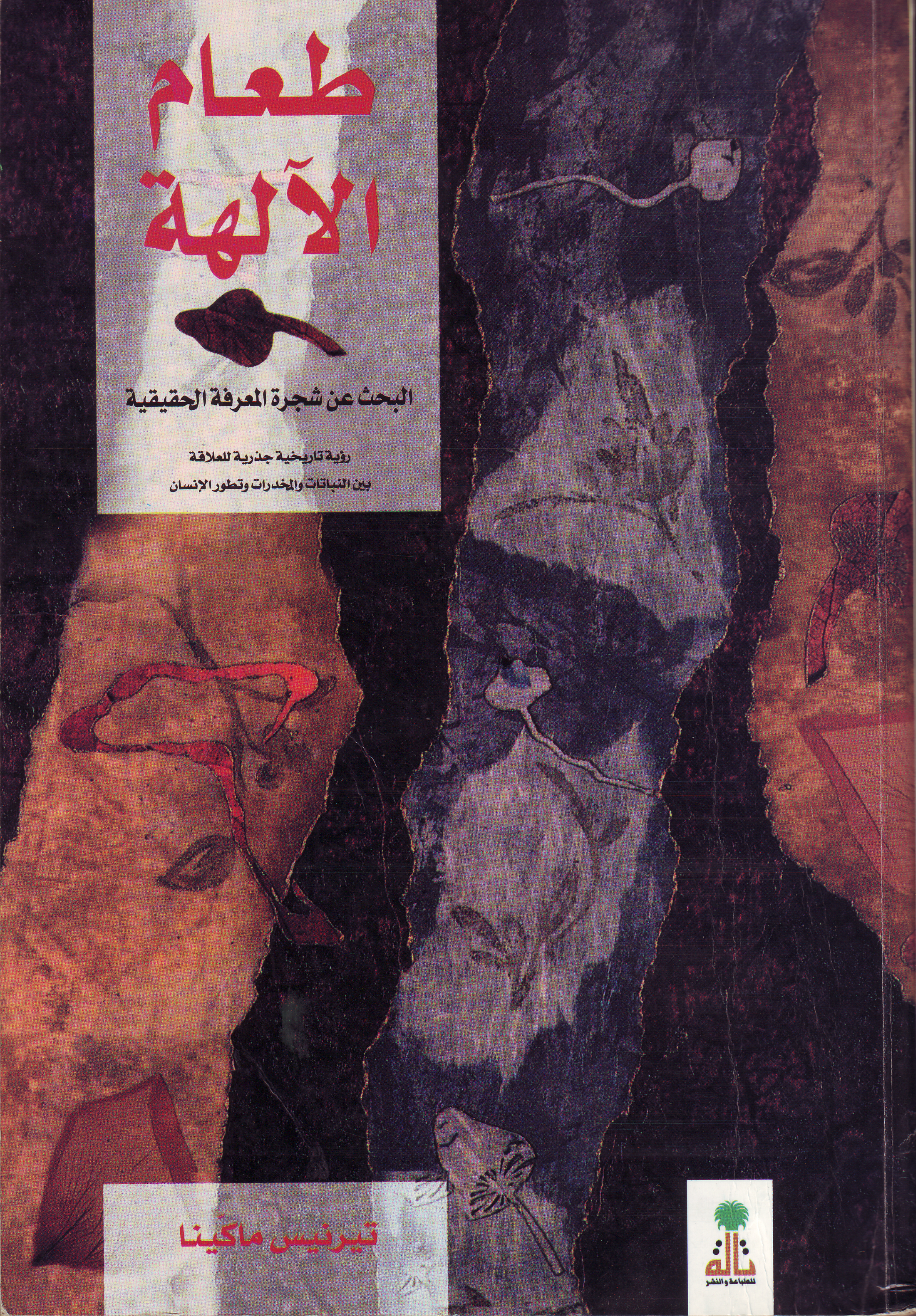


طعام الآلهة
البحث عن شجرة المعرفة الحقيقية
رؤية تاريخية جذرية للعلاقة
بين النباتات والمخدرات وتطور الإنسان
تيرنيس ماكّينا
ثالة
للطباعة والنشر

طعام الآلهة

تيرنيس ماكّينا

طعام الآلهة

البحث عن شجرة المعرفة
رؤية تاريخية جذرية للعلاقة بين النباتات والمخدرات وتطور الإنسان

ترجمة
سمية فلو عبود



طعام الآلهة

البحث عن شجرة المعرفة الحقيقية

رؤية تاريخية جذرية للعلاقة بين النباتات والمخدرات وتطور الإنسان

تيرنيس ماكّينا

ترجمة
سمية فلو عبود



الطبعة الأولى ٢٠٠٥

المحتويات

IV ـ هل تسترد الجنة

الإهداء

إلى كات وفين وكليا

كلمة شكر

أود أن أشكر جميع أصدقائي وزملائي لتشجيعهم لي أثناء إعداد هذا الكتاب، وأخصّ بالذكر من بينهم رالف أبراهام، روبرت شلدرايك، رالف مينرز، دنيس ماكّينا، كريس هاريسون، نايل هاسّال، دان ليفي، إيرنيست واه، ريتشارد بيرد، روي ودايان تاكمان، فوستن براي، برايان والاس، ماريون وآلان هانت ـ باديز. وأوجّه شكري إلى الدكتورة إليزابيت جاد ومارك لامورو اللذين أجابا على رسائلي الخاصة في فهم الأمور، لكن الاستنتاجات هي لي وحدي وأنا أتولى الدفاع عنها.

صديقي مايكل هوررويتز، أمين الأرشيف، قدم لي مساعدة كبيرة في عملي. قرأ المسودة وانتقدها وأتاح لي الحصول على صور الأرشيف من مكتبة **Fitz Mugh Ludlow**.

وأوجه تقديراً خاصاً إلى مايكل رروس مورفي ستيف وأنيتا دونوفان، نانسي لاني، بول هيربرت، كاثلين أوشونيسي، وجميع العاملين في معهد إسلين الذين منحوني فرصة أن أصبح باحثاً مقيماً في المعهد في حزيران ١٩٨٩ و١٩٩٠. كما أشكر أيضاً لو وجيل كارلينو وروبيرت شارتوف، أصدقائي الذين استمعوا إلى أجزاء من هذا الكتاب دون أن يعرفوا ذلك.

مساعدتي كات، كاثلين هاريسون ماكّينا، كانت تشاركني منذ فترة طويلة شغفي بمجال المخدرات والأفكار التي تدور في أفقه. في رحلاتنا إلى الأمازون وأماكن أخرى كانت لي خير رفيقة وزميلة وملهمة.

كات ووالداي فين وكليا وقفوا بجانبي وتحملوا تغيرات مزاجي وانقطاعي عنهم لفترات طويلة أثناء تأليف الكتاب. إليهم أوجه حبي العميق وتقديري.

شكر خاص للسلي ميريديث، الناشرة في بانتام بوكس، ومساعدتها كلودين موردي. إن تمسكها بأهمية أفكاري ساعدني كثيراً على توضيح وتوسيع نطاق بحثي ليشمل آفاقاً جديدة. أشكر أيضاً وكيلي جون بروكلمان، الذي كان رشدي في كل ما له صلة بالأمور الواقعية.

وأخيراً أود أن أشكر مئات الذين يتعاطون المخدرات والذين اتصلت بهم خلال فترة أبحاثي. هؤلاء الشامان، القدماء والحديثون، الذين فتحوا لي أعينهم على مشاهد لم يرها أحد من قبل، أناروا لي الطريق وكانوا مصدر إلهامي.

المقدمة
بيان لفكر جديد حول المخدرات

شبح المخدرات يهدّد حضارتنا، والتعريف الذي وضعته النهضة لكرامة الإنسان وصقلته القيم الديموقراطية في الحضارة الغربية الحديثة آخذ في التلاشي على ما يبدو. وسائل الإعلام تطلعنا على أن نزوع الإنسان نحو الهوس والإدمان يترافق اليوم مع إنتاج العقاقير الحديثة وتسويقها السريع. أشكال الاستخدام الكيميائي التي كانت غامضة في الماضي تتنافس اليوم على سوق عالمي حر إلى حد كبير، نجد حكومات ودول كثيرة في العالم الثالث منهمكة بشأن سلع مجازة أو محظورة تحدث سلوكاً إدمانياً.

هذا الوضع ليس جديداً، لكنه آخذ في التفاقم. حتى فترة متأخرة كانت الاتحادات الإجرامية الدولية منظمات مطيعة ابتكرتها الحكومات ووكالات الاستخبارات التي كانت تبحث عن مصدر «غير منظور» للأموال التي تريد توظيفها في تكريس نمط السلوك المؤسساتي[1]. اليوم تطورت اتحادات المخدرات من خلال الطلب المتزايد على الكوكايين، وصارت كالفيلة الشاردة تثير مخاوف حتى الذين ابتكروها[2].

يزعجنا باستمرار المشهد المؤسف «لحروب المخدرات» التي تشنها المؤسسات الحكومية التي يشلها غالباً اللامبالاة والنقص في الكفاءة، أو تواطؤها مع الاتحادات الدولية التي تعلن عن نيتها في تدميرها.

لن نستطيع تفهّم حالة تفشي وباء المخدر إلاّ إذا أعدنا تقييم وضعنا ودرسنا بعمق بعض الأنماط القديمة

---

(١) أنظر الفريد و. ماكوي في The Politics of Heroin in South east Asia نيويورك، منشورات هاربر كولوفون، بوكش ١٩٧٢، الذي يقول في صفحة ١٦:
في ظل انخفاض طلب المستهلك الأميركي (للهيروين) إلى أدنى حد له منذ خمسين سنة، وتشتت الاتحادات الدولية، كان أمام الحكومة الأميركية فرصة فريدة للقضاء على إدمان الهيروين بوصفه مشكلة اجتماعية أساسية في أميركا. لكن بدلاً من توجيه الضربة القاضية لهذه الاتحادات الإجرامية، عمدت الحكومة الأميركية ـ عبر الـ CIA وكالة الاستخبارات المركزية وجهاز OSS الذي سبقها أثناء الحرب ـ إلى إحداث وضع أتاح للمافيا الصقلية ـ الأميركية ولعصابات كورسيكا إحياء تجارة المخدرات الدولية.

(٢) فيكتور مارشيني وجون د. ماركس: The CIA and The Cult of Intelligence نيويورك: Knopf، ١٩٧٤، ص ٢٥٦. أنظر أيضاً هـ. كروغر، ١٩٨٠ وأ. و. ماكوي، ١٩٧٢.

التي كدنا ننساها، والتي عرف فيها الإنسان تجربة التخدير وانعكاسها على سلوكه. يجب أن لا نقلّل من أهمية هذا البحث لأنه من الواضح أن تعاطي المواد المنشطة، المجازة والمحظورة، سيأخذ حيزاً أكبر من مستقبل حضارة كوكبنا.

إعادة تقييم

استخدامنا مثل هذه المواد يجب أن تبدأ بتعريف التعدّد بأنه توجّه معين في النزوع أو التطبيق. عاداتنا المألوفة والمتكرّرة والتي لا نفكر فيها غالباً، هي بكل بساطة أشياء نقوم بها. وكما قيل في الماضي «الناس مخلوقات التعوّد». تعاطينا في حضارتنا أيضاً مسألة تعوّد، نتعلمها في أهلنا والمحيطين بنا ونحدث فيها تعديلات بطيئة بسبب تغير الظروف والمبادرات الإبداعية.

لكن عند مقارنة هذه التعديلات الحضارية البطيئة بالتعديلات الأكثر تباطؤاً في الأجناس وأنظمة التكيف عندها، تبدو الحضارة كأنها حالة من التجدد المستمر والجامح. إذا كانت الطبيعة تعتمد مبدأ الاقتصاد الحذر فإن الحضارة بالتأكيد تعتمد مبدأ التجديد المفرط.

حين تستبد عاداتنا بنا، وولعنا بها يتجاوز القواعد المحددة حضارياً، تتحول إلى هواجس تستحوذ علينا. هي مثل هذه الحالة أن حرية الإرادة التي تميز بها الإنسان انتهكت. قد نتعلق بأي شيء: بقراءة الصحيفة في الصباح أو بمقتنيات مادية كالأرض أو الملكية، أو بممارسة السلطة على الآخرين.

كثيرون بيننا قد ينتابهم هاجس التجميع، لكن عدداً قليلاً تسنح له فرصة المساهمة في البناء أو ممارسة السياسة. هواجس الإنسان العادي تدور في فلك الإشباع المباشر عبر الجنس والطعام والمخدرات؛ وتعلقه بالمكونات الكيميائية للأطعمة والمخدرات يسمى إدماناً.

الإدمان والاستحواذ مقصوران على الإنسان. صحيح أن بعض الدلائل تشير إلى وجود ميل للتخدر عند الفيلة والشامبانزي وبعض الفراشات[3]، لكن كما يتبين لنا عند مقارنة القدرات اللغوية للشامبانزي والدلفين بلغة الإنسان، نجد هنا أيضاً أن سلوك هذه الحيوانات يختلف نوعياً عن سلوك البشر.

العادة، الهوس، الإدمان؛ كلمات ترسم مسار التناقص التدريجي في حرية الإرادة. فكرة الإدمان تشتمل على إنكار الإرادة الحرة، ونحن ننتظر إلى حالات الإدمان بجدية بالغة ـ خصوصاً الإدمان على أشياء غريبة أو غير مألوفة. في القرن التاسع عشر كان المدمن على الأفيون يعتبر «شيطاناً»، وهذا الوصف يعود إلى فكرة الأرواح الشريرة وسيطرتها كقوة خارجية. وفي القرن العشرين تحوّل المدمن من شخص تلبسته الأرواح الشريرة إلى شخص أصيب بمرض. ومع تحوّل الإدمان إلى مرض تلاشى كلياً دور الإرادة؛ لأن الإنسان ليس مسؤولاً بالتأكد عن الأمراض التي قد يرثها أو يصاب بها.

لكن التصوّر الكيميائي صار اليوم يلعب دوراً واعياً أكثر من أي وقت مضى في تشكيل القيم الحضارية والمحافظة عليها.

منذ أواسط القرن التاسع عشر والكيمياء العضوية تضع بين أيدي الباحثين والفيزيائيين وكل إنسان

(٣) رونالد ك. سيغل. «Intoxication» نيويورك: E.P. Dutton، ١٩٨٩، ص ١١٩.

تقريباً مجموعة وافرة من المخدرات المصنّعة. هذه المخدرات تفوق على المخدرات الطبيعية من حيث القوة والفاعلية وطول فترة التأثير والإدمان. (باستثناء الكوكايين، وهو مادة طبيعية تتحول إلى مادة مدمرة بعد تفتيتها وتركيزها وحقنها في الجسم).

مع تطور النهضة الإعلامية انتشرت معلومات حول وجود نباتات مختلفة في العالم تستخدم في مجالات عديدة، للاستجمام، لإثارة الشهوة، للتنشيط، لتسكين الآلام، للتخدير؛ وعند وصول هذه المعلومات عن عالم النبات وعن تقاليد وعادات الشعوب المختلفة إلى مجتمعنا الغربي. تطعمت بها عاداتنا وأعطتنا مجالات أوسع للاختيار، وتطورت بسببها الأبحاث حول تركيبة الجزيئيات العضوية المعقّدة وازداد فهم الآلية الجزيئية في الوراثة والتكوين. وهذه الآفاق والتقنيات الجديدة تساهم في بناء حضارة مختلفة من الهندسة العقاقيرية. إن العقاقير مثل MDMA وإكستاسي والمواد الإبتنائية التي يستخدما الرياضيون والمراهقون لبناء عضلاتهم، هي بشائر لمرحلة يزداد فيها باستمرار تدخل العقاقير في مظهرنا وسلوكنا وشعورنا.

إن فكرة الإعداد لحملة على صعيد العالم كله لضبط مئات المواد في البداية، ثم آلاف الأنواع من تلك المواد التي يسهل إنتاجها ويتزايد الطلب عليها، لكنها مواد مصنعة محظورة، فكرة يرفضها كل من يتمنى مستقبلاً أكثر انفتاحاً وأقل صرامة.

إحياء بدائي

سيحاول هذا الكتاب البحث في إمكانية إحياء النظرة البديلة للمجتمع ولاستخدام المواد المختلفة ـ وللطبيعة ـ تلك النظرة التي نظم بواسطتها الإنسان الأول طريقة عيشه قبل نهضة التيار الحضاري الذي يسمى «الغربي». بلفظة بدائي نعني العصر الحجري القديم. فترة تعود إلى ما بين سبعة آلاف وعشرة آلاف سنة، وتسبق مباشرة مدة اكتشاف الزراعة. كان المجتمع البدائي مجتمع ترحل ومشاركة، وله حضارة تستند إلى تربية المواشي والشامانية وعبادة الإلهة.

استخدمت في تنظيم البحث أسلوب الترتيب الزمني إلى حد ما، الذي يشرح خطوات تطور المعرفة العقاقيرية. وأطلقت على الأقسام الأربعة العناوين التالية: «الجنة»، و«الجنة المفقودة» «الجحيم»، و«هل تسترد الجنة؟».

من الواضح أننا لم نعد قادرين على التفكير بمسألة المخدرات بالطرق القديمة. يجب أن نتوصل كمجتمع عالمي إلى رسم صورة جديدة لحضارتنا، صورة تتوحد فيها تطلعات البشرية مع احتياجات الكوكب والأفراد. إن تحليل الإحساس بالنقص الكامن فينا والذي يدفعنا إلى إقامة علاقات اتكالية وإدمانية مع النباتات والعقاقير المخدرة، سوف يظهر أننا عند فجر التاريخ فقدنا شيئاً هاماً، غيابه جعلنا نصاب بمرض النرجسية. فقط باستعادة العلاقة التي طورناها مع الطبيعة عبر استخدام النباتات المخدرة قبل بداية التاريخ، يعطينا الأمل في مستقبل إنساني منفتح.

قبل أن نؤخذ بالتفكير في حضارة تبيح حرية تعاطي المخدرات، يجب أن نعرف أننا لن نحصل عليها إلا على حساب التخلي الكلي عن مثل المجتمع الديموقراطي. وهذا يدفعنا إلى طرح عدد من الأسئلة: لماذا

يتعلق الجنس البشري بحالات الوعي المتغيرة؟ وكيف أثّرت هذه الحالات على تطلعاتنا الجمالية والروحية؟ ماالذي خسرناه عندما رفضنا نزوع الفرد لاستخدام المواد ليخوض شخصياً تجربة معرفة التعالي والسمو؟ أعتقد أن الإجابة عن هذه الأسئلة سوف تدفعنا إلى مواجهة نتائج التنكّر للبعد الروحي الطبيعي، ورؤية الطبيعة على أنها ليست أكثر من «مورد» نتقاتل لأجله ونعمل على نهبه. إن النقاش المتعمق لهذه المسائل لن يرضي المهووسين بالسيطرة، ولن يكون مريحاً للتعصب الديني الجاهل، ولا للفاشية مهما تغيرت أشكالها.

إن التفكير في مسألة تعاطينا كمجتمع وكأفراد مع النباتات المخدرة في أواخر القرن العشرين، يطرح سؤالاً كبيراً، كيف تأثرنا على مرّ الزمن بالصلات التي كنا نقيمها ثم نتخلى عنها باستمرار مع مختلف أنواع النبات؟ هذا السؤال سوف يحتلّ معظم الفصول التالية في الكتاب.

لغز «أور» في حضارتنا يفتح أبواب حديقة جنة عدن، بتناول فاكهة شجرة المعرفة. إذا رفضنا أبواب التعلّم من ماضينا سينتهي بنا الأمر للعيش في كوكب مسموم، غاباته تصبح صوراً في الذاكرة، وتتحطم دورته البيولوجية المترابطة، ولن يبقى سوى الأرض الخراب. إذا كنا في الماضي قصرّنا في محاولاتنا لفهم أصولنا وموقعنا في الطبيعة، هل نحن اليوم في موقع يسمح لنا بإلقاء نظرة متفهمة ليس فقط على ماضينا، بل وعلى مستقبلنا أيضاً، وذلك من منطلق جديد تماماً؟ إذا استطعنا استعادة إحساسنا المفقود بالطبيعة كلغز حيّ، نكون عندئذ واثقين من تطلعاتنا الجديدة نحو المغامرة الحضارية التي لا تنتظرنا بالتأكيد. إنها فرصتنا للابتعاد عن العدمية التاريخية القائمة والتي اتصفت بها هيمنة حضارة السيطرة الأبوية التوجه. نحن اليوم في وضع يسمح باستعادة التقدير البدائي للعلاقة التكافلية مع النباتات المخدرة بوصفها معين لا ينضب من التبصّر والتنسيق يتدفق من عالم النبات إلى عالم البشر.

لغز وعينا وطاقات التفكير الذاتي لهما صلتهما بهذا المجرى من الاتصال مع العقل غير المرئي الذي يصر الشامان على اعتباره روح عالم الطبيعة الحّي. بالنسبة للشامان وللحضارات الشامانية، كانت محاولات اكتشاف هذا اللغز تشكل دائماً بديلاً عن العيش في حضارة مادية مقيّدة. نحن الذين نعيش في ظل الديموقراطيات الصناعية نستطيع أن نختار اكتشاف هذه الأبصار غير المألوفة الآن، أو ننتظر حتى يتوصّل التدمير المتزايد للكوكب الحيّ إلى القضاء على هذه الفرصة.

بيان جديد

حان الوقت إذاً كي نعيد التفكير بولعنا بالتعوّد على النباتات ذات الفاعلية على الصعيدين الجسدي والنفسي. عرفنا في الماضي فترات من الاستخدام المفرط في الستينات خصوصاً، لكننا لا نستطيع الترويج لشعارات بسيطة مثل «فقط قل لا» أو «جربها سوف تحبها». ولا نحبذ أيضاً وجهة النظر التي تميل إلى تقسيم المجتمع إلى فئتين، فئة تتعاطى المخدرات وفئة ثانية لا تتعاطاها، نحن بحاجة إلى موقف متفهم لمقاربة هذه الأسئلة ذات الأبصار التاريخية والتطورية العميقة.

أثّر الغذاء التحويلي على البشر الأوائل، وكذلك فاعلية المواد الغريبة في تطوير الكيميائية العصبية والحضارة، لا يزالان غير مدروسين كما ينبغي. إن تكيف الإنسان الأول مع الغذاء المتعدد واكتشافه

لفاعلية بعض النباتات كانا عاملين فاعلين من دفع البشر خارج إطار التطور الحيواني إلى نطاق معرفة اللغة والتطور الحضاري. أجدادنا القدماء اكتشفوا أنهم عندما يأكلون نباتات معينة تخف شهيتهم وكذلك آلامهم، ويشعرون بدفق في القوة المفاجئة وتصبح لديهم مناعة تحميهم من الأمراض ويتعاونون في نشاطات معرفية. هذه الاكتشافات وضعتنا على الطريق الطويل للوعي الذاتي. عدما صرنا قادرين على استخدام الآلات، تحول مسار التطور نفسه من عملية تعديل جسماني بطيء إلى تعريف متسارع لأنماط حضارية عبر تطوير الطقوس واللغات والكتابة والمهارات الذاكرية والتكنولوجيا.

هذه الخطوات الهائلة حدثت بشكل أساسي نتيجة العلاقة التعاونية بين البشر ومختلف النباتات والتي بواسطتها تفاعلاً وترافقا في التطور. إذا استطعنا في المستقبل تطبيق الحلول المستوحاة من عالم النبات، كالحدّ من النمو السكاني، واستخراج الهيدروجين من ماء البحر، وتنفيذ برامج إعادة التدوير على نطاق واسع، قد نساعد على إعادة تنظيم مجتمعاتنا وكوكبنا إنطلاقاً من وعي بيئي متكامل ونظرة بدائية جديدة.

إن قمع اهتمام البشر الطبيعي بمجالات الوعي المتغيّر والوضع الحالي الخطير للحياة على الأرض، مرتبطان جوهرياً وسببياً. عندما نمنع الوصول إلى النشوة الشامانية، نمنع تدفق المياه المنعشة للعاطفة التي تسيل من علاقتنا المتينة والتي تكاد تكون تكافلية مع الأرض. نتيجة لذلك تتكرس الأنماط الاجتماعية السيئة التكيف التي تشجع على التكاثر السكاني وسوء الإدارة للموارد وعلى تدمير البيئة. ليس هناك من مجتمع على الأرض يتفوق على المجتمع الغربي الصناعي في تعوده على نتائج السلوك السيء التكيف. نواصل العيش بموقف اعتيادي في إطار سوريالي من المشكلات المتراكمة والتناقضات والأزمات التي لا حلول لها.

يجب أن نعرف مدى عمق معضلتنا التاريخية. سوف نستمر في اللعب بنصف قدراتنا طالما أننا مازلنا نتحمل رجالات الحكم والعلم الذين يعتقدون أنهم يستطيعون تحديد أين يجب أن تتمحور فضولية البشر وأن يحظّر عليها ذلك. هذه القيود المفروضة على المخيلة تحط من قدر الإنسان وتتنافى مع الطبيعة. إن الحكومة لا تعمد فقط إلى حظر البحث في مجال المخدرات التي تسمح فتح آفاق جديدة على صعيدي الطب وعلم النفس، ولكنها تواصل أيضاً منع استخدامها في المجالات الروحية والدينية. استخدام النبات المخدر في مجال التدين حق مدني للفرد؛ وحظره فيه قمع للنزوع الديني المشروع. إن الأمر في الواقع يتضمن حظر ذلك الإحساس الديني الذي نما بالتجربة في كل علاقة الإنسان بالنبات قبل التاريخ.

لم نعد نستطيع تأجيل إعادة النظر في الكلفة الفعلية والمنافع المختلفة لاستخدام النباتات والمخدرات والتعوّد عليها مقابل كلفة ومنافع قمع استخدامهما. حضارتنا العالمية تجد نفسها اليوم تواجه خطر السقوط في تصور أورويلي يقضي على المشكلة بالقوة عبر الإرهاب العسكري والبوليسي الذي يمارس ضد من يتعاطون المخدرات في مجتمعنا ومن ينتجونها في العالم الثالث. هذا الرد القمعي يسببه إلى حد كبير خوف ليس في محله ناتج عن قلة المعرفة والجهل.

الميول الحضارية الراسخة تفسّر الأسباب التي تجعل العقل الغربي يصبح قلقاً. ويميل إلى القمع عند

التفكير بمسألة المخدرات. إن التغييرات التي تحدث في الوعي بفعل تعاطي المواد المخدرة تدل بوضوح على أن حياتنا العقلية لها أسس فيزيولوجية. وبذلك تتحدى العقاقير المخدرة الافتراض المسيحي بحرمة الروح وحالتها الوجودية المميزة. وتتحدى أيضاً الفكرة الحديثة حول الأنا وحرمتها والبنى الضابطة لها. إن تجريب النباتات المخدرة يطرح باختصار مسألة نظرة حضارة السيطرة للعالم بأسره.

سوف نأتي على ذكر موضوع الأنا وحضارة السيطرة أثناء إعادة دراستنا للتاريخ. إن الخوف الذي ينتاب الأنا من التفكير بذوبان الحدود بين الذات والعالم يشكل فقط خلفية لقمع حالات الوعي المتغير، بل يفتتر على نطاق أوسع قمع الأنثوي والغريب وغير المألوف والتجارب التجاوزية. في الأزمنة ما بعد البدائية، ما بين خمسة آلاف وثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد، أدى قمع الغزاة البطريركيين لمجتمع المشاركة إلى التمهيد لقمع الاستكشاف التجريبي للطبيعة الذي مارسه الشامان. في المجتمعات المنظمة تم استبدال هذا التقليد البدائي بالعقيدة، والكهانة والنزوع الأبوي وممارسة القتال؛ وأخيراً بالقيم العقلانية والعلمية.

لقد استخدمت كلمتي «مشاركة» و«سيطرة» في وصف نمطين حضاريين دون أن أشرحهما. إنني أدين بهما إلى رايان إيسلر التي استخدمتهما في إعادة قراءتها المعمقة للتاريخ في كتابها: The Chalice and the Blade[٤]. إيسلر طرحت الفكرة بأن أنماط «المشاركة» في المجتمع سبقت أنماط «السيطرة» وتنافست معها فيما بعد وتراجعت أمام هيمنتها. حضارة هرمية التسلسل، أبوية، مادية، ذكورية. إيسلر تعتقد أن التنافس بين نظامي المشاركة والسيطرة، وغلبة نموذج السيطرة في النهاية، أديا إلى غربتنا عن الطبيعة وعن أنفسنا وعن بعضنا البعض.

قدمت إيسلر تصوّراً ذكياً لظهور الحضارة البشرية في الشرق القريب وبينت طابعها الأنثوي، وشرحت حاجتنا إلى التخلي عن أنماط السيطرة الذكورية لبناء مستقبل واعد. تحليلها لسياسة التفرقة بين الجنسين يرفع من مستوى النقاش في هذا المجال. كتاب The Chalice and the Blade يطرح فكرة «مجتمعات المشاركة» و«مجتمعات السيطرة». ويلجأ إلى التاريخ البدائي ليؤكد أن مجتمعات المشاركة في الشرق الأوسط عاشت على مساحات شاسعة من الأراضي واستمرت عدة قرون بدون تقاتل أو عدائية. القتال والنفوذ الأبوي ترافق مع قيم السيطرة.

إرث السيطرة

حضارتنا التي سممت ذاتها منتوجات التكنولوجيا والأيديولوجيا الفردية، هي الوراث التعيس لموقف السيطرة من تغيير الوعي باستخدام النباتات أو المواد بأنه أمر سيء وناقص وغير اجتماعي. سوف أبين في هذا الكتاب أن قمع التوجه الشاماني واستناده إلى إذابة الأنا بالنشوة، حرمنا من معنى الحياة وجعلنا أعداء للكوكب ولأنفسنا ولأحفادنا. إننا اليوم نقتل الكوكب للمحافظة على سلامة الفرضيات الخاطئة التي وضعتها حضارة سيطرة الأنا.

حان الوقت للتغيير.

---

(٤) ريان إيسلر. The Chalice and the Blade (سان فرنسيسكو: Harper & Row، ١٩٨٧

ا

الجنة

١ ـ الشامانية: إعداد المسرح

جلس روانغي بهدوء في ضوء النار الشاحب. شعر بانثناءات في داخله وكأنه يبتلع سمكة الأنقليس. وفيما كان يفكر في ذلك تراءى له، في المساحة الداكنة بين عينيه، رأس أنقليس أكبر من المعتاد يسبح في زرقة مكهربة.

«أيتها الروح الأم، روح الشلاّل الأول...»

«يا جدّة الأنهار الأولى...»

«إظهري، إظهري».

تجاوباً مع الأصوات امتلأت المساحة الداكنة خلف الأنقليس الآخذ في الالتفاف ببطء محاطاً بالشرر المتلألىء؛ أمواج الضوء بدأت تعلو أكثر فأكثر يرافقها هدير يزداد قوة.

«إنها الماريا الأولى». قالت مانقي، أكبر الشامان في قرية جارو كامينا. «حضورها قوي، قوي جداً».

وتصمت مانقي فيما الرؤى تزداد وضوحاً. إنهم الآن على حافة فنتوري، العالم الحقيقي، المنطقة الزرقاء. صوت المطر المنهمر في الخارج لم يعد مسموعاً. الأوراق الجافة تتحرك ببطء مع تصاعد رنين أجراس بعيدة، وقد بدأ الرنين كأنه ضوء أكثر منه صوتاً.

حتى فترة متأخرة نسبياً كانت طقوس مانقي وقبيلتها الأمازونية تعتمد كممارسات دينية في شتى الأنحاء؛ ومنذ بضعة آلاف سنة فقط اتخذ اللاّهوت والشعائر أشكالاً أكثر تعقيداً... وهي ليست بالضرورة أكثر فائدة.

الشامانية والدين

وَصَلْتُ إلى شمالي الأمازون في أوائل السبعينات، بعدما أمضيت بضع سنين في المجتمعات

الآسيوية. وفي آسيا تتناثر بقايا العلوم الدينية في كل مكان كأنها هياكل جعلان غطتها الرمال. كنت قد سافرت عبر الهند بحثاً عن كل ما هو أعجوبي. زرت معابها وأشرماتها وغاباتها ومعتزلاتها الجبلية. لكن اليوغا، تلك الممارسة التي تستمر باستمرار الحياة والتي تعتنقها قلّة من الزهاد المدرّبين، لم تكن كافية لتحملني إلى العوالم الداخلية التي رغبت في الولوج إليها.

تعلّمت في الهند أن الدين في كل الأزمنة والأمكنة حيث بدأت شعلة الروح المتألقة بالذوبان، ليس أكثر من خدعة. الدين في الهند زاوٍ في العيون المتعبة التي ألفت وجود الكهنة منذ أربعة آلاف سنة. كانت الهند الهندوسية الحديثة بالنسبة لي حالة مناقضة وفي الوقت نفسه مقدمة مناسبة للبحث في الشامانية شبه المهجورة التي وجدتها في جنوب ريو بوتو مايو في كولومبا، التي قصدتها لدراسة استخدام الشامانيين للنباتات المهلوسة.

كانت الشامانية في العصر الحجري القديم تقليداً يمارس للشفاء والتنجيم والأداء المسرحي وهي ترتكز إلى معرفة أصول سحرية تعود إلى فترة تتراوح ما بن عشرة آلاف وخمسين ألف سنة. ميدسيا إلياد مؤلف كتاب: «الشامانية: الأساليب القديمة للنشوة» والذي بحث في الهيمنة المفروضة على الشامانية في إطار الدين، أكّد أن الشامانية في كافة الأزمنة ظلّت تحافظ على تماسك داخلي ملفت في التطبيق والمعتقد. سواء أكان الشامان من «الإينويت» سكان القطب الشمالي أو «الويتوتو» من أعلى الأمازون هناك ممارسات تقنية وتوقعات لا تتغير. وربما تكون «النشوة» أهم هذه الثوابت، وهذا ما أشرت إليه مع أخي في كتابنا «العالم غير المرئي»:

> يصعب تحليل مرحلة النشوة أثناء إعداد الشامان لأنها ترتكز إلى وجوب تمتّع المبتدىء بمستوى معين من التقبّل لحالات الغشية والنشوة؛ قد يكون متقلّب المزاج، على شيء من الضعف والرقة يميل إلى الوحدة، وربما يصاب بنوبات صرع أو إغماء تخشبي، أو بحالات اضطراب سيكولوجي أخرى (وقد لا تكون هذه السمات موجودة دائماً كما يؤكد بعض الباحثين في هذا الشأن[١]). على أية حال، إن الاستعداد السيكولوجي عند المبتدىء لتقبّل النشوة يشكل فقط نقطة الانطلاق في تلقّنه: إن المبتدىء المصاب بمرض سيكوسوماتي أو اضطراب سيكولوجي وقد تكون إصابته قوية إلى حدّما، يبدأ أخيراً بالخضوع لأمراض وحالات غشيان تمهيدية؛ إنه يتمدد كالميت أو يتعرض لحالة غشيان عميق لأيام متتالية. خلال هذه الفترة تتقرّب منه في أحلامه أرواح مساعدة، وقد يتلقى تعليمات منها. خلال حالة الغشية المطولة يعيش المبتدىء، بشكل متفاوت، تجربة موت باطني يليها انبعاث؛ قد يرى نفسه وقد تحوّل إلى هيكل عظمي ومن ثم يكتسي بجسم جديد؛ أو يرى نفسه يطبخ في خلقين والأرواح تلتهمه

(١) أنظر مرسيا إلياد في كتاب: Shamanism: Archaic Techniques of Ecstasy. نيويورك، Pantheon، ١٩٦٤، ص ٢٣ والصفحات التالية.

وبعد ذلك يستعيد جسمه؛ أو يتصور أن الأرواح تخضعه لعملية جراحية فتنتزع أعضاءه وتستبدلها «بأحجار سحرية» ثم تعيدها إلى أماكنها.

لقد أظهر إلياد أنه على الرغم من احتمال الاختلاف في الدوافع الخاصة ما بين الثقافات وحتى الأفراد، يظل المبدأ العام في الشامانية واضحاً: وهو أن المعتنق الجديد يختبر حالتي موت وانبعاث باطنيين، تعتبران تحوّلاً جذرياً نحو التفوق على البشر. وبذلك يكتسب الشامان مقدرة التواصل مع العالم الفوقي ويصبح بارعاً في النشوة ويستطيع أن يخوض في المجال الروحاني كما يشاء، والأهم من ذلك يصبح قادراً على الشفاء والتنبؤ. وقد ذكرنا في «العالم غير المرئي»:

> باختصار، يتحوّل الشامان من الوجود الدنيوي إلى الوجود المقدس. إنه لم ينجح فقط في معالجة نفسه خلال عملية التحول الباطني، بل اكتسب أيضاً القدرة المقدسة وصار بإمكانه شفاء الآخرين أيضاً. لكن يجب أن نذكر أن الشامان ليس مجرد إنسان مريض أو مجنون؛ إنه مريض عالج نفسه وشُفي ويجب أن يمارس الشامانية حتى يحافظوا على شفائه[٢].

تعمّد إلياد استخدام كلمة «دنيوي» وكان يقصد بذلك إظهار البعد الواضح بين فكرة العالم الدنيوي وتجاربه الاعتيادية وبين العالم المقدس «المختلف كلياً»[٣].

طرائق النشوة

قد لا يستخدم جميع الشامانيين الأعشاب المسكرة للوصول إلى النشوة، لكن كافة أنماط الممارسة الشامانية تهدف لإثارة النشوة. قرع الطبول والتحكّم بعملية التنفّس والخضوع لضروب من التعذيب والصيام والخدع المختلقة والامتناع عن الممارسة الجنسية ـ كلها وسائل معروفة للتوصل إلى حالة الغشية الضرورية لعمل الشامان. لكن أياً من هذه الوسائل ليس بفاعلية أو عراقة أو أهمية استخدام النباتات التي تحتوي المركبات الكيميائية التي تحدث التهيؤات.

ربما يبدو استخدام النباتات المسكّرة الملهمة أمراً غريباً ومفاجئاً بالنسبة لبعض الغربيين. إن مجتمعنا ينظر إلى العقاقير ذات التأثير النفسي على أنها غير مجدية أو خطيرة أو أنها في أحسن الحالات يمكن اللجوء إليها لمعالجة المصابين بأمراض عقلية خطيرة في حال عدم توفّر علاج آخر. نحن نرى أن المعالج هو الذي احترف الطب ويستطيع أن يشفي المريض من خلال تملّكه لمعرفة خاصة. لكن المعرفة الخاصة التي يستحوذ عليها المعالج اليوم هي معرفة سريرية، وهي بعيدة عن فكرة التعاطي مع كل مريض باعتباره حالة فريدة وخاصة تتوضّح بشكل تدريجي.

---

(٢) دنيس ماكينا وترينس ماكينا: The Invisible Land Scape. نيويورك، Seaburry Press، ١٩٧٥، ص ١٠.
(٣) إيلياد. ١٩٥٩، ص ٩.

الشامانية لها طريقتها الخاصة بها. وفي حال استخدام العقاقير المخدّرة، الشامان هو الذي يتناول المخدّر عادة وليس المريض. وعملية الحثّ أيضاً تختلف كلياً. النباتات التي يستخدمها الشامان لا يقصد بها استثارة نظام المناعة في الجسم أو أية أجهزة طبيعية أخرى لمواجهة المرض؛ إن النباتات الشامانية تسمح للمعالج بالسفر إلى عالم غير مرئي استبدلت فيه عِلّية العالم المألوف بمنطق السحر الطبيعي. في هذا العالم تكتسب اللغة والأفكار والمعاني قوة أعظم من قوة السبب والنتيجة. المشاركة الوجدانية والأصداء والنوايا والإرادة الذاتية تتمجّد لغوياً من خلال اللغة الشعرية. تنتعش المخيلة وفي بعض الأحيان عليها رؤية إيحاءاتها. داخل إطار التركيز العقلاني السحري الذي يقوم به الشامان تفقد الروابط المعروفة في العالم المادي، وتلك التي نسميها القوانين الطبيعية، أو يتم تجاهلها.

عالم مصنوع من اللغة

تؤكد التجربة الشامانية المستمرة منذ آلاف السنين أن العالم بشكل ما مصنوع من اللغة. ومع أن هذا الطرح الراديكالي يخالف توقعات العلم الحديث إلاّ أنه يتوافق مع معظم التفكير اللغوي السائد اليوم.

يقول ميسيا لاندو، العالم الأنتروبولوجي في جامعة بوسطن: «تكمن الثورة في الدراسات اللغوية في القرن العشرين في الإقرار بأن اللغة ليست مجرد وسيلة لتوصيل الأفكار عن العالم، بل أداة لجعل العالم موجوداً في المقام الأول ليس الواقع ببساطة «معاشاً» أو «معكوساً» في اللغة بل هو بالفعل مُحدَث بواسطة اللغة»[٤].

من وجهة نظر الشامان المُخَدَّر يبدو العالم بطبيعته أقرب لأن يكون تعبيراً أو قصة منه لأن يكون علاقات التبادل أو الاكتشافات التي يتحدث عنها كهنتنا العظماء، علماؤنا. الكون بالنسبة للشامان قصة تصبح حقيقية عندما يرويها الناس وعندما تروي ذاتها. هذا التصوّر يعني أن المخيلة البشرية تستطيع أن تستوعب فكرة الوجود في العالم. الحرية والمسؤولية الذاتية والإدراك المتواضع للحجم الفعلي وللذكاء في العالم، تلتقي جميعاً في وجهة النظر هذه لتجعل منها قاعدة ملائمة لحياة واثقة نيو بدائية، تبجيل قوى اللغة والاتصال والخوض فيها هي القاعدة في الطريقة الشامانية.

لهذا يبدو الشامان الجد الأقدم للشاعر والفنان. يبدو أن حاجتنا لأن نشعر بأننا جزء من العالم تدفعنا للتعبير عن أنفسنا من خلال النشاط الإبداعي؛ والأصول المطلقة لهذه الطاقة

(٤) من كتاب روجر لوين In The Age of Mankind. نيويورك، Smithsonian Institution، ١٩٨٨، ص ٨٠.

الإبداعية تكمن في غموض اللغة. نشوة الشامان فعل استسلام يثبت في الوقت نفسه موثوقية الذات الفردية وموثوقية ما يُستسلم له، لغز الوجود. إن تصوّراتنا للواقع تتحدد في أطر الظروف الحالية، لذلك نحن نميل لفقدان إدراك الإطارين الأكثر شمولية وهما الزمان والمكان. ونحن لن نقدر أن نلمح هذين الإطارين والدور الذي نلعبه منهما إلا من خلال تحقيق التواصل مع الآخر المتسامي. تجاهد الشامانية من أجل هذا التوجه التعالي الذي يتحقق من خلال عمل لغوي فائق البراعة. الشامان هو الذي توصل لرؤية بدايات ونهايات كل الأشياء «وهو الذي يستطيع توصيل هذه الرؤية». يبدو هذا غير مفهوم بالنسبة للتفكير المنطقي. لكن الطرق التي تعتمدها الشامانية تتجه جميعاً نحو هذه الغاية. ومن هنا تستمد قوتها بين الطرق الشامانية تعطى الأولوية لاستخدام النباتات المخدّرة، وهي مخازن المعرفة النباتية الحية في ماضينا البعيد والتي تكاد تكون اليوم منسية.

حقيقة ذات بعد أعلى

بالدخول في مجال الذكاء النباتي ينعم الشامان بطريقة ما بالوصول إلى رؤية التجربة من بعد أعلى. يفترض المنطق السليم أنه على الرغم من التغيير المستمر الذي تخضع له كل اللغات فإن المادة الأولية في التعبير اللغوي تظل نسبياً ثابتة ومشتركة بين جميع البشر. لكنا نعرف أن لغة «الهوبي» ليست فيها صبغتا الماضي والمستقبل أو مفاهيم. كيف يكون إذاً عالم «الهوبي» مثل عالمنا؟ ولغة «الإنويت» ليس فيها ضمير المتكلم، فكيف يكون عالم هؤلاء كعالمنا؟

قواعد اللغات ـ قوانينها الداخلية ـ درست بدقة، لكن الباحثين لم يكرسوا اهتمامهم لدراسة كيف تخلق اللغة الواقع وتعرّف حدوده. ربما نستطيع أن نفهم اللغة أكثر عندما نفكر فيها أنها سحر، لأن التوجّه الضمنيّ للسحر ينصّ على أن العالم مصنوع من اللغة.

إذا تمّ التوافق على أن اللغة هي المعطى الأولي للمعرفة نكون في الغرب قد ابتعدنا بشكل مؤسف عن الحقيقة، وستكون الشامانية فقط قادرة على الوصول إلى الإجابات على الأسئلة التي تبدو الأكثر أهمية بالنسبة لنا: من نحن، ومن أين أتينا، ونحو أيّ مصير نتجه؟ هذه التساؤلات تكتسب اليوم أهمية أكثر من أي وقت مضى، بعدما لمسنا فشل العلم في رعاية الروح الإنسانية في كل مكان من حولنا. ما نعيشه اليوم ليس مجرد حالة سأم روحي عارض، بل سيتكرس، إن لم نكن حذرين، كحالة سأم نهائية روحية وجسدية في آن واحد.

إن الانحراف العقلاني والآلي واللاّ روحاني في ثقافتنا حال دون تمكيننا من تقدير أفق الشامان. نحن عاجزون ثقافياً ولغوياً عن رؤية عالم القوى والاتصالات، الذي يراه بوضوح أولئك الذين حافظوا على الصلة «البدائية» بالطبيعة.

عندما وصلت إلى الأمازون قبل عشرين سنة لم أكن بالطبع أعرف شيئاً من ذلك. كنت، كمعظم الغربيين، أعتقد أن السحر ظاهرة تخص البسيط والبدائي، وأن العلم يستطيع أن يفسّر طبيعة العالم. كنت على هذا القدر الضئيل من الثقافة عندما تعرفت إلى نبات الفطر الذي يحتوي على بسيلوسبين للمرة الأولى في سانت أوغستين في منطقة ألتو ماغدلدينا في جنوبي كولومبيا. وفيما بعد في فلورنسيا تعرّفت إلى أنواع من الشراب المخمّر الملهم وجربتها، وهي تعدّ من نباتات معرّشة مثل بانيستريوبسيس أو باغي أو أياهواسكا التي عرفت بالأسطورة الباطنية في الستينات(٥).

خلال هذه الأسفار خضت تجارب كان لها أثرها في تغييري شخصياً، والأهم من ذلك أنها عرّفتني إلى مستوى من التجارب أرى أنها حيوية لإعادة التوازن إلى عالمنا المجتمعي والبيئي.

شاركت في التفكير الجماعي الذي يتولّد من جلسات أياهواسكا الملهمة. رأيت سهام الضوء الأحمر السحرية التي يستطيع الشامان أن يوجهها نحو شخص آخر. لكن الأكثر إيحاءاً من الأعمال الخارقة التي قام بها السحرة الموهوبون والمعالجون الروحانيون كانت تلك الثروات الداخلية التي اكتشفها في أعماقي عند الوصول إلى ذروة تلك التجارب. سوف أقدم عرضاً لما اختبرته بنفسي كشهادة من رجل عادي، فإذا كنت قد عرفت هذه التجارب فإنها قد تصبح جزءاً من التجربة العامة للناس جميعاً في كل مكان.

إيحاء شاماني

لم تكن ثقافتي الشامانية متميزة. آلاف الأشخاص توصلوا بطريقة أو بأخرى إلى معرفة أن النباتات المخدِّرة، والأعراف الشامانية المتضمنة في طرق استخدامها، هي أدوات فاعلة في اكتشاف الأعماق الباطنية للنفس البشرية. مخدرو الشامان يشكلون اليوم مجموعة منتشرة ومتنامية من المكتشفين لثقافة تحتية متعدّدة الأبعاد، ومعظم هؤلاء يتمتعون بالمهارة العلمية. هناك أفق بدأ يثير الاهتمام؛ عالم مازالت رؤيته غير واضحة لكنه آخذ في التشكّل ويتطلب المعالجة المنطقية ـ وربما يهدّد بإرباكها. قد نكون مازلنا قادرين على أن نتذكر كيف نتصرّف، وكيف نتخذ موقعاً صحيحاً في النظام الترابطي، تلك الشبكة غير المتشققة التي تتضمن كل الأشياء.

لا يزال هذا التّوق لتحقيق التوازن ماثلاً في الحضارات المنسية والمهملة في غابات وصحاري العالم الثالث، وفي الأماكن المخصّصة في بعض الدول لإقامة شعب البلاد الأصلي حيث تمد الحضارة المهيمنة ذلك الشعب بالقوة. قد تكون المعرفة الروحية الشامانية آخذة في الزوال؛ وهي

(٥) ويليام بورروز و أ. غينزبيرغ: The Yagé Letters. سان فرنسيسكو، City Light Books، ١٩٦٣.

بالتأكد تتغير. لكن إحداث الهلوسة بالنباتات الذي يشكل الأساس في هذه المعرفة، وهو الأكثر قدماً بين الأديان التي عرفها الإنسان، يستمر في إنسيابه كالنبع الصافي المنعش كما كان منذ البداية. تظل الشامانية حيوية وحقيقية بسبب المواجهة الفردية مع التحدي والغرابة والنشوة والإثارة التي تحدثها النباتات المهلوسة.

معرفتي للشامانية والنباتات المهلوسة في الأمازون أقنعتني بأهميتها المنقذة. قررت تنقية الطقس السري من كافة المعوقات اللغوية والثقافية والعقاقيرية والضجة الشخصية التي تحجبه. كنت أتمنى الوصول إلى جوهر الشامانية، وأن أتتبع تجلّيها حتى مخبئها. أردت أن أسترق النظر إلى ما وراء أحجية رقصتها المدوّمة. كنت أحلم بمواجهة الجمال العاري.

قد يسخر البعض من هذا الأسلوب في التعبير ويرون الأمر في إطار الأوهام الرومنسية التي يعيشها الشباب. والمثير للسخرية بالفعل أنني كنت في أحد الأيام في صف هؤلاء. كنت مقتنعاً بحماقة البحث، واثقاً من موقفي. «الآخر؟ الجمال الأفلاطوني العاري؟ لا بدّ أنك تمزح!».

لا بدّ أن أعترف أنني واجهت عقبات كثيرة في طريقي. قال لي أحد أتباع الزّنيّة مرة «يجب أن نصبح مولعين بالله» وكان يعني بذلك أن نهتدي إلى الطريق الصحيح. كنت ممن يؤمنون بالسعي الدؤوب للوصول إلى الحقيقة. عرفت أن الممارسة الشامانية ترتكز إلى استخدام نباتات مهلوسة لا تزال معروفة في الأمازون فقررت أن أتأكد في صدق حدسي بوجود سر عظيم خفي وراء هذا الواقع.

□ □ □

الحقيقة فاقت الإدراك. أضافت العجوز إلى النار بضع حطبات فازدادت اشتعالاً وبدا وجهها المرقّش والمصاب بالجذام أكثر هولاً. في المساحة الداكنة خلفها كنت أستطيع أن أرى الدليل الذي رافقني إلى هذا المكان الذي ليس له اسم على نهر ريو كومالا. في حانة البلدة النهرية التقيت بالصدفة بصاحب مركب مستعد لأن يصحبني إلى ساحرة أياهواسكا العجائبة فلم أشأ تفويت تلك الفرصة العظيمة. بعد ثلاثة أيام من السفر عبر النهر، ونصف يوم من الخوض في دروب موحلة لدرجة أن المرء يكاد يفقد حذاءه مع كل خطوة، كدت أفقد حماسي.

في هذه المرحلة بدا لي الهدف الرئيسي من رحلتي التعرف إلى مشروب أياهواسكا الأصيل والمصنوع في الغابة والذي يختلف كلياً عما يبيعه المشعوذون في السوق ـ لم يعد هذا الهدف مهماً بالنسبة لي إلى هذا الحدّ.

قالت العجوز: «تُومِه كاباليرو!» وهي تقدم لي كأساً مليئاً بسائل أسود لزج له بريق زيت المحرّك.

قلت في نفسي وأنا أشرب أنها لا شك كبرت في هذه الممارسة. كان السائل دافئاً ومالحاً، له طعم الطباشير وهو حلو ومرّ. طعمه كطعم دم كائن قديم، قديم جداً. حاولت أن لا أفكر بأنني كنت تماماً تحت رحمة أولئك الغرباء. لكن شجاعتي بدأت تخبو. عينا دونا كاتالينا وعينا الدليل بدت أكثر برودة. موجة من أصوات الحشرات تدفقت مع مياه النهر وبدت كأنها ترّش الظلام بومضات ضوئية. شعرت أن شفتيّ تتخدران.

حاولت أن أخفي حالة الخدر التي انتابتني، فعدت إلى الأرجوحة الشبكية واستلقيت. خلف عينيّ المغمضتين رأيت نهراً يتدفق بضوء أرجواني. وبدا لي فيما يشبه الدوران الرشيق الحالم أن طائرة هيليكوبتر تحط على الكوخ وتلك كانت آخر صورة خطرت لي.

عندما استعدت وعيي شعرت أنني أركب الإنحناءة الداخلية لموجة معرفية مشعة وشفافة تعلو بضع مئات من الأقدام. لكن الغبطة ما لبثت أن تحولت إلى ذعر عندما أدركت أن الموجة تتجه بسرعة نحو شاطىء صخري. كل شيء تلاشى في هدير تلاقي موجة المعرفة مع الأرض الفعلية. ضاع مزيد من الوقت وبعد ذلك تكوّن لديّ انطباع بأنني بحار تحطمت سفينته قذفته الأمواج على شاطىء استوائي. شعرت أنني أضغط وجهي على الرمال الحارة لشاطئ استوائي. أنا محظوظ لأنني مازلت حياً. أنا محظوظ لأنني مازلت حياً! أم أنني حيّ لأكون محظوظاً؟ وانفجرت ضاحكاً.

بدأت العجوز تغني. أغنيتها لم تكن أغنية عادية بل «إيكارو»، وهي أغنية علاجية سحرية بدت في حالة الخدر والنشوة أشبه بسمكة استوائية مثنية أو وشاح حريري منتعش بالألوان أكثر منها أداء صوتياً. كانت الأغنية تعبيراً مرئياً لقوة أحاطت بنا وجعلتنا نشعر بالأمان.

الشامانية والعالم البدائي الضائع

ميرسيا إلياد كان بارعاً في تعريفه للشامانية بأنها «طرائق النشوة البدائية». استخدام إلياد لكلمة «بدائية» له أهمية لأنه يلفت انتباهنا إلى الدور الذي يجب أن تلعبه الشامانانية في أية عملية فعلية للأنماط البدائية للوجود والعيش والوعي. الشامان يستطيع الدخول إلى عالم خفيّ عن أولئك الذين يعيشون في الواقع المألوف. في هذا البعد الآخر تتواجد قوى مساعدة وحاقدة. قوانينه تختلف عن قوانين عالمنا؛ إنها أقرب للقوانين السائدة في الأساطير والأحلام.

الشامانيون المعالجون يؤكدون على وجود «آخر» ذكي في موضع ما في بعُد قريب منا. إن تواجد بيئة من الأرواح أو ذكاء جسدي ليس أمراً نتوقع من العلم أن يخوض فيه وأنه سيخرج

منه دون أن تمسّ مقدماته المنطقية. خصوصاً إذا كان هذا الآخر موجوداً منذ القدم ويشكل جزءاً من البيئة الأرضية وأنه حاضر لكنه غير مرئي، ويشارك في حفظ السرّ الكونيّ.

كتابات كارلوس كاستانيدا ومقلّديه أدّت إلى إحداث موضة من «الوعي الشاماني»، والتي على الرغم من تشوشها حوّلت صورة الشامان من مجرد شخص خارجي في المؤلفات التي تناولت الثقافة الأنثروبولوجية إلى الدور النموذجي للوسيط الذي يتمتع بكامل العضوية في المجتمع النيو ـ بدائي. بالرغم من سيطرة الشامانة على المخيلة الشعبية فإن الظواهر الخارقة التي تعتبرها فعلية وحقيقية. لم تدرس بشكل جدي من قبل العلم الحديث، مع أن بعض العلماء في حالات قليلة من الاهتمام طلبوا من علماء النفس والأنثروبولوجيين بتحليل الشامانية. هذا التعامي عن وجود العالم ما فوق الطبيعي أحدث ثغرة فكرية في تصوّرنا الطبيعي للعالم. نحن نجهل تماماً عالم الشامان السحري إنه بكل بساطة أكثر غرابة مما نستطيع تخيّله.

إذا أثرنا البحث في موضوع الشامان وقلنا أنه يستخدم النباتات للتحاور مع عالم غير مرئي تسكنه أشكال من الذكاء غير البشري، لن يفهم أحد شيئاً من ذلك؛ صحيح أن الأنثروبولوجيين يشيرون إلى أمور مماثلة لكن ذلك لا يثير اهتمام أحد. سبب ذلك أننا نميل إلى الافتراض بأن الشامان يفسّر تجربة تخدره أنها تواصل مع الأرواح أو الأسلاف، لكننا نفسّر التجربة نفسها بشكل مختلف فلا نعطي أهمية لكاهن (كامبسينو) أخيّ فقير يعتقد أنه يتحدث إلى ملاك.

على الرغم من التعصب في هذا الموقف إلاّ انه كان حافزاً للبحث لأنه يعني: «سأتعرف إلى طرائق النشوة المطروحة وسأحكم على فاعليتها بنفسي»، وهذا ما قمت به فعلاً. تلك كانت المنطلقات النظرية والفكرية التي رافقتني في بحثي. في البداية أذهلني ما اكتشفته: عالم الشامانية والتحالف والتغيّر في الشكل والأعمال السحرية كان أكثر واقعية من أية طروحات علمية، لأنه بالإمكان رواية وتحسّس أرواح الأسلاف في عالمها الآخر، في البعد غير المألوف للواقع.

هناك شيء عميق وغير متوقع ويكاد يكون أبعد من قدرتنا على تصوره، ينتظرنا عندما نشرع بتوجيه اهتمامنا للبحث في ظاهرة النباتات الشامانية المهلوسة. هناك شعوب لها كيانها خارج الحضارة الغربية، هي لا تزال تعيش في الزمن الحالم السابق لمعرفة القراءة والكتابة، وقد حافظت على شعلة لغز هائل. يجب أن نكون متواضعين ونعترف بذلك ونبدأ بالتعلّم منها، وهذا أيضاً يعتبر مرحلة في إحياء البدائية.

هذا لا يعني أننا يجب أن نقف باسترخاء أمام إنجازات «البدائين». كل الذين يعملون في

هذا الحقل اختبروا مراراً ذلك التعارض بين توقعاتهم حول «كيف يجب أن يتصرف سكان غابات المطر» وبين وقائع الحياة اليومية للقبائل. لم نتوصل بعد إلى فهم الذكاء الغامض داخل النباتات ولم نفهم كيف تعبّر الطبيعة عن ذاتها بلغة كيميائية أساسية تكون لا واعية ولكن عميقة. كما أننا لم نفهم بعد كيف تعمل المخدرات على تحويل الرسالة في اللاوعي إلى تصورات يراها العقل الواعي. فيما كان البدائيون يصقلون معارفهم الحدسية والحسية باستخدام النباتات المتوفرة التي ساعدتهم على المزيد من التأقلم، لم يكن لديهم الوقت الكافي للخوض في التساؤلات الفلسفية. حتى يومنا هذا لاتزال فكرة وجود هذا العقل داخل الطبيعة، الذي اكتشفته الشعوب الشامانية، تحتاج إلى توضيح.

في الوقت الحاضر تستمر الشامانية، بهدوء ومن خارج التاريخ، بتحاورها مع عالم غير مرئي. إن التراث الشاماني يستطيع أن يلعب دوراً فاعلاً في إعادة توجيه وعينا لمصيرنا الجماعي. تؤمن الشامانية بأن البشرية ليست بدون حلفاء. هناك قوى ودية تساعدنا في تأكيد وجودنا كجنس ذكي. لكن هذه القوى هادئة وخجولة؛ يجب أن نبحث عنها، ولكن لا داعي أن ننتظر وحولها في مركبة فضائية غريبة تهبط علينا من السماء، بل نتلمسها في الجوار، في عزلة البرية، بالقرب من الشلالات، وأيضاً في المراعي المكسوة بالأعشاب التي نادراً ما نراها.

٢ ـ السحر في الطعام

منذ أيام وعشيرة الثعلب تجمع وتخزن كميات كبيرة من الأغذية. كانت شرائح لحم الغزال تُدخّن حتى تتغطى بالسواد، فيما انهمك الأولاد بجمع جذور نباتات حلوة وحشرات خادرة. النساء جمعن البيض ـ كمية هائلة من البيض. هذا البيض كان يشغل بال لامي، التي كانت تعد نفسها للمهمة التي ستقوم بها. أليست هي ابنة «سيدة جميع الطيور»؟ البيض يجب توضيبه بعناية في سلال مفتوحة ستحملها على رؤوسهن مجموعة من الفتيات الأكثر تحملاً للمسؤولية. طقس تبادل الأغذية سوف يبدأ عندما يلتقي أفراد عشيرة الثعلب، قوم لامي، بأفراد عشيرة الصقر، الذين يكتنفهم الغموض ويقيمون في أرض تغطيها حجارة رملية مستدقة الرؤوس. في هذا اليوم سوف ينضمون إلى أولئك الآخرين، كما يفعلون كل سنة منذ وقت لا يمكن تحديده، من أجل إحياء الرقصات الاحتفالية وتبادل الأطعمة. لامي تذكر آخر لقاء لأنسبائها حين تحدثت فاندا، الشامان الأكبر في عشيرة الثعلب، عن معنى الاحتفال والدافع إليه.

«أن نتشارك في الطعام يعني أن نصبح بجسد واحد. عندما تأكل عشيرة الصقر من طعامنا تتماثل معنا. وعندما نأكل طعامها نصبح مثلها، من خلال تناول طعام الآخرين نظل متماثلين». فاندا بثدييها المتدليين وظهرها المنحني بدت جليلة بالنسبة إلى لامي. مهما يكن عمرها لا أحد يتذكر أكثر منها ونادراً ما كانت كلمتها تناقش داخل المجموعة، رفعت لامي سلتها برفق لتبدأ رحلتها. إذا كانت عشيرة الصقر تريد البيض فسوف تحصل على البيض.

□ □ □

إن الطريقة التي يستخدم فيها الناس النباتات والأطعمة والعقاقير تتسبب في تبديل القيم الفردية وبالتالي قيم مجتمعات بأسرها. تناول بعض الأطعمة يجعلنا سعداء وتناول أطعمة أخرى

يجعلنا نشعر بالنعاس، وهناك أطعمة تنشطنا. قد نشعر بالفرح أو الاضطراب أو الإثارة أو الإحباط وذلك سببه الطعام الذي نتناول. بحيث المجتمع بشكل ضمني على تبني طرق معينة في السلوك تتطابق مع مشاعر داخلية، وهو بذلك يشجع على استخدام المواد التي تحدث أنماط السلوك المقبولة.

كبت الرغبة الجنسية أو التعبير عنها، الخصوبة، الفحولة، درجة حدة النظر، الحساسية للصوت، سرعة ردة الفعل الآلية، نسبة النضوج، معدل الحياة ـ هذه بعض الخصائص الحيوانية التي يمكن تعديلها بواسطة أطعمة نباتية لها مواصفات غريبة. كما أن قدرة الإنسان على تكوين الرموز وبراعته اللغوية ونسبة تأثره بقيم الجماعة، قد تتغير أيضاً تحت تأثير مواد منشطة لها فاعليتها على الصعيدين النفسي والجسدي. إن تمضية ليلة في ناد للعزاب لمراقبة سلوك هؤلاء تكفي لإثبات هذه الملاحظة. في إطار النشاط الملحوظ الذي يبذل للحصول على شريك، تستطيع المقدرة اللغوية دائماً أن تحدث فرقاً، وهذا ما يؤكده الاهتمام البالغ والمستمر بطلاقة التعبير والجمل التي يفتتح بها الحديث.

عندما نتحدث عن العقاقير المخدرة نبدأ بالتفكير بمراحل التخدير لكن العديد من العقاقير تستخدم عادة بشكل جزئي أو تعطى بجرعات تحافظ على الاستمرارية؛ القهوة والتبغ نموذجان واضحان في حضارتنا. ينتج عن ذلك نوع من «الجو المخدّر». كالسمك في الماء، يسبح الناس الذين ينتمون إلى ثقافة معينة في وسط خفيّ من حالات عقلية تقرّها الحضارة لكنها حالات مختلفة.

قد تبدو اللغة غير منظورة للذين يتحدثونها، لكنها مع ذلك تبتدع نسيج الواقع لمن يستخدمونها، إن مشكلة الوقوع في خطأ تصور اللغة واقعاً في الحياة اليومية، مشكلة معروفة جداً. استخدام النبات مثال للغة معقدة من التفاعلات الكيميائية والاجتماعية معظمها لا يدرك مدى تأثير النباتات على أنفسنا وعلى واقعنا، وربما يكون ذلك جزئياً لأننا نسينا أن النباتات كانت دائماً الوسيط في علاقة البشر الحضارية مع العالم عموماً.

قصة حيوان رئيس مشوّشة

في حديقة غومبيه ستريم الوطنية في تنزانيا، لاحظ علماء الحيوانات الرئيسة أن جنساً معيناً من أوراق النبات كان يظهر باستمرار دون أن ينهضم في روث الشمبانزي. وتبين لهم أن القرود كانت بعد مضي بضعة أيام لا تتناول الفاكهة البرية كالمعتاد بل تقطع مسافة تستغرق عشرين دقيقة أو أكثر لتصل إلى موضع ينبت فيه نوع من نبات «أسبيليا». كان كل قرد ينتزع

ورقة ويضعها في فمه ويقلبها لبضع دقائق ثم يبتلعها كاملة. بهذه الطريقة كان يبتلع حوالي ثلاثين ورقة صغيرة.

عالم الكيمياء الحيوية إيلوي رودريغز، من جامعة كاليفورنيا، تمكن في إيرفين من عزل المادة الأساسية في نبات أسبيليا ـ وهي زيت ضارب إلى الحمرة يُسمى اليوم «ثيا روبراين ـ أ». نيل تورز من جامعة بريتيش كولومبيا، اكتشف أن هذا المركب يستطيع أن يقتل البكتيريا العادية في محلول مركّز بنسبة أقل من جزء في المليون. الدراسات التي قام بها رودريغز وتورز أظهرت أن الشعوب الأفريقية كانت تستخدم أوراق الأسبيليا لمعالجة الجروح وأوجاع المعدة. من أجناس الأسبيليا الأربعة التي تنمو في أفريقيا، استخدم السكان الأصليون ثلاثة أجناس فقط، وهي نفسها التي استخدمتها قردة الشامبانزي أيضاً.

استمر روديغز وتورز في مراقبتهما للسلوك النباتي للشامبانزي وتوصلا إلى تحديد أكثر من عشرة أنواع من النباتات الطبيعية فعلاً استخدمتها قردة الشامبانزي.

أنت ما تأكل

إن ما نطرحه حول وصول الإنسان إلى ضوء المعرفة الذاتية يستند إلى من يكون الشخص وماذا يأكل. ساعد التغير الهام في المناخ وتوفر غذاء ازداد تنوعاً مؤخراً على تأمين فرص عديدة للإنتقاء الطبيعي كي يحدث التحول في سمات البشر الأساسية. كان كل لقاء للإنسان مع نوع جديد من الطعام أو المخدر أو النكهة مليئاً بالمخاطر والنتائج التي لا يمكن التكهن بها. ولا يزال هذا صحيحاً اليوم لأن طعامنا يحتوي على مئات من المواد الإضافية والحافظة والتي لم تدرس بالنحو الكافي.

من النباتات التي قد يكون لها أثر على مجموعة بشرية نذكر على سبيل المثال نوعاً من البطاطا الحلوة يدعي ديوسكوريا. في معظم المناطق الإستوائية تعتبر البطاطا الحلوة مادة غذائية أساسية. لكن بعض أجناس هذه البطاطا يحتوي على مواد قد تحول دون الإباضة. (هذه الأجناس صارت مصدراً للمواد الأولية المستخدمة في تصنيع حبوب منع الحمل اليوم). إن مجتمعاً بدائياً يتناول هذه الأجناس من ديوسكوريا قد يتعرض لحالة أقرب ما تكون إلى التشوش الجيني. لا بدّ أن حالات كثيرة مشابهة حدثت، على الرغم من أنها كانت أقل إثارة للإهتمام، عندما كانت المخلوقات الشبيهة بالإنسان تجرب الأطعمة الجديدة وتكرّس عاداتها الغذائية في تناول اللحوم والنباتات حقاً.

عندما يتناول المرء نوعاً من النبات أو الحيوان كأنه بطريقة ما يطالب بالحصول على القوة الكامنة في النبات أو الحيوان، فيستوعب سحره في ذاته عند الشعوب التي لم تعرف القراءة

والكتابة كانت الخطوط بين المخدرات والأطعمة والتوابل نادراً ما ترسم بوضوح. عندما يلتهم الشامان الفلفل الحار ليرفع حرارته الداخلية لا يكون أقل تنبهاً ممن تنشق بعمق كمية من الأكسيد النتري. نحن اليوم نختلف حتى عن أقاربنا من الحيوانات الرئيسية في وعينا للنكهة وسعينا للتنويع في الإحساس بتناول الطعام. في نقطة ما على امتداد الزمن، توحدت عاداتنا المكتسبة حديثاً في تناول النباتات واللحوم معاً وكذلك عقلنا المتطور وقدرته على معالجة المعطيات الحسية، فابتكرا معاً تلك الفكرة الممتعة بأن الطعام قد يكون تجربة. ولد فنّ حسن الأكل ـ لينضم إلى علم معرفة خصائص العقاقير وتأثيرها، والذي سبقه بالتأكيد طالما أن حيوانات عديدة تحافظ على صحتها من خلال تنظيم غذائها.

كانت المخلوقات الشبيهة بالإنسان التي بدأت تأكل النبات والحيوان تلتهم كل ما يبدو لها أنه طعام وتتقيأ كل ما هو غير لذيذ المذاق. النباتات والحشرات والحيوانات الصغيرة التي تبين بفضل هذه الطريقة أنها تصلح للأكل، طبعت في نظامها الغذائي. إن نمط الغذاء المتغيّر أو الغذاء النباتي ـ الحيواني يعني التعرّض إلى توازن كيميائي قابل للتغيير باستمرار. قد يستطيع الجسم تعديل هذا الداخل الكيميائي عبر عمليات داخلية، لكن المؤثرات التغييرية سوف تزداد في النهاية وسيزداد أكثر من المعتاد عدد الأفراد القابلين للتحوّل الجيني والذي سيتم انتقاؤهم في سياق عملية الانتقاء الطبيعي. من نتائج هذه العملية الانتقائية حدوث تغييرات متسارعة في الجهاز العصبي وحالات الوعي والسلوك. ليس هناك تغيير دائم، كل تغيير يفسح المجال لتغيير آخر. الكل يتحرك.

التكافل

فيما كانت النباتات تؤثر على تطور البشر وسائر الحيوانات كانت هي، أيضاً تتأثر بدورها. هذا التطور المشترك يطرح فكرة التكافل. للتكافل معانٍ متعددة؛ إنني أستخدم هذه الكلمة للتعبير عن علاقة تنشأ بين جنسين ويتأتى منها فائدة متبادلة بين أفرادهما. إن النجاح الذي يحرزه كل جنس منهما على الصعيدين البيولوجي والتطوري يرتبط ويتعزّز بما أحرزه الآخر. هذا الوضع نقيض للطفيلية، ومع ذلك فإن الطفيلي المحظوظ هو الذي يستطيع أن يتحول إلى متكافل. قد تكون العلاقات التكافلية، التي يصبح بموجبها كل فرد بحاجة إلى الآخر، وثيقة جنياً أو قد يكون الرابط أكثر انفتاحاً. إن علاقات التفاعل المتبادل بين الإنسان والنبات التكافلية في نمط تبادل التقدم والفائدة، لم تكن مبرمجة جينياً. إنها تبدو كعادات قديمة عند مقارنتها بنماذج من علاقات التكافل الفعلي المأخوذة من عالم الطبيعة.

من النماذج على علاقة الترابط الجيني وبالتالي علاقة التكافل الفعلي سمكة شقيق البحر

الصغيرة Amphiprion Ocellaris التي تعيش طوال حياتها في جوار بعض أنواع حيوان شقيق البحر. هذا الحيوان يحمي الأسماك من الأسماك الأكبر حجماً، وتزداد كمية طعام حيوان شقيق البحر بفضل السمكة التي تجتذب الأسماك الأكبر منها إلى المحيط الذي يتناول فيه الحيوان طعامه. عندما يُنفذ مثل هذا الترتيب المتبادل والمؤاتي لفترة طويلة من الزمن، يتوصل في النهاية إلى «ترسيخ» ذاته من خلال التغطية التدريجية للإختلاف الجيني الواضح بين المتكافلين. قد يصبح في النهاية واحد من الكائنين جزءاً من الآخر، كما انضمت جسيمات الكندريوسوم، وهي محطات توليد الطاقة من الخلية الحيوانية، إلى جسيمات أخرى لتكوين الخلية. جسيمات الكندريوسوم ذات مكوّن جيني منفصل، قد يعود إلى خلايا بكتيرية كانت ذات مرة منذ مئات ملايين السنين كائنات مستقلة.

من خلال التكافل نختار مثالاً آخر قد يفيدنا في كشف جوانب عميقة في وضعنا، وهي العلاقة التي تطورت بين النمل القاطع للأوراق ونوع من الفطر يدعى basidiomycete. إ.و. ويلسون شرح هذه العلاقة قائلاً:

في نهاية الممر تتدافع الحشرات الحاملة للمؤونة إلى داخل العشّ فتجتاز حشوداً من النمل وتمر عبر قنوات متعرجة تنتهي قرب النطاق المائي على عمق خمس عشرة قدماً أو أكثر. تضع الحشرات أجزاء الأوراق في أرض حجرة، فتدفعها الحشرات عاملة حجمها أصغر بقليل من الأولى وتقطعها إلى أجزاء طولية لا تتجاوز الميلليمتر الواحد. في غضون دقائق تتابع العمل حشرات أصغر حجماً أيضاً فتسحق الأجزاء وتحوّلها إلى كريات رطبة وتضيفها بعناية إلى كتلة من المادة نفسها، يتراوح حجم هذه الكتلة بين قبضة اليد ورأس الإنسان، وهي مخرّمة بالقنوات وتشبه اسفنجة تنظيف رمادية اللون. إنها حديقة النمل: على سطحها الخارجي ينمو فطر تكافليّ يشكل بالإضافة إلى نسغ الروق الغذاء الوحيد للنمل. ينتشر الفطر كالصقيع الأبيض، ويمدّ أجزاءه الواصلة إلى عجينة الورق ليهضم التلولوز والبروتين المتوفرين في محلول جزئي.

دورة العناية بالحديقة تستمر. تتولى حشرات عاملة، أصغر حجماً من المجموعة الأخيرة، اقتلاع الفطر من أماكن نموه الكثيف وتعيد زراعته على الكتل الحديثة التكوين. وأخيراً تقوم حشرات عامله هي الأصغر حجماً على الإطلاق والأكثر عدداً بالتجول بين مساكب الفطر فتجسّ النباتات برفق بواسطة زبينياتها، وتلعقها لتنظفها وتنتزع بوغ وجذور أنواع أخرى من الفطر. هذه الحشرات القزمية تستطيع أن تتوغل عبر أضيق القنوات في الكتل التي تتكون منها الحديقة. وهي من حين لآخر تقتلع باقات من الفطر وتحملها إلى رفيقاتها الأكبر حجماً.

لا توجد حيوانات أخرى استطاعت تطوير قدرتها على تحويل النبات الحي إلى فطر. هذه الخطوة حصلت مرة واحدة فقط منذ ملايين السنين في مكان ما في أميركا الجنوبية؛ وحشرات النمل أفادت منها الكثير. فهي تستطيع أن ترسل حشرات عاملة متخصّصة لجمع النبات وتحافظ على معظم أفراد المجموعة بأمان في ملاجىء تحت سطح الأرض. نتيجة لذلك تسيطر كل أنواع قاطعي الأوراق على

جزء كبير من المناطق الإستوائية والأميركية، وهي تصل إلى أربعة عشر نوعاً في جنس Atta وثلاثة وعشرين من جنس Acromyrmex. تستهلك هذه الحشرات من النبات أكثر من أية مجموعة أخرى من الحيوانات بما في ذلك تلك المتواجدة بكثرة هناك من أنواع كاليرقانات والجنادب والطيور والثدييات[1].

سنغفر لـ .إ. أو. ويلسون، الباحث الأول في مجال علم الأحياء المجتمعي، لأنه اعتقد أن نوعاً من الحيوان شكل مع نبات فطري علاقة منفعية تبادلية مرة واحدة في تاريخ الأرض. إن وصفه لمجتمع النمل قاطع الأوراق وعلاقته بزراعة الفطر كان منطلقاً لتحديد النقاط الرئيسة في محاولتي إلقاء نظرة جديدة على العلاقة المعقدة التي تربطنا بالنباتات. لأنه كما سيتبين لنا، من نتائج أسلوب عيش الإنسان البدوي والرعوي أن تزايدت إمكانية حصوله على الفطريات المنشطة نفسياً واستخدامه لها. وكما تطورت فعالية العمل الزراعي عندالنحل، كذلك نجد أن أنماط السلوك في المجتمعات البدوية أفسحت المجال كي تقوم بعض الفطريات بتوسيع نطاقها.

رؤية جديدة للتطور البشري

اللقاءات الأولى بين الكائن الشبيه بالإنسان والفطريات التي تحتوي على بسيلوسبين. قد تكون سبقت مرحلة تدجين المواشي في أفريقيا بمليون سنة أو أكثر. وخلال فترة المليون سنة هذه لم تكن نباتات الفطر تجمع وتؤكل فقط بل اكتسبت أيضاً مكانة الدين. كما أن مرحلة تدجين المواشي البرية، وهي خطوة كبيرة في التطور البشري، والتي جعلت البشر أكثر قرباً من الماشية، أدت أيضاً إلى زيادة الصلة مع نبات الفطر لأن هذا الفطر كان ينمو فقط في روث المواشي. نتيجة لذلك توطدت وتعمقت صلة الاتكال المتبادل بين الإنسان والفطر. هذه المرحلة شهدت بداية الطقوس الدينية ووضع التقويم والأخذ بالسحر الطبيعي.

بعد فترة قصيرة من تعرّف البشر إلى الفطر الملهم في الأراضي الإفريقية المكسوة بالأعشاب، وكما حدث للنمل قاطع الأوراق، نحن أيضاً صدنا الجنس المسيطر على مناطقنا ونحن أيضاً تعلمنا طرقاً «تحافظ على غالبية أفراد المجموعة بأمان في ملاجيء تحت سطح الأرض». بالنسبة لنا كانت الملاجيء المدن المسوّرة.

عند التأمل في مسار تطور البشرية طرح بعض الدراسات تساؤلات حول السيناريو الذي قدمه لنا علماء الأنثروبولوجيا الطبيعية. يأخذ التطور وقتاً أطول ليظهر عند الحيوانات الأعلى

---

(١) إ. رود ريغز، م. أرغولين، س. أوهارا، ت. نبيرا، ر. رانغهام، ز. أبراموفسكي، أ. فينلايسون، ج.هـ ن. تاورز. في: «Thiarubrine-A, ABioactive Constituent of Aspilia (Asteraceae) Consumed by Wild Chimpanzees» (Experientia 41، ١٩٨٥)، ص ٤١٩ ـ ٤٢٠.

مرتبة، وعملية التطور تستمر على امتداد فترات لا تقل عن المليون سنة تصل أحياناً إلى عشرات الملايين من السنين. لكن تطور كائنات من الرئيسات إلى بشر ـ بعد حدوث تغييرات كبيرة في حجم أدمغتها وسلوكها ـ جرى في أقل من ثلاثة ملايين سنة، من الناحية الفيزيولوجية يبدو أننا لم نتغير على نحو يُذكر في المئة ألف سنة الأخيرة. لكن التكاثر المذهل في الحضارات والمؤسسات الاجتماعية والنظم اللغوية كان متسارعاً لدرجة أن علماء التطور البيولوجي الحديثين بالكاد استطاعوا الإحاطة به. وحتى أن معظم هؤلاء لا يحاولون أن يفسروه.

هناك في الواقع غياب للنموذج النظري وهذا ليس مستغرباً؛ نحن لا نعرف الكثير عن الحال المعقدة التي سادت بين الكائنات الشبيهة بالإنسان وذلك قبل وخلال الفترة التي بدأت فيها الكائنات البشرية الحديثة تظهر على المسرح. تشير الأدلة البيولوجية وتلك التي توصل إليها العلماء بدراسة المستحاثات أن الإنسان يتحدر من أسلاف من الرئيسات لا تختلف جذرياً عن أجناس من الرئيسات لا تزال موجودة اليوم، ومع ذلك فإن الإنسان (Homo Sapien) ينتمي بوضوح إلى جنس يختلف عن سائر أفراد الجماعة.

إن البحث في تطور البشر يعني بالدرجة الأولى البحث في تطور الوعي البشري. ما هي إذاً أصول العقل البشري؟ بعض الباحثين أكدوا في دراساتهم على أولوية الجانب الحضاري؛ وأشاروا إلى قدراتنا الفريدة اللغوية والرمزية، واستخدامنا للأدوات، وقدرتنا على تخزين المعلومات بتسلسل تعاقبي كالأغاني والمعرفة الفنية والكتب وأجهزة الكومبيوتر، وأنه لم ينتج عن ذلك خلق الحضارة فقط بل التاريخ أيضاً. باحثون آخرون تناولوا أكثر الجانب البيولوجي وأكدوا على خصوصيتنا الفيزيولوجية والعصبية بما في ذلك الحجم الكبير والمميز لدماغ الإنسان الحديث وما يتصف به من تعقيد، وأن الجزء الأكبر منه يتولى الخوض في عمليات لغوية معقدة وتخزين المعلومات وإمكانية استرجاعها، وهو في الوقت نفسه مرتبط بالأجهزة الآلية التي تتحكم بالنشاطات كالنطق والكتابة. مؤخراً بدأ الباحثون يعترفون بالتفاعل بين الجانب الحضاري والتطور البيولوجي ورأوا أنه متضمن في مظاهر غرابة التطور عند الإنسان، كالامتداد في مرحلتي الطفولة والمراهقة، والتأخر في بداية النضج الجنسي، واستمرارية وجود العديد من الخصائص الأساسية لفترة الولادة خلال سنوات النضوج. لكن توحيد وجهتي النظر لم يؤد للأسف إلى الاعتراف بالطاقة الموجودة في المكونات الغذائية، ذات الفاعلية على الصعيدين النفسي والفيزيولوجي، وما تتركه من أثر في تركيبة البنية الوراثية.

في غضون ثلاثة ملايين سنة، ومن خلال تضافر كل العمليات التي سبق شرحها، ظهرت في شرق أفريقيا ثلاثة أجناس على الأقل من الكائنات السابقة لأشباه الإنسان. وهذه عرفت

بـ «هومو أفريقانوس» Homo Africanus «هومو بوساي» Homo Boisei و«هومو روبوستوس» Homo Robustus. وفي ذلك الوقت أيضاً تواجد بوضوح جنس «هومو هابيليس» Homo Habilis القارت، وهو أول شبه فعلي بالإنسان، وكان متحدراً من مجموعة نتج عنها أيضاً نوعان نباتيان من الإنسان ـ القرد.

كانت الأرض المعشوشبة بطيئة في ظهورها؛ وكان أسلاف الإنسان الأوائل ينتقلون عبر مساحات من الغابات والأرض المعشوشبة تشبه الفسيفساء في تركيبها. هؤلاء الأسلاف الذين كان حجم أدمغتهم أكبر بنسبة ضئيلة من حجم دماغ الشامبانزي، كانوا قد بدأوا يمشون منتصبين ويحملون على الأرجح الطعام والأدوات عند دخولهم إلى الغابات التي ظلوا يقصدونها بحثاً عن الجذور والحشرات. كانت أذرعتهم أطول نسبياً من أذرعتنا، وقبضتهم أكثر قوة: هذا التطور الذي أدّى إلى الوقوف بشكل منتصب والتآلف مع بيئة الأرض المعشوشبة حدث في فترة أكثر قدماً، تعود إلى ما بين خمسة ملايين وتسعة ملايين سنة. ونحن لسوء الحظ لا نمتلك الأدلة من المستحاثات على ملامح هذه الخطوة الانتقالية القديمة.

أضاف الأسلاف الأوائل أصنافاً جديدة على غذائهم الأساسي الذي اقتصر على الفاكهة وصيد الحيوانات الصغيرة، وذلك بجمع الجذور ودرن الجذور والجذور البصلية. عود بسيط يكفي لحفر الأرض والحصول على هذا المصدر للغذاء والذي لم يكن معروفاً من قبل. قرد الرّباح الذي يعيش في المناطق الإستوائية المعشوشبة يقتصر غذاؤه في أوقات معينة على الجذور البصلية بنحو خاص. الشامبانزي يضيف إلى غذائه كميات من الحبوب حين يتجرأ على الخوض في تلك الأراضي. يشترك قرد الرّباح والشامبانزي في الصيد والانقضاض على الحيوانات الصغيرة. إنهما لا يستخدمان أية أدوات في قنصهما، وليس هناك أيضاً دليل على أن الإنسان الأول استخدم الأدوات في صيده. عند الشامبانزي والرّباح والإنسان الأول يبدو أن الصيد كان مقتصراً على الذكور. الإنسان الأول كان يصطاد بمفرده أو بالاشتراك مع آخرين.

مع إنسان هومو هابيليس Homo Habilis حدث تطور مفاجىء وغريب لحجم الدماغ. كان معدل وزن دماغ هذا الإنسان يصل إلى ٧٧٠ غراماً (٢٧,٥ أونصة) بينما وصل معدل وزن دماغ شبيه الإنسان إلى ٥٣٠ غراماً (١٩ أونصة). في غضون المليوني ومئتي وخمسين ألف سنة التالية تطور حجم الدماغ وتعقد بتسارع استثنائي. منذ فترة تعود إلى ما بين مليون ومئة ألف سنة وسبعمئة وخمسين ألف سنة ظهر جنس جديد من شبيه الإنسان هو إنسان هومو إركتوس Homo Erectus. كان وزن دماغ هذا الإنسان يتراوح بين ٩٠٠ غرام و١١٠٠ غرام (ما بين ٢ و٢,٤ أونصة). هناك أدلة كافية على أن إنسان «هومو إركتوس» Homo Erectus استخدم الأدوات وامتلك قدراً من الحضارة البدائية. في مغارة شوكوتيان في جنوب أفريقيا أدلّة

على استخدام الإنسان القديم للنار والعثور على عظام محترقة أثبت أنه كان يطهو اللحوم. هذه الأدلّة تنسب إلى إنسان «هومو إركتوس» Homo Erectus الذي كان أول إنسان يغادر أفريقيا منذ حوالي مليون سنة.

النظريات القديمة كانت تقترح أن يكون الإنسان الحديث قد تطور من إنسان هومو إركتوس Homo Erectus في مناطق مختلفة. لكن من ناحية ثانية يتزايد اليوم عدد الباحثين في تطور الرئيسيات الذين يتفقون على أن إنسان «هومو سابيان» Homo Sapiens الحديث تواجد أيضاً في أفريقيا منذ حوالي مئة ألف سنة وقام بهجرة ثانية كبيرة من هناك لينتشر في كافة أرجاء الكوكب. في مغارتي بوردر ونبع نهر كلاسيس في جنوب أفريقيا هناك أدلة على أن الأوائل من إنسان «هومو سابيان» Homo Sapien عاشوا في بيئة هي مزيج من الغابة والأرض المعشوشبة. تشارلز. ج. لومسون وأدوارد أو. ويلسون حاولا كعدد كبير من الباحثين تفسير هذه المرحلة الانتقالية فقالا:

> علماء السلوك البيئي توصلوا بشكل تدريجي لتكوين نظرية تفسر التطور الذي أدّى إلى الوقوف المنتصب الذي يُعدّ من إحدى السمات البيولوجية المميزة للإنسان الحديث. غادر أسلاف الإنسان القرد الأوائل الغابات الاستوائية الدائمة الخضرة إلى أماكن أكثر إنفتاحاً وموسمية حيث اعتمدوا كلياً على وجود أرضيّ. شيدوا أماكن إقامة ولجأوا إلى توزيع العمل، بحيث أن البعض، صاروا أقل تجوالاً وكرسوا المزيد من الوقت للعناية بالصغار، وهؤلاء النساء على الأرجح؛ والآخرون، وهم بشكل أولي أو إجمالي الذكور، كانوا يجوبون الأرض البعيدة بحثاً عن الطرائد. كان المشي على القدمين ميزة كبيرة في التحرك عبر المساحات المفتوحة. كما أنه حرّر الذراعين وسمح لأسلاف الإنسان القرد باستخدام الأدوات وحمل الطرائد وأنوع أخرى من الغذاء إلى موقع السكن. التشارك في الطعام واعتماد التبادلية في أشكال مختلفة صارا من أهم الأسس التي ارتكزت إليها الحياة الاجتماعية عند الإنسان القرد. كما ساهمت أيضاً العلاقات الطويلة المدى والتي ازدادت عمقاً وقوة بإعطاء المزيد من الاهتمام لتربية الصغار. معظم الأشكال المميزة لسلوك الإنسان الاجتماعي هي حصيلة هذا التشابك المعقد لعملية التأقلم(٢).

أخذت أجناس الأسلاف الأوائل تتوالى في الظهور في مختبر التطور الأفريقي، وبدءاً من إنسان «هومو إركتوس» Homo Erectus انطلق ممثلون عن كل جنس عبر الأراضي الأرواسية ما بين الأدوار الجليدية. خلال الدور الجليدي كانت الهجرة تتوقف؛ وذلك أفسح المجال «لصهر» أجناس جديدة في الجو الأفريقي المؤاتي المشبع بقوى التحويل المركزة في الأغذية والذي ساهم مناخياً في دفع عملية الانتقاء الطبيعي.

---

(٢) إدوارد أ. ويلسون: «Biophilia» كامبريدج، ماساتشوسيتس، Haward University Press، ١٩٨٤، ص ٣٣.

عند نهاية ثلاثة ملايين سنة من التطور المذهل للأجناس البشرية كان حجم دماغ الإنسان تضاعف ثلاث مرات! لامسون وويلسون قالا في هذا الصدد: «ربما تكون تلك أسرع عملية تطور عرفها عضو مركّب في تاريخ الحياة كلها»[٣]. هذا المعدل المذهل لتسارع تطوّر العضو الرئيسي في أحد الأجناس يعني وجود ضغوطات انتقائية استثنائية.

لأن العلماء كانوا غير قادرين على تفسير هذا التزايد في حجم دماغ الإنسان خلال مرحلة زمنية قصيرة، عمد بعض البليونتولوجيين الأوائل والباحثين في نظريات التطور إلى دراسة الهياكل العظمية الانتقالية للحصول على أدلة؛ لكن فكرة «الحلقة المفقودة» لم تعد تحظى بتأييد كبير اليوم. إن المشي على قدمين، والرؤية بواسطة عينين، ووجود الإبهام مقابل الأصابع الأخرى، واليد التي تسدّد الضربات ـ كل هذه المقومات شكلت العنصر الأساسي في الخليط الذي تبلور فيه الإنسان المفكر وتميز عن سائر الأجناس المنافسة. إن ما نعرفه بالفعل أن هذه القفزة في حجم الدماغ كانت مترافقة مع تحولات مذهلة في التنظيم الاجتماعي عند أسلاف الإنسان الأوائل الذين عرفوا الأدوات والنار واللغة. كانوا حيوانات رئيسة في مستهل عملية التطور، ثم برزوا منذ حوالي مئة ألف سنة كأفراد يتحلون بالوعي والإدراك الذاتي.

«الحلقة المفقودة» الفعلية

إنني أعتقد أن المركبات الكيميائية المسببة للتغير والمؤثرة نفسياً والتي تضمنها غذاء الإنسان الأول كان لها تأثيرها المباشر في تسريع إعادة تنظيم قدرات الدماغ في معالجة المعلومات. المواد شبه القلوية في النباتات، خصوصاً المركبات المهلوسة مثل بسيلوسبين و(Dimethyltryptamine) DMT وهارمالين، ربما كانت العوامل الكيميائية في غذاء أسلاف الإنسان التي حفّزت ظهور الإنسان المفكر. إن المواد المهلوسة الموجودة في العديد من النباتات ساعدت على تفعيل قدرة معالجة المعلومات، أو الحساسية البيئية، وهي بالتالي ساهمت في إحداث التوسع المفاجىء في حجم دماغ الإنسان. في مرحلة لاحقة في عملية التطور نفسها، لعبت المواد المهلوسة دور الحفاز في تطوير المخيلة، ودعمت اختلاق حيل داخلة وآمال قد تكون تعاونت معاً في عملية ظهور اللغة والدين.

أجرى رولاند فيشر في أواخر الستينات بحثاً على مجموعة من الطلاب بعد إعطائهم كمية قليلة من بسيلوسبين، وقاس قدرتهم على تحديد اللحظة التي ينحرف فيها خطان متوازيان. تبين

(٣) تشارلز ج. لامسدين، وأدوارد أ. ويلسون: Promethean Fires: Reflections on the Origin of Mind. كامبريدج، ماستشوسيتس، Harvard University Press، ١٩٨٣، ١٢.

لفيشر أن المقدرة في هذا الإطار بالذات تتحسن بالفعل بعد جرعات صغيرة من البسيلوسبين(٤).

عندما ناقشت مع فيشر هذه النتائج ابتسم بعد شرح استنتاجاته وقال باختصار «الذي استطعنا إثباته هنا يعني أنه في ظل ظروف معينة يستطيع المرء بالفعل أن يكوّن معرفة أفضل للعالم الحقيقي إذا كان قد تناول مخدراً من الذي لم يتناول المخدر». ملاحظته الطريفة استوقفتني في مغزاها الأكاديمي، وكذلك لأنها تشكل جهداً للتعبير عن معنى عميق. كيف ستكون الانعكاسات عن نظرية التطور إذا اعترفت هذه النظرية أن بعض العادات الكيميائية تساهم في المقدرة على التأقلم وتنغرس بالتالي بعمق في سلوك بعض الأفراد وحتى في تركيبهم الوراثي؟

ثلاث خطوات كبيرة اجتازها الجنس البشري

في محاولة الردّ على هذا السؤال توصلت إلى إعداد سيناريو يجده البعض خيالياً؛ هذه الرؤية تشكّلت لديّ بعد سنوات من التأمل والتفكير، وهي تنظر إلى العالم من منطلق أن آلاف السنين تصبح مجرّد فصول في تاريخ البشرية. دعونا نتخيل أننا نقف على مسافة من التاريخ البيولوجي، وأننا نستطيع رؤية الإنعكاسات المتشابكة للتغييرات في الغذاء والمناخ، والتي كانت بالتأكيد بطيئة للغاية بحيث أن أسلافنا لم يشعروا بها. يكشف السيناريو عن التفاعلات المترابطة والمتبادلة التي يتركها البسيلوسبين في المراحل الثلاث. أعتقد أن البسيلوسبين، المتميز في خصائصه، هو المادة الوحيدة التي نستطيع من خلالها طرح هذه الرؤية.

في المستوى الأول، المنخفض، في الاستخدام هناك التأثير الذي أشار إليه فيشر: كميات قليلة من بسيلوسبين، يتم استهلاكها بدون معرفة قدرتها على التنشيط النفسي وذلك في سياق تناول الطعام، وقد يكون استهلاكها صار واعياً فيما بعد، تساهم في زيادة ملحوظة في الدقة البصرية، خصوصاً في تبيان الحدّ. لا شك أن الدقة البصرية لها أهميتها عند الصيادين ـ الجامعين، وأن اكتشاف المنشط الكيميائي للبصر ساهم في نجاح الأفراد الذين عرفوا كيف يفيدون من هذه الميزة. كانت المجموعات التي تضم أفراداً تحسنت قدراتهم البصرية قادرة على توفير طعام أكثر لصغارها. وبسبب الزيادة في الطعام، أتيحت للصغار في هذه المجموعات فرصة أفضل للنمو والوصول إلى سنّ الإنتاج بدورهم. في هذا الإطار يصبح التدني في معدل النمو في المجموعات التي لا تستهلك البسيلوسبين نتيجة طبيعية.

---

(٤) المصدر نفسه.

لأن البسيلوسبين منبه للجهاز العصبي المركزي فإن تعاطيه بنسب أعلى يدفع إلى الإحساس بالقلق والإثارة الجنسية. وهكذا، في هذا المستوى الثاني من الاستهلاك، تزايد الجماع وساهمت الفطريات مباشرة في عملية التكاثر. ربما تكون محاولة ضبط وتحديد موعد النشاط الجنسي داخل المجموعة، بالنسبة للدورة القمرية التي تؤثر على إمكانية الحصول على الفطريات، هي بمثابة الخطوة الأولى لنمو الطقوسية والدين. في المستوى الثالث والأكثر ارتفاعاً في الاستهلاك احتلت الاهتمامات الدينية المقام الأول في الوعي الجماعي، ويعود ذلك ببساطة إلى فاعلية غرابة التجربة بحد ذاتها.

هذا المستوى الثالث إذاً هو مستوى النشوة الشامانية المكتملة. خدر البسيلوسبين نشوة يعجز الكلام عن وصف اتساعها وعمقها. إنها تجربة مختلفة نوعياً وليست بالنسبة لنا أقل غموضاً مما كانت عليه بالنسبة لأجدادنا الذين كانوا يمضغون الفطريات. إن قدرات النشوة الشامانية على إزالة الحدود هيأت المجموعات التي استهلكت الفطريات المحفّزة لمزيد من التضامن الجماعي والنشاط الجنسي، مما ساهم في تعزيز الاختلاط الجيني ورفع معدل الولادات وخلق إحساس جماعي بالمسؤولية نحو الصغار داخل المجموعة.

والفطر مهما كانت كميته تمتع بقدرة سحرية في إعطائه أفضلية التأقلم لمن تناوله من البدائيين وجماعتهم. دقة الرؤية والتنشيط الجنسي والوصول إلى الآخر المتعالي، كل ذلك أدى إلى النجاح في الحصول على الطعام وفي تعزيز الطاقة الجنسية وزيادة عدد الولادات، والوصول إلى عوالم القدرة الماورائية. كل هذه الميزات يمكن ضبطها بسهولة من خلال التحكم بكمية الفطر التي يتناولها الفرد والفترة الزمنية لذلك. في الفصل الرابع سوف أشرح بالتفصيل ميزة البسيلوسبين الرائعة في تحفيز قدرة إبتكار اللغة في الدماغ. إن قدرة البسيلوسبين مذهلة في هذا المجال حتى أنه يعتبر الحافز على تطوير اللغة البشرية.

الابتعاد عن لامارك

لا شك أن هذه الأفكار ستجد من يعارضَها. هذا التصور لتطور البشر قد يبدو ضربة موجهة للاّماركية التي تقول بأن الخصائص التي اكتسبها الجسم خلال حياته قد تنتقل إلى ذريته. والمثال الكلاسيكي على ذلك أن الزرافات لها أعناق طويلة لأنها تمّدها للوصول إلى الأغصان العالية. هذه الفكرة المباشرة والصائبة إلى حدّ ما يرفضها أتباع النيو داروينية الذي يدافعون بإصرار عن نظرية التطور. يقول هؤلاء إن التغييرات تحدث كلياً بشكل عشوائي وأنه بعد أن تعبّر التغييرات عن نفسها كملامح جسمانية يعمد الانتقاء الطبيعي بنزاهة إلى القيام بدوره في المحافظة على الأفراد الذين مُنحوا أفضلية التأقلم.

اعتراضهم قد يأتي على النحو التالي: ربما تكون الفطريات حسّنت قدراتنا في مجالات الرؤية وممارسة الجنس وابتكار اللغة، لكن كيف دخلت هذه التحسينات إلى التركيبة الوراثية عند البشر وصارت متأصلة فيها؟ إن التحسينات اللاّجينية التي تطرأ على أداء الجسم بواسطة عوامل خارجية تؤدي إلى تأخير المخزون الجيني الموازي لهذه الخصائص ويجعله غير ضروري. أي بكلام آخر، إذا توفرت مادة مؤيّضة في الطعام، لن يكون هناك ضغط لرسم أثر التعبير الباطني للمادة المؤيضة. وهكذا فإن تناول الفطر سيؤدي إلى ولادة أفراد بمعدلات منخفضة من دقة الرؤية والتعبير اللغوية والوعي. لن تقوم الطبيعة بتقديم هذه التحسينات عبر التطور العضوي لأن التوظيف الأيضي الضروري للمحافظة عليها ليس مربحاً، وذلك نسبة إلى التوظيف الأيضي الضئيل المطلوب لتناول الفطر. ولكننا اليوم نتمتع جميعاً بهذه المحسنات بدون تناول الفطر. فكيف دخلت تعديلات الفطر إذاً في التركيبة الوراثية؟

باختصار إن وجود البسيلوسبين في غذاء الكائن الشبيه بالإنسان غيّر حدود عملية الانتقاء الطبيعي بتغييره لأنماط السلوك التي كان فعل الانتقاء يتم من خلالها. إن تجريب أنواع عديدة من الأطعمة أدّى إلى زيادة عامة في معدل التغيرات العشوائية المطروحة أمام عملية الانتقاء الطبيعي، كما أن زيادة دقة الرؤية واستخدام اللغة والنشاط الطقوسي من خلال تناول البسيلوسبين أعطى أنماطاً سلوكية جديدة. من هذه الأنماط الجديدة استخدام اللغة التي كانت في السابق مجرّد سمة هامشية، والتي صارت فجأة مفيدة جداً في سياق الوسائل الجديدة التي اعتمدت في الصيد وجمع الغذاء. وهكذا فإن تناول البسيلوسبين في الطعام وسّع آفاق السلوك البشري وحثّ على زيادة استخدام اللغة؛ تعلّم اللغة أدى إلى زيادة المفرادت وتوسيع نطاق الذاكرة. إن الأفراد الذين استخدموا البسيلوسبين استطاعوا تطوير قوانين للتخلّف المتعاقب أو أنماط حضارية ساعدتهم على البقاء والتكاثر بنحو أفضل من الآخرين. ومع مرور الزمن انتشر الأكثر نجاحاً من الأنماط السلوكية المحدثة والمتعاقبة بين أفراد المجموعة بالتوافق مع الجينات التي تعزّزها. بهذه الطريقة تتطور المجموعة جينياً وحضارياً.

قد تكون الحاجة المنتشرة بين الناس اليوم للعدسات المصححة للبصر هي إرث من الفترة الطويلة للتحسين «الاصطناعي» للبصر من خلال استخدام البسيلوسبين كما أن ضُمور القدرات الشميّة عند البشر يُعتقد أنه ناتج عن حاجة الأجداد القوارت الجائعين لتحمل الروائح والنكهات القاسية، حتى رائحة وطعم الجيف على الأرجح. عمليات التخلص من هذا النوع معروفة في سياق التطور. إن إخماد حدّة التذوق والشم يسمح بتناول المزيد من الأطعمة وضمّها إلى الغذاء بدلاً من رفضها باعتبارها «قوية جدا». أو أن هذا يشير إلى ما هو أكثر عمقاً في العلاقة بين تطورنا والغذاء. كتب أخي دنيس في هذا الموضوع يقول:

إن الضمور الظاهر في النظام الشمسي عند الإنسان قد يشير في الواقع إلى تغير فعلي في مجموعة من المتقبّلات الكيميائية البدائية والموجهة إلى الخارج وجعلها تتصف بفاعلية داخلية ضابطة. قد يكون لجهاز التحكم الذي يخضع لسيطرة الغدة الصنوبرية دور في ذلك، وهو الذي يحدث على مستوى دون الوعي لمجموعة من التفاعلات النفسية ـ الجنسية والنفسية ـ الإجتماعية بين الأفراد. تميل الغدة الصنوبرية لإعاقة التطور التناسلي وبداية البلوغ، إلى جانب تأثيرات أخرى وقد يكون لذلك دور في استمرارية سمات المواليدية في الجنس البشري. إن تأخير النضوج وإطالة الطفولة والمراهقة قد يلعبان دوراً حاسماً في التطور العصبي والنفسي للفرد، لأنها تشكل الظروف التي تسمح بتطور العقل في سنوات الطفولة الأولى. إنّ المنبهات الرمزية والمعرفية واللغوية التي يعرفها العقل خلال هذه المرحلة هي أساسية في تطوره وهي العوامل التي تجعلنا المخلوقات الفريدة والواعية والقادرة على استخدام الرموز والتعبير بواسطة اللغة. إن القلويات والأمينات المنشطة للجهاز العصبي والتي توفرت في غذاء الإنسان الأول قد تكون لعبت دوراً في التفعيل البيوكيمائي للغدة الصنوبرية وفي أشكال التأقلم الناجم عن ذلك[٥].

نكهات مكتسبة

قد ينجذب الناس أو ينفرون من مواد مذاقها يتعدى حدود التقبّل لها. إن الأطعمة التي أضيفت إليها التوابل بكثرة أو كانت مرة أو قوية الرائحة تجعلنا نتفاعل معها بحدة. هذا ينطبق على أطعمة كالجبن الطري أو البيض المخلّل، وينطبق أيضاً بنحو أوضح على المخدرات. عندما يتذكر المرء سيكارته الأولى أو أول جرعة تناولها من البوربون يتذكر كيف رفض جسمه بعنف تقبل المذاق المميّز. يبدو أن تكرار المحاولة يؤدي إلى اكتساب النكهة، وهذا يعني أن العملية معقّدة وتشتمل على التأقلم السلوكي والبيوكيميائي في الوقت نفسه.

هذا الأمر يجعلنا مباشرة نفكر في عملية الإدمان على المخدرات. هناك مادة غريبة عن الجسم يتم إدخالها فيه على نحو متكرر وبقرار واع. الجسم يتكيف مع النظام الكيميائي ـ الجديد ـ ومن ثمّ يتجاوز التكيف: إنه يتقبل النظام الكيميائي الجديد باعتباره صحيحاً ومناسباً ويعطي إشارات منبّهة في حال تهدّد ذلك النظام. هذه الإشارات قد تكون سيكولوجية وفيزيولوجية ويشعر بها الفرد عندما تتعرض البيئة الكيميائية الجديدة داخل الجسم لأي تهديد، بما في ذلك اتخاذ قرار واع بوقف استخدام المادة الكيميائية المعنية.

(٥) رولاند فيشر وآخرون في: «Psilocybin-Induced Contraction of Nearby Visual Space». (Agents and Actions، عدد ٤، ١٩٧٠) من ص ١٩٠ ـ ١٩٧.

من بين العدد الهائل من المواد الكيميائية التي تشكل مخزون الطبيعة من الجزيئيات، كنا نبحث في عدد قليل نسبياً من المركبات التي تتفاعل مع الحواس والمعالجة العصبية للمعطيات الحسية. هذه المركبات تضم كافة الأمينات والقلويات والفيرمونات والمواد المهلوسة المنشّطة نفسياً ـ أي كل المركبات التي تستطيع التفاعل مع أية حاسة من الذوق إلى الشم والرؤية والسمع، ومع الحواس مجموعة أيضاً. إن اكتساب تذوق هذه المركبات، اكتساب عادة معزّزة سلوكياً وفيزيولوجياً، هو الذي يفسّر التزامن في الإدمان الكيميائي الأساسي.

هذه المركبات لها القدرة الرائعة على تذكيرنا بضعفنا وإمكانية استيعابنا لفترة السموّ في آن معاً. إن المخدرات تشبه الواقع في كونها مهيّأة لإرباك الذين يسعون للوصول إلى حدود واضحة أو إلى قسمة العالم بسهولة إلى أبيض وأسود. إن كيفية تعريفنا لعلاقاتنا المستقبلية بهذه المركبات وأبعاد المخاطرة والفرص التي تتيحها قد تكون بمثابة الكلمة الأخيرة التي تحدّد إمكانية بقائنا وتطورنا كجنس عاقل.

(٦) دنيس ماكينا في: «Hallucinogens and Evolution»، بحث قدّم في حلقة دراسية سنة ١٩٨٤، إيسلين، ص ٢.

٣ ـ البحث عن شجرة المعرفة الأصلية

ترك ألسنة النار المضطربة التي تحلّق حولها أبناء قومه، وابتعد قليلاً ليبول. سمع صدى صوته عميقاً في حنجرته. «ني ني ني نيه». «هي التي تطعمنا» كان حضورها قوياً بشكل غير اعتيادي في ليلة الحصاد المقمرة تلك. كان مسحوراً بالمشهد التي تحولت معالمه بفعل التخدر وأشعة القمر، وابتعد أكثر فأكثر عن أصوات الآخرين.

«هيكولي» قريب، إنه يحسُّ بوجوده. وقف شعر رأسه من الخوف. سمع صوتاً كأنه صوت حبوب تهتز داخل يقطينة. ثم رأى هيكولي»؛ بدا كزهرة متقرّحة اللون، له فم، أوله عضلة عاصدة متدلية في الفضاء. وكان خلفه آخرون، يدورون ببطء في الظلام؛ اقتربوا منه كمجموعة من قنديل البحر. عندما اقترب أحدهم منه تفجّرت برفق مادة سائلة اخترقت جسمه. في تلك اللحظة أشرق ضوء وردي داخل رأسه وأحسّ أنه تشرّب حضور «الشيء». توالت الصور الواحدة تلو الأخرى بسرعة منعته من تبيّن ملامحها. مضى الوقت. بدا له فيه أن العقيق الجامد يتدفق عبر أقنية هائلة. تملّكته رغبة بدفع نفسه بغبطة لملاقاة الموت، فيما يشبه نوبة هياج قوية يحقق فيها ذاته. ارتسمت عزيمته على شفتيه والدموع انهمرت على خديه، بدأ ينطق بكلمات قالها من قبل، لكنه في هذه المرة فهمها كما لم يفهمها من قبل. Ta! Ta Vados! Vados أنا موجود! أنا موجود!

المواد المهلوسة: الحلقة المفقودة

بحثنا في هذا الكتاب يتناول مجموعة من المركبات الكيميائية الفاعلة، مواد الإندول المهلوسة، لأنها لعبت دوراً حاسماً في ظهور أبرز سماتنا البشرية الأساسية، وهي ميزة الوعي الذاتي. من المهم إذن أن نعرف ما هي هذه المركبات وما هو الدور الذي تلعبه في الطبيعة. تتصف هذه المواد بتركيبتها الخماسية التي لها صلة بحلقة البنزول المعروفة (شكل ٢٨). هذه

الحلقات التي تمثل الجزيئيات تجعل الإندولات ذات فاعلية كيميائية عالية وتجعلها بالتالي جزيئيات مناسبة تماماً للنشاط الأيضي داخل معالم الحياة العضوية المرتفع الطاقة.

قد تكون المواد المهلوسة فاعلة على الصعيدين السيكولوجي أو الفيزيولوجي أو على الاثنين في آن، وقد تستهدف العديد من الأجهزة داخل الجسم. بعض الإندولات باطنية النمو في جسم الإنسان، كالسيروتينين. وبعضها الآخر موجود خارج الجسم في الطبيعة وفي النباتات التي قد نأكلها. البعض يعمل كالهورمونات فيضبط عملية النمو أو معدّل النضوج الجنسي. والبعض الآخر يؤثر في المزاج وحالة التيقظ.

هناك أربع مجموعات من المركبات الأندولية المثيرة للهلوسة والتهيؤات والتي تتواجد أيضاً في النباتات:

١ ـ مركبات إل إس دي. (LSD) موجودة في ثلاثة أنواع من نبات مجد الصباح والأرغوت، وهي نادرة في الطبيعة. معرفة الناس لهذه المادة تعود لملايين الجرعات التي تمّ تصنيعها وبيعها خلال الستينات. إنها مادة مخدرة، ولكن جرعات كبيرة منها ضرورية لإحداث حالة النشوة القصوى التي تحدثها جرعات عادية في دي إم تي (DMT) وبسيلوسبين. العديد من الباحثين أكدوا على أهمية التأثيرات غير المهلوسة لهذه المادة وغيرها من المخدرات. هذه التأثيرات الأخرى تتضمن الإحساس بتوسع العقل وتسارع وتيرة التفكير؛ وكذلك القدرة على الفهم وعلى التعامل مع أنماط سلوكية وأساليب عيش معقدة، والدخول في علاقات متشابكة واتخاذ القرارات.

لا تزال هذه المادة تُصنّع وتُباع أكثر من أية مادة مهلوسة أخرى. لقد تبين نفعها في العلاج النفسي وعلاج الإدمان الكحولي المزمن. «حيثما يستخدم من مختلف أنحاء العالم كانت تثبت أنها علاج نافع لمرض قديم جداً. لم نعرف بعد أي دواء آخر يوازيها في تخليص الناس من فخ الإدمان على الكحول، إما باللجوء إليها مباشرة كعلاج، أو بشكل غير مباشر كوسيلة للحصول على معلومات هامة»[١].

لكن بسبب الهستيريا الإعلامية السائدة قد لا نعرف أبداً مدى إمكانية فاعليتها.

٢ ـ مواد التربتامين المهلوسة خصوصاً دي إم تي وبسيلوسين وبسيلوسبين. هذه المواد موجودة في مجموعة كبيرة من النباتات العليا كالبقول مثلا، كما أن البسيلوسين والبسيلوسبين موجودان أيضاً في الفطريات، دي إم تي موجود أيضاً في دماغ الإنسان. لهذا السبب

(١) أ. هوفر وه. أوزموند: «New Hope for Alcoholics». نيويورك، University Books، ١٩٦٨.

يجب ألاّ يعتبر أنه مخدر، لكن حالة السكر التي يحدثها تكون عميقة ومثيرة للتهيؤات وتتميز بقصرها وتركيزها ولا سمّيتها.

٣ ـ مواد بيتا ـ كاربولين: مثل هارمين وهارملين. قد تكون هذه المواد مهلوسة وقريبة من درجة السّميّة. وهي ذات أهمية في تهيؤات الشامانية لأنها تستطيع منع أجهزة الأنزيمات داخل الجسم من التدخل لإضعاف المواد المهلوسة من فئة دي إم تي. وهكذا فإن البيتا ـ كاربولين يستخدم مع دي إم تي لإطالة وتكثيف فترة التهيؤات. هذه التركيبة هي التركيبة الأساسية لإعداد الشراب المخمّر أياهواسكا أو ياغي المعروف في أميركا الجنوبية في منطقة الأمازون. مواد بيتا ـ كاربولين شرعية وحتى فترة قريبة جداً لم تكن معروفة للناس عموماً.

٤ ـ مجموعة مواد الإيبوجاين. هذه المواد موجودة في نوعين من الأشجار في أفريقيا وأميركا الجنوبية: تابرنانت وتابرنامونتانا. تابرنانت إيبوغا شجيرة صغيرة أزهارها صفراء لها صلة بشجرة البنّ، وتستخدم كمادة ملهوسة منذ زمن بعيد في أفريقيا الغربية. المركبات الفاعلة التي تحتويها تشبه بتركيبتها البيتا كاربولين. الإيبوجاين معروف بأنه قيد للشهوة الجنسية أكثر مما هو مثير للهلوسة. ولكنه مع ذلك يستطيع عند تناوله بجرعات كافية أن يحدث تجربة خيالية وشعورية عميقة.

قد تكون هذه المعلومات الأكثر إثارة وأهمية فيما يختص بمعرفة العالم الطبيعي منذ نشوء العلم. ليس الإطلاع على نتائج أبحاث مضاد النوترين هو الأكثر قيمة بالنسبة للناس، ولا محاولات رصد نجوم جديدة تحمل المزيد من الأمل للإنسانية، بل هي معرفة أن هناك نباتات معينة، مركبات معينة، تفتح أبواباً منسيّة إلى عوالم من التجربة المباشرة تربك العلم وتربكنا نحن أيضاً. هذه المعلومات إذا فُهمت وطُبقت كما ينبغي قد تصبح بمثابة البوصلة التي تقودنا وتعود بنا إلى عالم أصولنا الضائع.

البحث عن شجرة المعرفة

أثناء محاولة تحديد أنواع المواد الأندولية والنباتات التي قد تكون من مسببات ظهور الوعي، هناك عدة أمور يجب الالتفات إليها:

النبات الذي يجري البحث عنه هو بالتأكيد إفريقي، طالما أن كل الدراسات تؤكد بأن الجنس البشري انطلق من هناك. وهذا النبات ينتمي بالتحديد إلى الأرض المعشوشبة حيث تعلّم أجدادنا القوارت كيف يتأقلمون ويتكيفون مع المشي على قدمين ويطوّرون ما يعرفونه من إشارات.

النبات يجب أن يكون فاعلاً في حالته الطبيعية ولا يتطلب تحضيراً من أي نوع. إن مزج المواد أو تركيب أنواع الشراب المخدّر أو استخراج المواد وتركيزها، كل ذلك يعود إلى مرحلة حضارية متأخرة، وكان مترافقاً مع نمو الوعي البشري واستخدام اللغة.

يجب أن يكون النباتَ متوفراً باستمرار لمجموعات الرحَّل. وبالإمكان تمييزه بسهولة ويكون موجوداً بكثرة.

والنبات يجب أن يترك أثراً مباشراً وملموساً على الفرد الذي يتناوله. بهذه الطريقة فقط يستطيع أن يفرض نفسه ويصبح جزءاً من غذاء الإنسان الأول.

هذه الشروط تجعل عدد النباتات المحتملة قليلاً جداً. لا تنمو في أفريقيا سوى مجموعة ضئيلة من النباتات المثيرة للهلوسة. هذه الندرة وما يقابلها من وفرة مناقضة في المنطقة الاستوائية من العالم الجديد لم يجر البحث فيهما كما ينبغي. هل هي محض صدفة أن المكان الذي يتعرض لوجود البشر لفترة أطول تقل فيه هذه النباتات؟ لا تكاد توجد في أفريقيا اليوم نباتات محلية تشكّل احتمالات معقولة في أن تكون لعبت دوراً كمحفّزات للوعي في مراحل تطور الإنسان الأول.

في الأرض المعشوشبة تقلّ أنواع النباتات التي تنمو بوفرة في الغابات. وسبب هذه الندرة فإنه من المحتمل أن يُقبل الإنسان الأول على تجريب أي نبات يجده ويرى فيه احتمال أن يصبح غذاء له. عالم الجغرافيا المعروف «كارل سور» يقول إنه لم يكن هناك ما يمكن اعتباره أرضاً معشوشبة طبيعية، وهو يعتبر أن كل هذه الأراضي هي من صنع الإنسان، وأنها ناتجة عن تراكم الاحتراق الموسمي. ويستند «سور» في اقتراحه هذا إلى أن كل أنواع النباتات في الأرض المعشوشبة موجودة على أطراف الغابات بينما نسبة عالية جداً من أنواع النباتات التي تنمو في الغابة غير موجودة في الأرض المعشوشبة. وهو يستنتج أن الأرض المعشوشبة حديثة العهد ووجودها يقترن بانتشار معرفة استخدام النار[٢] لدى المجموعات البشرية.

غربلة الاحتمالات

ليس هناك اليوم في أفريقيا سوى دين البويتي عند شعب الفانغ في الغابون وزائير الذي يمكن اعتباره فعلاً أنه يستند إلى طقوس استخدام نوع من النباتات المهلوسة: تابرنانت إيبوغا الذي ربما كان له تأثيره على الإنسان ما قبل التاريخ. لكن ليس هناك أي دليل على معرفة الإنسان لهذا النبات قبل القرن التاسع عشر. لم يشر إليه مثلاً البرتغاليون الذين كان عندهم تاريخ طويل

(٢) كارل سور: Man's Impact on the Earth. نيويورك: Academic Press، ١٩٧٣.

من التجارة والاستكشاف في غرب أفريقيا. هذا النقص في الأدلة يصعب تفسيره إذا كنا نعتقد أن استخدام النبات قديم جداً.

تعتبر ديانة البويتي من منطلق اجتماعي بمثابة قوة تحافظ على تماسك أفراد المجموعة وعلى استمرارية الزواج في الوقت نفسه. من المعروف تاريخياً أن الطلاق يعتبر مثيراً للقلق عند الفانغ. الطلاق بحد ذاته يسهل الحصول عليه لكن تتبعه مفاوضات معقدة ومطوّلة ومكلفة مع عائلة الشريك المطلّق وهي تدور حول استعادة جزء من المهر[٣]. ربما يكون نبات الإيبوغا المثير للهلوسة يعمل أيضاً على تفعيل فيرمون يساعد على تماسك العلاقة الزوجية، وهو معروف بأنه مثير للنشاط الجنسي.

هذا النبات ينمو بشكل شجيرة متوسطة الحجم، وهو يتواجد في الأصل في الغابات الاستوائية وليس في الأرض المعشوشبة ويندر وجوده اليوم بدون زراعة وعناية.

نتيجة الصلات الأوروبية بأفريقيا الاستوائية صارت الأيبوغا أول أندول يروج استخدامه في أوروبا. لاقت المستحضرات التي أعدت من هذا النبات إقبالاً شعبياً كبيراً في فرنسا وبلجيكا بعد تقديم الأيبوغا للناس في معرض باريس سنة ١٨٦٧. بيع المستحضر في أوروبا تحت اسم لامبيرن بوصفه علاجاً لكل شيء بدءاً من الانهيار العصبيّ حتى السفليس؛ والأهم من ذلك بوصفه منشطاً جنسياً.

لم يتم عزل المادة القلوية فيه حتى سنة ١٩٠١. بدت الأبحاث التي أجريت واعدة في البداية؛ وطرح احتمال التوصل إلى علاج لحالة العجز عند الرجال. لكن الباحثين ما لبثوا أن نسوا الإيبوجاين بعد التوصل إلى تعريفه كيميائياً بفترة غير طويلة. وعلى الرغم من عدم توفر أدلة على خطورته أو إمكانية التعلّق به، أدرج المستحضر في القائمة الأولى للمواد الممنوعة والتي تخضع للمراقبة في الولايات المتحدة الأميركية؟ ولا يزال الإيبوجاين حتى اليوم مستبعداً عن مجالات الدراسة والبحث.

إن ما نعرفه عن الإيبوغا لا يتعدّى الملاحظات التي دوّنها الباحثون الأنثربولوجيون. جذور النبات تكشط والناس يتناولون المادة المكشوطة بكميات كبيرة نسبياً. يسود الاعتقاد لدى الفانغ أنهم تعلموا تعاطي هذه المادة خلال فترة نزوح طويلة دامت قرناً من الزمان، وأنهم كانوا في تلك الأثناء يلتقون أحياناً بالأقزام الذين أرشدوهم إلى الطاقة الروحية الكامنة في البويتي. يقول الفانغ إن بضعة غرامات من جذور تابرنانت إيبوغا «تفتح عقل الإنسان». والكميات الأقل لها فاعليتها في نواحٍ حياتية مختلفة.

(٣) جايمز و. فيرنانديز: «Bwiti: An Ethnography of the Religious Imagination in Africa»، برينستون، Princeton University Press، ١٩٨٢.

لا شك أن طقوس الإيبوغا مهمة للغاية لكنني لا أعتقد أن الإيبوغا كان المادة المحفزة للوعي عند الإنسان الأول. وكما أشرنا سابقاً ليس هناك ما يدل على استخدام الإيبوغا منذ زمن طويل وهي لا تنمو في الوقت نفسه في الأرض المعشوشبة. إضافة لذلك عند تناول الإيبوغا بجرعات صغيرة يضعف البصر العادي وتتدافع الصور والهالات والأشعة المرئية.

مركبات الإل إس دي لم تعرف في أفريقيا، وليست هناك أدلة على وجود نباتات تحتوي على هذه المركبات.

بيغانوم هارمالا، نبتة الفيجن السورية الضخمة، غنية بمادة الهارمين من البيتاكاروبولين وتنمو اليوم في الأراضي القاحلة على ساحل أفريقيا الشمالية. لكن ليس لدينا ما يشير إلى أنها كانت تستخدم كمادة مثيرة للهلوسة في أفريقيا، كما أن المادة المستخرجة منها يجب أن تكثف أو تضاف إلى «الدي إم تي» كي تكون فاعلة في إثارة التهيؤات[٤].

نبتة «أور»

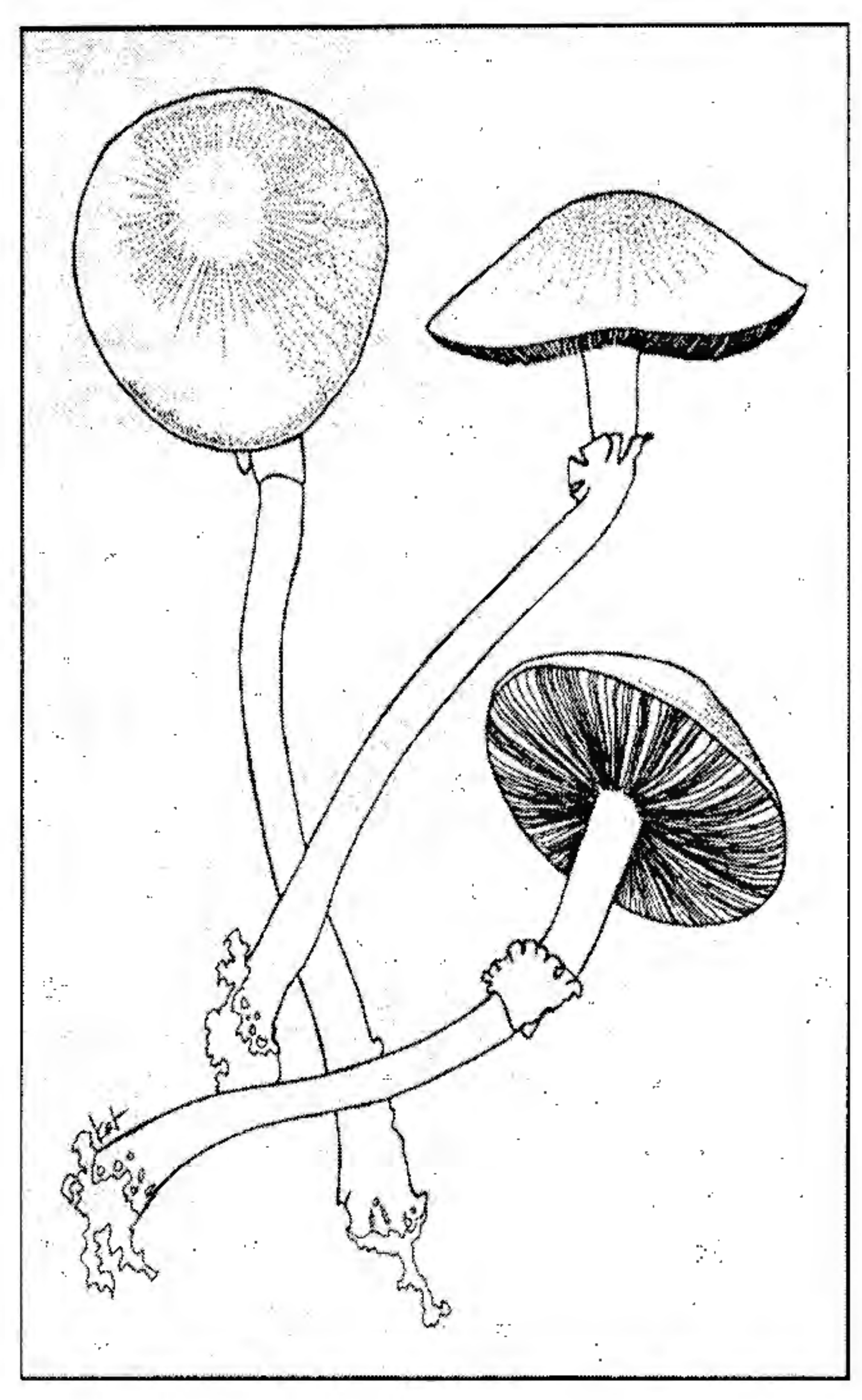
بعد عملية الحذف لا يبقى أمامنا سوى المواد المهلوسة من التريبتامين ـ بسيلوسبين وبسيلوسين ودي إم تي. في الأرض المعشوشبة نتوقع تواجد هذه المركبات إما في فطر ينمو على الروث وهو يحتوي على بسيلوسبين، أو في عشب يحتوي على دي إم تي. لكن يجب استخراج مادة دي إم تي وتكثيفها وإلاً فإن هذه الأعشاب لا تستطع إعطاء كميات كافية من دي إم تي لتصبح مادة فاعلة، وهذا كان بعيداً عن متناول الإنسان الأول. لم يعد أمامنا إذاً سوى الاعتقاد بأن نوعاً من الفطر هو ما ننشد.

عندما ابتعد أجدادنا عن الأشجار وانتقلوا إلى الأراضي المعشوشبة كانوا يلاقون باستمرار حيوانات ذات حوافر تقتات بالنبات. تلك البهائم صارت مصدراً أساسياً للغذاء. ورأى أجدادنا أيضاً روث هذه القطعان البرية والفطر الذي نما عليه.

كانت عدة أنواع من فطر الأرض المعشوشبة تحتوي على بسلوسبين: فطريات بانيولوس وستروفاريا كوبنسوس، وهذه الأخيرة تدعى أيضاً بسيلوسبين كوبنسوس (أنظر الرسم ١)، وهي المعروفة بأنها «الفطر السحري» الذي يزرعه المتحمسون في أماكن متعددة من العالم[٥].

(٤) أنظر غراسي وزاركوف في بحثهما بعنوان: «An Indo-European Plant Teacher». من كتاب: «Notes from Underground 10». (Berkleiy).

(٥) أ.ت. أوس، وأ.ن. أوريك: «Psilocybin: The Magic Mushroom Grower's Guide». بيركلي، Lux Natura Press، ١٩٨٦.



الشكل (١)

ستروفاريا كوبنسوس، ويسمى أيضاً بسيلوسيين كوبنسوس. رسم كات هاريسون ـ ماكّينا. من كتاب أ.ت. أوس و أ.ن. أوريك: «Psilocybin the Magic Mushroom Gorower's Guid» (بيركلي: Lux Natural Press، ١٩٨٦، ص ١٢).

من أنواع الفطريات المختلفة ستروفاريا كوبنسوس فقط يحتوي على كميات مركّزة من بسيلوسبين ولا يحتوي على مركبات تتسبب بالغثيان. وهو وحده متميز بوفرته في المناطق الاستوائية على الأقل حيث تواجدت قطعان أبقار الدّربان (بوسي إنديكوس). هذا يطرح عدة تساؤلات. هل كان فطر ستروفاريا كوبنكسوس ينمو على روث الدربان فقط أم أنه نما أيضاً على روث أنواع أخرى من البهائم؟ منذ متى توسّع انتشاره؟ أول عيّنة من ستروفاريا كوبنسوس عثر عليها عالم النبات الأميركي إيرل في كوبا سنة ١٩٠٦، ويسود الاعتقاد بين علماء النبات الحديثيين أن نقطة انطلاق هذا الفطر كانت في جنوب شرق آسيا. في موقع أثري في تايلاند يدعى «نون ناك ثا» يعود تاريخه إلى ١٥٠٠٠ سنة قبل الميلاد، وجدت عظام قطعان الدربان إلى جانب قبور البشر. فطر ستروفاريا كوبنسوس ينتشر اليوم في تلك المنطقة. موقع «نون ناك ثا» يدل على أن الناس كانوا يستخدمون الفطر حيث كانوا يتواجدون مع قطعان الماشية.

هناك أدلة تؤكد أن ستروفاريا كوبنسوس هو نفسه نبتة أور، السرّة التي تربطنا إلى الروح الأنثوية للكوكب، والتي عندما كانت عبادتها هي السائدة، عبادة الإلهة ذات القرنين العظيمة في العصر الحجري، كانت تمدنا بمعلومات حتى نستطيع العيش في حالة توازن ديناميكي مع الطبيعة ومع بعضنا البعض ومع أنفسنا. استخدام الفطر المثير للهلوسة رافق التغيرات السلوكية. هذه العلاقة بين البشر وبين الفطر ضمّت الماشية أيضاً التي كانت المصدر الوحيد للحصول على الفطر.

قد لا تعود هذه العلاقة إلى أكثر من مليون سنة، لأن ظهور الإنسان المترحل والصيّاد يعود إلى ذلك التاريخ. والمئة ألف سنة الأخيرة أكثر من كافية لتطور الحياة الرعوية. لطالما أن العلاقة لا تعود إلى أكثر من مليون سنة لسنا إذاً بصدد البحث في تكافل بيولوجي يحتاج لبضعة ملايين من السنين للتطور. بل نحن نبحث في عادة متأصلة، عادة طبيعية عميقة للغاية.

مهما سمينا العلاقة التي ربطت البشر وفطر ستروفاريا كوبنسوس فإنها لم تكن علاقة ساكنة بل بالأحرى دينامية استطعنا من خلالها الوصول إلى مستويات أعلى على الصعيد الحضاري وعلى صعيد وعي الفرد لذاته. أعتقد أن استخدام الإنسان للفطريات المثيرة للهلوسة في الأراضي المعشوشبة في أفريقيا أعطانا النموذج لكل الأديان التالية. وبعد قرون طويلة من النسيان البطيء والنزوع وتغيّر المناخ ضاعت في النهاية معرفتنا للّغز، نحن في معاناتنا استبدلنا المشاركة بالسيطرة، والانسجام مع الطبيعة باغتصاب الطبيعة، والشعر بسفسطة العلم. باختصار استبدلنا حقنا المشروع في أن نكون شركاء في دراما العقل الحي لهذا الكوكب بحطام التاريخ والحرب والعصبية والقضاء الكلي على الأرض إذا لم نتنبه في الوقت المناسب لمصيرنا.

ما هي المواد المثيرة للهلوسة في النباتات؟

عند البحث في الأهمية المفترضة لهذه المواد بالنسبة لتطور الإنسان، من الطبيعي أن نتساءل عن دورها في النباتات التي تتواجد فيها. هذا الدور لا يزال حتى اليوم يشكل لغزاً لدى علماء النبات وعلماء التطور البيولوجي. من الآراء المقترحة أن المركبات السامة والفاعلة بيولوجياً تنتجها النباتات لكي تصبح غير قابلة للأكل وبالتالي غير مرغوب فيها كغذاء. كما ساد رأي آخر بأن هذه المركبات تستخدمها النباتات لجذب الحشرات أو الطيور التي تساهم في نقل اللقاح أو نشر البذور.

هناك تفسير أقرب لوجود المركبات الثانوية يستند إلى الإقرار بأنها ليست في الحقيقة ثانوية أو سطحية. والدليل على ذلك أن القلويات التي غالباً ما تعتبر ثانوية، تتواجد بكميات كبيرة في الأنسجة الأكثر نشاطاً في مجموع العمليات الأيضية. القلويات، التي تشمل كافة المواد المهلوسة التي نقصدها هنا، ليست منتوجات هامدة في النباتات التي تتواجد فيها، بل تتصف بديناميتها الفاعلة في معدل التكثيف ومعدل التآكل الأيضي. إن دور هذه القلويات في كيميائية العملية الأيضية يدل بوضوح على أنها أساسية بالنسبة لحياة الكائن واستراتيجية بقائه، لكنها تعمل بأساليب لا تزال غامضة بالنسبة لنا.

هناك احتمال أن تكون بعض هذه المركبات فيرمونات خارجية. والفيرمونات هي رسل كيميائية يقتصر نشاطها على أفراد جنس معين فحسب، بل تتعدّى ذلك لتعمل في أجناس مختلفة، بحيث أن الفرد يؤثر على أفراد من جنس مختلف. بعض الفيرمونات الخارجية تعمل بأساليب تسمح لمجموعة صغيرة من الأفراد بالتأثير على أمة أو على جنس بأسره.

إن رؤية الطبيعة ككل كوكبي تنظيمي يضبط ويتحكّم بعملية تطوره الذاتي من خلال إطلاق رسائل كيميائية، تبدو رؤية جذرية عموماً. نقل لنا القرن التاسع عشر صورة عن طبيعة تتصف بالضراوة، حيث يتواجد نظام طبيعي عشوائي لا يعرف الرحمة يسمح ببقاء أولئك القادرين على فرض استمرارية وجودهم على حساب منافسين آخرين. المنافسون في هذه النظرية يشكلون كل ما تبقى في الطبيعة. لكن معظم علماء البيولوجيا التطورية يرون هذه الفطرة الداروينية الكلاسيكية للطبيعة غير مكتملة. يسود الإعتقاد اليوم أن الطبيعة البعيدة عن كونها حرباً لا نهائية بين الأجناس، هي رقصة ديبلوماسية لا نهائية. والديبلوماسية في المقام الأول لغة.

يبدو أن الطبيعة تعطي الأهمية القصوى للتعاون المتبادل والتنسيق المتبادل للأهداف. وهذان الأمران لا بدّ منهما للكائنات التي تشترك في بيئة معينة. إنهما يشكلان الاستراتيجية التي

تسمح بالتكاثر الناجح واستمرارية البقاء. في هذه الاستراتيجية تحتل وسائل الاتصال عموماً والحساسية للإشارات المكانة الأولى. وهذه هي المهارات اللغوية.

إن التصوّر القائل بأن الطبيعة نظام حيّ تتفاعل فيه مكوّناته وتتصل ببعضها البعض عبر إطلاق إشارات كيميائية، لم يكن موضع بحث دقيق إلاّ في فترة متأخرة. والطبيعة تميل إلى شيء من الحرص في عملها؛ عندما يتبلور الردّ التطوّري لمشكلة ما فإنه يُطبق مرة تلو الأخرى في مواقف متعدّدة حيث يبدو مناسباً.

الآخر المتعالي

إذا كانت المواد المهلوسة تعمل كرسل كيميائية بين الأجناس، تصبح إذاً دينامية الصلة بين الحيوان الرئيس والنبات المثير للهلوسة ذات طابع تبادل معلوماتي بين جنس وآخر. حيث لا تتواجد هذه المواد تحصل عمليات نقل المعلومات ببطء شديد، لكن بواسطتها يتلقى البشر في مرحلة من مراحل تقدمهم الحضاري مزيداً من المعلومات والأحاسيس وأنماط السلوك وهذا يدفعهم أكثر فأكثر إلى حالات أرفع مستوى من الوعي الذاتي. لقد سميت هذا التلاقي «الآخر المتعالي» لكن هذا مجرد عنوان ولا يشكل تفسيراً.

من وجهة نظر أولى هذا «الآخر المتعالي» هو الطبيعة بصورتها الفعلية. أي أنها نظام حيّ وذكيّ. ومن وجهة ثانية إنه التوحد الرهيب وغير المألوف لكل الأحاسيس مع ذاكرة الماضي وتوقع المستقبل. «الآخر المتعالي» هو ما يلاقيه المرء بفعل مادة مهلوسة قوية. إنه فحوى لغز وجودنا، كجنس بشري وكأفراد في آن. «الآخر المتعالي» هو الطبيعة بدون قناعها المرح الذي يزرع فينا الثقة، قناع الزمن والفضاء والسببية.

إن تصوّر هذه الحالات العليا من الوعي الذاتي ليس سهلاً بالتأكيد. لأننا عندما نسعى لذلك نتوقع من اللغة الإحاطة مما هو في الزمن الحاضر أبعد من اللغة أو أبعد من التعبير. البسيلوسبين، المادة المهلوسة التي تتواجد حصرياً في الفطر، هو أداة فاعلة في هذا الموقف، لأن فاعليته التعاونية الأساسية تبدو في إطار اللغة. إنه يثير القدرة على التعبير ويعزّز النطق ويحوّل اللغة إلى شيء مرئيّ. ربما كان له تأثيره في الظهور المفاجىء للوعي واستخدام اللغة عند الإنسان الأول. نحن على الأرجح توصلنا إلى مستوى أعلى من الوعي عن طريق الغذاء. في هذا السياق تجدر الإشارة إلى أن المواد الفاعلة الأكثر قوة في عالم الطبيعة موجودة في العفن والفطر. ربما تكون الفطريات وبذور الحبوب التي تأثرت بالعفن تركت تأثيراً أساسياً على أجناس الحيوان بما في ذلك الحيوانات الرئيسة التي كانت تتواجد في الأرض المعشوشبة.

٤ ـ النباتات والحيوانات الرئيسة: بطاقات من العصر الحجريّ

عاش «إيفي» فصول صيف أكثر من عدد أصابع يديه الاثنتين معاً. صار عمره اليوم مناسباً للانضمام إلى الصيادين والتحلّق معهم حول نارهم. إنها خطوة كبيرة، تلك المسافة التي اجتازها من كوخ الأولاد إلى نيران الصيادين قرب كوخ الفناء، كوخ الرجال. كانت رحلة طويلة ليس في المكان فقط بل وفي الزمن أيضاً. منذ سنوات طويلة وهو يفكر في هذا اليوم ـ ساعات أمضاها في التمرين على غرس الرماح المصنوعة من قضبان قوّاها مع الصبية على النار لتصبح شبيهة بالأسلحة العضلية، والاستماع إلى تعليمات دوكنو التي لا تنتهي عن تتبع الآثار، وعن قراءة إشارات الطقس، والحذر من الرياح. وكذلك تلقى المعلومات عن سحر الصيد. منع الصبي نفسه من لمس التعويذة التي أعدتها له أمه والتي كانت تتدلّى حول رقبته. لم يأتِ بأية حركة. بدا وكأنه بعيد عن المشهد، كأنه يراه من فوق ومن مسافة قريبة. ظلّ واقفاً على هذا النحو أكثر من اثنتي عشرة ساعة. بلا حراك ودون أن يرفّ له جفن. «هذا يعطيك القدرة على السكون، والقوة!» تذكر الطعم الصابونيّ للمادة المقشوطة عن الجذر والتي ابتلعها بصعوبة بحضور معلمه دوكنو. قال له «بهذه المادة تصبح غير مرئي يا صغيري». ثم أضاف بصوت هادىء «كن دقيقاً في القتل. هكذا تمجّد أسلافك». شعر إيفي أن لحظة الحقيقة باتت قريبة جداً منه. تحت تأثير التونغا، نبات القدرة السكونية، وصل إلى ذلك المكان المقفر وقيل له أن ينتظر هناك قرب حمار وحش لم يمض وقت طويل على اصطياده. دوكنو ووالده وأعمامه جميعهم تمنوا له النجاح وهم يضحكون ويطلقون الوعود ويستخدمون كلمات جديدة غير مألوفة يصفون بها كيفية استقبال نساء القرية له إذا عاد منتصراً. تلك الكلمات أثارته لفترة ثم تناساها في انتظاره. التونغا هيأت الصبي بطريقة رائعة للقيام بمثل هذا العمل. أحسّ أن جسمه بعيد عن التعب، وأن عقله منجرف مع مشاهد غمرت تفكيره من قصص وحكايات سمعها من أبناء قومه في مجالسهم التي كانوا يعقدونها حول النيران. فجأة وبدون أن يأت بأدنى حركة تحوّل

عقله إلى منتهى اليقظة: لقد سمع شيئاً ما في مكان قريب. سمع الصوت ثانية! من الجدول القريب خلف أشجار الطرفار التي كان ينتظر تحتها.

الصوت صار واضحاً.

لم يشعر إيفي بخوف أو رهبة مما سيرى. استعدّ للمواجهة فاشتدّت عضلاته دون أن يتحرك. كانت اللبؤة كبيرة، وحذرة كسائر الحيوانات في أرض أعظم الصيادين. وقف إيفي يراقبها وهو يفكر أنه ليس سوى غصن أو شجرة. صارت اللبؤة على مقربة منه، فتخلّت عن حذرها وبدأت تشتم الدماء على الحمار الوحشي. في تلك اللحظة وبقوة التركيز المتراكمة من مئات الأجيال، وجّه إيفي ضربته ـ بدقة، غرز رمحه بجانب العمود الفقري وخلف عظم الكتف. صرخت اللبوة صرخة من الألم والغضب تصمّ الآذان. كانت قوة ضربة الصبي ـ الرجل هائلة لدرجة أن اللبوة تسمّرت في مكانها لا تقوى على الحراك، وهذا مكّن الصبي من القفز بعيداً عن مخالبها. سوف تحتفل قبيلة إيفي بإنجاز الصبي في هذه الليلة، وحلقة الصيادين ستضم عضواً جديداً يشاركها صخبها وما تنعم به من مكانة.

هذه القصة تشرح بوضوح كيف يمكن الاستفادة من نبتة منبهة وضمها إلى الغذاء من أجل منفعتها في التأقلم. تستطيع النبتة منح القوة واليقظة وبالتالي تزيد فرص نجاح الصيد والحصول باستمرار على موارد غذائية، يصبح الفرد أو الجماعة، أقلّ عرضة للتأثر لمخاطر عوامل بيئية معينة، التي ربما كانت في السابق تحدّ من آفاق حياة الأفراد وبالتالي من النمو السكاني عموماً. لكن الأكثر صعوبة على الفهم هو كيفية عمل النباتات المثيرة للهلوسة لتأمين أنماط أخرى مختلفة من أفضليات التأقلم. هذه المركبات لا تعمل مثلاً على تحفيز نظام المناعة إلى حالات أعلى من الفاعلية، على الرغم من أن ذلك قد يكون من آثارها الجانبية. إنها بالأحرى تحفّز الوعي، تلك المقدرة الذاتية الخاصة التي وصلت إلى أرفع مستوى لها عند البشر. لكنها لا تتسبب في إحداث الوعي، وهو وظيفة معمّمة موجودة بنسب معينة في كافة أشكال الحياة. التحفيز هو تسريع لعمليات موجودة في الأصل.

لا أحد يشك أن الوعي، كالقدرة على مقاومة المرض، يعطي من يمتلكه أفضلية أكثر للتأقلم. عند البحث عن العامل إنه المسبب القادر على إحداث النشاط المعرفي والذي لعب بالتالي دوراً في ظهور الإنسان العاقل، كان الباحثون يستطيعون الالتفات إلى أهمية النباتات المنبهة لولا الوجهة السائدة التي تستبعد بقوة فكرة أن موقفنا المميز في النظام الهرمي الطبيعي قد يكون ناجماً عن طاقة نباتية أو عن قوى طبيعية من أي نوع. وحتى عندما طرحت في القرن التاسع عشر فكرة تحدّر الإنسان من القرد، فإننا نجد أن تقبل الفكرة مرتبط بأن تلك القرود تواجدت في العصر الحجري. يبدو أن تحجرنا هو السمة الوحيدة المميزة لنا.

تفرّد البشر

إذا أردنا فهم الكائنات البشرية يجب أن نفهم تفرّدها، إن الفاصل الجذري بين الكائنات وبين سائر الطبيعة واضح لدرجة أن المفكرين القدماء اعتبروه دليلاً كافياً على أننا نمثل الجزء الذي يتمتع بنعمة القداسة من بين سائر الخليقة ـ مختلفون بطريقة ما، وقريبون بطريقة ما من الله. البشر يتكلمون ويحلمون ويضحكون ويحبون ويستطيعون القيام بأعمال عظيمة كالتضحية بالنفس أو الأعمال الوحشية؛ البشر يبتكرون الفنون ويضعون النظريات والنماذج الرياضية للتعبير عن الظواهر. والبشر يميزون أنفسهم بعدد أنواع المواد التي يستخدمونها ويدمنون عليها في محيطهم.

المعرفة البشرية

جميع السمات المتفرّدة والاهتمامات لدى البشر يمكن تلخيصها تحت عنوان النشاطات المعرفية: الرقص، الفلسفة، الرسم، الشعر، الرياضة، التأمل، الهوى الجنسي، السياسة، نشوة التخدير الذاتي. نحن بالفعل «هومو سابيان»، الحيوان العاقل؛ جميع أعمالنا نتاج للبعد الذي يخصنا نحن فقط، بُعد النشاط المعرفي. بُعد التفكير والعاطفة والذاكرة والترقّب، بعد النفس.

بعد مراقبة الذين يستخدمون الأياهواسكا في المنطقة العليا من الأمازون، صار واضحاً جداً بالنسبة لي أن الشامانية غالباً ما تتوصل بواسطة الحدس إلى توجيه قرار المجموعة. الشامان يقررون متى تتحرك المجموعة أو تصطاد أو تشن الحرب. المعرفة البشرية هي تجاوب تكيّفي مرن في العمق يساعدنا على تدبّر أمورنا، وهذا يتم عند الأجناس الأخرى بواسطة أنماط سلوكية مبرمجة بالوراثة.

نحن فقط نعيش في بيئة لا تضبطها فقط القيود البيولوجية والفيزيائية التي تخضع لها كافة الكائنات، بل تضبطها أيضاً الرموز واللغة. بيئتنا كبشر يتحكم بها المعنى. والمعنى يكمن في العقل الجماعي للمجموعة.

الرموز واللغة تخولنا العمل في بعد «ما وراء الطبيعة»ـ خارج النشاطات العادية لسائر أشكال الحياة العضوية. نستطيع تطبيق افتراضاتنا الثقافية، نغيّر ونقلب العالم الطبيعي. في سعينا إلى الغايات الأيديولوجية وبالتناسب مع النموذج الداخلي للعالم الذي ساعدتنا رموزنا على ابتكاره. ونحن نقوم بذلك بواسطة ابتكار منتوجات ووسائل تقنية أكثر فاعلية، وبالتالي أكثر قدرة من التدمير، والتي نشعر أننا بحاجة إليها.

تساعدنا الرموز على تخزين المعلومات خارج الدماغ. هذا يخلق بالنسبة لنا علاقة بالماضي تختلف كثيراً عما تعيشه سائر الحيوانات. أخيراً يجب أن نضيف لأي تحليل لطبيعة الإنسان

القدرة على التعديل الذاتي للنشاط. نحن قادرون على تعديل أنماط سلوكنا استناداً إلى تحليل رمزي لأحداث الماضي، أي من خلال التاريخ. بواسطة قدرتنا على تخزين واستعادة المعلومات كصور وسجلات مدوّنة استطعنا أن نبتدع بيئة بشرية تتكيف مع الرموز بقدر تكيفها مع العوامل البيولوجية والبيئية.

تحولات القرود

إن الطفرات التطورية التي أدّت إلى ظهور اللغة ـ أي الكتابة فيما بعد، هي نماذج عن التحولات الجذرية، والتي تكاد تكون وجودية، في حياة الإنسان. إلى جانب مدّنا بالقدرة على حفظ المعلومات خارج «الدي إن آي» تساعدنا النشاطات المعرفية على توصيل المعلومات عبر المكان والزمان. في البداية اقتصر ذلك على توجيه صرخة تحذيرية أو أمر، وهذا ليس أكثر من تعديل لظاهرة مألوفة في سلوك الحيوانات الاجتماعية. ومع مرور الوقت هذا الدافع للاتصال أدى إلى ابتكار تقنيات أكثر فاعلية. وفي عصرنا الحديث تجسدت هذه المقدرة الأولية في كافة أنماط وسائل الاتصال التي تحيط بكوكب الأرض، الذي يسبح اليوم في محيط من الرسائل: إتصالات هاتفية، تبادل معلومات، تسلية ذات بث إلكتروني؛ هذه جميعاً تخلق عالماً خفياً يكرّس تزامناً معلوماتياً عالمياً. نحن لا نفكر في هذا الأمر بل نعتبره واقعاً حضارياً.

ولعنا المميز والمحموم بالكلمة والرمز أعطانا معرفة روحية جماعية، فهماً جماعياً لأنفسنا ولعالمنا الذي استمر عبر التاريخ وحتى الأزمنة الحديثة. هذه المعرفة الروحية الجماعية هي أساس الإيمان في العصور الماضية بالحقائق العامة والقيم الإنسانية المشتركة. نستطيع أن نعتبر الأيديولوجيات على أنها بيئات يعرفها المعنى. إنها خفية لكنها تحيط بنا وتحدّد هويتنا، كما أنها تحدّد كيفية تفكيرنا بأنفسنا وبالوقائع مع أننا قد لا ندرك ذلك أبداً. إنها في الواقع تعرفنا بماذا نستطيع أن نفكر.

إن نهضة الحضارة الألكترونية عالمياً ساهمت في تسريع معدل حصول الفرد على المعلومات الضرورية لوجوده. تسبب هذا بالإضافة إلى الحجم الإجمالي للوجود البشري ككل، في توقف تطورنا الفيزيائي كجنس. مع تزايد عدد السكان تقل فاعلية التغيير في تطور الجنس المعنيّ. هذا الواقع بالإضافة إلى تطور الشامانية وتطور الطب العلمي لاحقاً أبعدوا الإنسان عن مسرح الإنتقاء الطبيعي. وفي هذه الأثناء احتلت المكتبات وقواعد المعلومات الألكترونية مكان العقل الفردي وصارت المنطلق الأساسي تخزين المعطيات الثقافية. تحوّلت الرموز واللغات تدريجياً عن كونها المنظم الاجتماعي المميز للرعوية البكماء لأجدادنا الأوائل، واستُبدل الشكل البدائي بالتنظيم الاجتماعي الأكثر تعقيداً الذي يتميز به المجتمع الكوكبي الموحّد إلكترونياً. نتيجة لهذه

التغييرات صرنا نميل أكثر للخروج عن الإطار الجيني، أي أن معظم ما يحدّدنا كبشر لم يعد ماثلاً في الجينات بل خارجها.

بروز المخيلة ما قبل التاريخ

قدرتنا عن القيام بنشاط معرفي تعود إلى حجم وتنظيم دماغنا. إن البُنى العصبية المعنية بتكوّن المفاهيم والتصوّر والتعبير والربط على درجة عالية من التطور في الجنس البشري. من خلال التحدث بحيوية نحرّك مجال المخيلة. قدرة ربط الأصوات أو الحروف الضعيفة في اللغة بصور داخلية ذات معنى دلالة على الحسّ التزامني. المنطقتان الأكثر حداثة في التطور في الدماغ: منطقة بروكا ونيوكورتكس، تتحكمان بعملية التعبير الرمزي واللغوي.

من هذه الوقائع نستنتج أن المناطق ذات البنية العصبية الأعلى في الدماغ هي التي سمحت بوجود اللغة والثقافة. وحيث يجري البحث في تصورات تفسر ظهور الإنسان والتنظيم الاجتماعي تظل المشكلة المطروحة هي التالية: نحن نعرف أن قدراتنا اللغوية تطورت بالتجاوب مع ضغوطات بيئية عالية ـ لكننا لا نعرف ما هي هذه الضغوطات.

ربما كان الإنسان القادر على تعاطي النباتات المنبهة تمتع عبر آلاف السنين بتهيؤات فائقة الغرابة والجمال. لكن ضرورة التطور بجعل وعي الكائن يمر في قنوات ضيّقة حيث تتم رؤية الواقع العادي من خلال الأحاسيس التي تقلّل من حدته؛ إلا أننا كنا سنتكيف مع خشونة الواقع المباشر. كمخلوقات لها أجساد حيوانية، نحن ندرك أننا معرضون لسلسلة من الاتهامات المباشرة التي لا نستطيع تجاهلها إلا بتحمل مخاطرة كبيرة. ولأننا بشر ندرك وجود عالم داخلي يتعدّى احتياجات الجسم الحيواني، لكن الضرورة التطورية جعلت ذلك العالم أبعد عن قدرة الوعي العادي.

أنماط وتفهّم

عُرّف الإدراك بأنه وعي الوعي[١] ويتميز بالصلات والروابط الجديدة التي تنشأ بين مختلف معطيات التجربة. الإدراك أقرب لأن يكون تجاوباً عالياً لمناعة غير محدّدة. مفتاح عمل نظام المناعة هي قدرة مادة كيميائية على التعرّف على مادة أقرب. وهكذا فإن نظام المناعة والإدراك يعتمدان على العلم والمعرفة والتذكر[٢].

---

(١) هيربرت ف غوينتر: «Tibetan Buddhism Without Mystification». لايدين، نيذرلاندز، إ ـ ج ـ بريل، ١٩٨٦، ص ٦٦.

(٢) فرنسيسكو ج. فاريلا وأ. كوتيهنو: «The Bocly Thinks: How and the Immune System is Cognitive». من كتاب، The Realityclub. منشورات جون بروكمان المجلد ٢، نيويورك، Phoenix Press، ١٩٨٨.

أشير في هذا السياق لما قاله ألفرد نورث وايتهيد عن الفهم الذي «تقبل النمط كما هو». هذا أيضاً تعريف مقبول للإدراك. إن وعي النمط يثير الإحساس الذي يؤدي إلى الفهم. ليس هناك على الأرجح حدود للمدى الذي يستطيع وعي الجنس الوصول إليه، طالما أن التفهم ليس أمراً نهائياً له نتيجة متصوّرة، بل هو بالأحرى موقف ناجم عن تجربة مباشرة. يبدو هذا واضحاً من وجهة نظر الوعي شبيهاً بمصدر للضوء. كلما ازدادت قوة الضوء تكبر المساحة التي تتراجع عنها الظلمة. الوعي هو عملية تكامل رؤية الفرد للعالم في كل لحظة. إن مدى إجادة الفرد وبراعته في إنجاز هذا التكامل يحدّد مستوى التجاوب التكيفي الخاص به مع الوجود.

نحن لانتحكّم فقط بنشاطنا المعرفيّ كأفراد؛ عندما نعمل معاً نتحكم بنشاطنا المعرفيّ الجماعيّ أيضاً. النشاط المعرفي داخل المجموعة يعني عادة التلاعب والتحكم بالرموز واللغة. على الرغم من أن هذا موجود عند العديد من الأجناس، لكنه يتميز بتطوره العالي عند الإنسان بشكل خاص. قدرتنا الهائلة على التلاعب بالرموز واللغة تعطينا موقعنا الفريد في العالم الطبيعي. إن القدرة التي يتمتع بها سحرنا وعلمنا تنجم عن التزامنا بالنشاط العقلاني الجماعي والمشاركة بالرموز وتكرار الإشارات (نشر الأفكار) ورواية القصص الطويلة.

إن الفكرة التي أشرت إليها بأن الوعي العادي هو الحصيلة النهائية لعملية تكثيف وتصفية، وأن التجربة النفسية هي النقيض لهذه البنية؛ هذه الفكرة طرحها ألدوس هاكسلي الذي قال في سياق تحليله لتجاربه مع الميسكالين:

> أجد نفسي متفقاً مع أستاذ الفلسفة الشهير في كامبريدج الدكتور س.د. برود بأنه «يجدر بنا الافتراض أن عمل الدماغ والجهاز العصبي وأعضاء الحسّ هو في الأساس حذفيّ أكثر منه إنتاجي». وظيفة الدماغ والجهاز العصبي حمايتنا من الارتباك بسبب هذا الكم الهائل من المعلومات التي غالباً ما تكون غير مفيدة، وذلك بحذف معظم ما كنا سنرى ونذكر في كل دقيقة وترك قدر ضئيل من المعلومات المنتقاة والتي تبدو ذات فائدة عملية لنا. هذه النظرية تفترض أن الإنسان هو «مقدرة عقلية حرة» في الدرجة الأولى. لكن كوننا حيوانات يفرض علينا السعي إلى البقاء مهما كلّف الأمر. وكي يصبح البقاء البيولوجي ممكناً يجب أن يتقمع نشاط العقل ليجري عبر الفتحة الضيقة للدماغ والجهاز والعصبي. والذي يتسرب من هذه العملية قدر طفيف من الوعي يساعدنا على البقاء على سطح هذا الكوكب بالذات. ولكي نعبّر عن محتويات هذا الوعي المختزل ابتكر الإنسان أساليب الرمز وأنظمة المفاهيم الضمنية التي نسميها اللغات وهو يسعى باستمرار لاتقانها بنحو أفضل. كل فرد هو في الوقت نفسه المستفيد والضحية في التقليد اللغوي الذي ولد فيه. إن ما يُسمى بلغة اليدين «هذا العالم» هو عالم من الإدراك المختزل الذي عبرت عنها اللغة وحجرته على ما يبدو. وسائر «العوالم الأخرى» التي ينجرف البعض بالوصول إليها هي من العناصر الكثيرة التي تشكل كلية الوعي التي تستوعبها المقدرة العقلية الحرة ... يمكن الوصول إلى المجاري الجانبية المؤقتة

إما بشكل تلقائي أو نتيجة «تمارين روحية»... أو بواسطة المخدرات[٣].

وما أغفل هاكسلي ذكره هو أن المخدرات، خاصة المواد النباتية المثيرة للهلوسة، تستطيع أن تصل باستمرار لفتح مسارب. صمام الوعي وتضع الفرد أمام قوة التاو العاصفة. إن الطريقة التي تخولنا استيعاب أثر هذه التجربة مع ما هو «أبعد من الوصف»، إن استطعنا خوضها بواسطة المنبهات أو وسائل أخرى، تقتضي منا تعميم واستقراء نظرتنا للعالم من خلال نشاط المخيلة. ونشاط المخيلة هو بمثابة الردّ التكيفي على المعلومات التي تخص العالم الخارجي والتي تصلنا عبر الحواس. عند أفراد الجنس البشري يستطيع الثقافي والموقفي المبرمجان في شكل اللغة التنافس مع البنية المتماسكة لعالم الغريزة في السلوك الحيواني وقد يحلان محلها أحياناً. هذا يعني أننا نستطيع التعلّم وتوصيل التجربة والتخلّص من أنماط السلوك التي تسيء للتوافق. نستطيع بشكل جماعي أن نتبين حسنات السلم ومساوىء الحرب، وحسنات التعاون ومساوىء الصراع. نستطيع أن نتغيّر.

كما رأينا قد تكون لغة البشر ظهرت عندما تعاملت الإمكانية التظيمية عند الحيوانات الرئيسة مع المواد المثيرة للهلوسة في النبات. هيأت تجربة الخدر للوصول إلى تفكير ذاتي حقيقي في البداية، وهيأتنا فيما بعد للتعبير عن أفكارنا بخصوص تلك التجربة.

كثيرون التفتوا لأهمية المواد المهلوسة كمحفزات للتنظيم النفسي للإنسان. نظرية جوليان جاينز التي طرحها في كتابه: «أصل الوعي في إنهيار العقل المزدوج»[٤] تقول إن تغييرات هامة في تحديد الإنسان لنفسه قد تكون حصلت حتى في الأزمنة المؤرخة. ويشير جاينز أن الناس في زمن هوميروس لم يكن لديها التنظيم النفسي الداخلي الذي نسلّم بوجوده افتراضياً. إن ما نسيمه اليوم «الأنا» كان بالنسبة لشعب هوميروس «إلهاً». عند الإحساس بالخطر كان صوت الإله يعلو في عقل الفرد؛ فاعلية نفسية تطفلية وغريبة كانت تتجسد بشكل تحوّل ما لأجل المحافظة على البقاء في ظل ظروف ضاغطة. هذه الفاعلية النفسية عبّر عنها الذين عاشوها بأنها صوت إله، أو صوت ملك أو صوت ملك آت من وراء الحياة. التجار والبائعون الذين كانوا ينتقلون من مجتمع لآخر حملوا الأخبار المزعجة بأن الآلهة كانت تقول أموراً مختلفة في أماكن مختلفة، وبدأوا بالتالي يزرعون بذور الشك الأولى. وفي مرحلة زمنية أخرى بدأ الناس يضيفون صفة الذاتية على تلك الفاعلية التي كانت تعتبر

(٣) ألدوس هاكسلي: «The Doors of Perception». نيويورك، Harper، ١٩٥٤، ص ٢٢.

(٤) جوليان جاينز: «The Origin of Consciousness in the Break down of the Bicameral Mind». بوسطن، Houghton Mifflin، ١٩٧٧.

مستقلّة في السابق، وكل فرد صار هو الإله واعتبر الصوت الداخلي «الذات» أو كما سمي فيما بعد «الأنا».

صرف النظر عن معظم طروحات نظرية جاينز. كتابه حول تأثير الهلوسة على الثقافة يتألف من ٤٦٧ صفحة ويتحاشى للأسف البحث في النبات المثير للهلوسة أو المخدرات. بهذا التغاضي حرم جاينز نظريته من آلية تستطيع تفسير التغييرات التحولية التي رآها في تطور وعي الإنسان.

تحفيز الوعي

تأثير المواد المهلوسة في الغذاء تجاوز الحالة النفسية؛ كانت النباتات المثيرة للهلوسة على الأرجح محفزات لكل شيء حولنا يميزنا عن سائر الحيوانات الرئيسة العليا، أي لكل العمليات العقلانية التي نربطها بالجنس البشري. إن مجتمعنا، أكثر من سائر المجتمعات، سوف يجد صعوبة في تقبل هذه النظرية لأننا جعلنا من النشوة التي يتم الوصول إليها بواسطة العقاقير شيئاً محرّماً. إن الحالات المتغيرة للوعي ممنوعة كالجنس لأنها ترتبط بشكل واعٍ أو غير واعٍ بلغز وجودنا ـ من أين أتينا وكيف أصبحنا في هذه الحالة. مثل هذه التجارب تذيب الحدود المرسومة وتهدد النظام السائد وسيطرة المجتمع من خلال التعبير الحرّ للأنا. لكننا يجب أن نبحث في الطرق التي ربما ساهمت فيها المواد المهلوسة في تحفيز استخدام اللغة، السمة الأبرز عند الإنسان.

في حالة الهلوسة يشعر المرء أن اللغة تمتلك بعداً موضوعياً ومرئياً يكون في الحالات العادية محجوباً عن الوعي. اللغة في تلك الحالات تكون منظورة ومرئية كما نرى عادة بيوتنا والأماكن الاعتيادية التي نرتادها. يتعرف المرء في الواقع على بيئته الثقافية بشكل أوضح خلال حالة التيقظ، كصوت رتيب في العملية اللغوية المستمرة لموضعة المخيلة. بمعنى آخر إن البيئة الثقافية المرسومة في إطار جماعي والتي نعيش فيها جميعاً ناجمة عن موضعة المحتوى اللغوي الجماعي.

ربما تكون قدرتنا على ابتكار اللغة صارت فاعلة من خلال التأثير التحوّلي للمواد المهلوسة التي تؤثر مباشرة على أجهزة معينة بمعالجة وإحداث الإشارات. هذه الأجهزة موجودة في بنية الدماغ، كمنطقة بروكا التي تتحكم بتكون الكلام. إن فتح الصمام الذي يحدّ الوعي يعزّز ملكة الكلام كما لو أن الكلمة هي تجسيد لمعنى كان حاضراً لكنه ترك دون أن يعبّر عنه. هذا الحافز للكلام، «تدفق الكلمة»، يشعر به الكثيرون ويصفونه.

البسيلوسيبين بالتحديد ينشّط المناطق المعينة في الدماغ بمعالجة الإشارات. من الآثار المعروفة

لخدر البسيلوسبين تفجر الطاقة الشعرية العفوية وغيرها من النشاطات اللفظية كالكلام بعدة ألسنة. في المجتمعات التي يسود فيها تقليد استخدام الفطر أدت هذه الظواهر إلى نشأة التخاطب مع الأطباء الروحانيين والحلفاء فوق الطبيعيين. إن الباحثين الذين يعرفون هذا الأمر يوافقون على أن البسيلوسبين له تأثير تحفيزي عميق على الواقع للتعبير اللغوي.

عندما بدأت القدرة على التعبير المركّب تتكرس كعادة عند الإنسان الأول، كان التطور المستمر للغة في المناطق التي يندر فيها تواجد الفطريات أو كانت غير متوفرة، يسمح ببروز الأنا. إذا كانت الأنا غير مستغرقة بشكل منتظم ومتكرر في العالم اللامحدود «للآخر المتعالي» فإنها تبتعد ببطء عن الإحساس بالذات كجزء من الكل الأكبر للطبيعة. والنتيجة القصوى لهذا الانجراف تتجسّد اليوم في الضجر المميت المهيمن على الحضارة الغربية.

هنري مان التفت إلى العلاقة بين الفطريات واللغة بذكاء في مقالته: «فطريات اللغة»:

> اللغة هي انجذاب في نشوة التعبير. عند التخدر بالفطريات تتملك المرء الطلاقة والإنسيابية والقدرة على التعبير بحيث أنه يندهش من الكلمات التي تنطلق من تلاقي النية في التعبير مع فحوى التجربة. العفوية التي تحدثها الفطريات لا تنعكس فقط على الإدراك بل على اللغة أيضاً. يشعر الشامان كأن الوجود يعبّر عن نفسه من خلاله(٥).

الجسم وابتكار الكلام

تبدو المنافع التطورية للقدرة على النطق واضحة وتدل على البراعة. هناك عوامل كثيرة غير اعتيادية تلاقت عند ظهور اللغة. من الواضح أن الكلام يسهّل الاتصال والنشاط المعرفي، لكن ربما كانت له أيضاً تأثيرات غير متوقعة على الوجود البشري ككل.

بعض علماء فيزيولوجيا الأعصاب قالوا بأن التردّد الصوتي الذي يحدث عند استخدام الإنسان للغة تسبب بشكل ما بتنقية السائل المخي الشوكي. لاحظ هؤلاء أن التردّدات تعمل على ترسب وتكثيف جزيئيات صغيرة في السائل الشوكي الذي يعمل باستمرار على غسل وتنقية الدماغ. قد يكون أسلافنا، بشكل واع أو غير واع، اكتشفوا أن الصوت الحلقي يحرّر رؤوسهم من الغشاوة الكيميائية المعشّشة فيها كبيوت العنكبوت. قد يكون ذلك العكس أيضاً في تطوير بنية رقيقة لجمجمة الإنسان الحديث وفي ميله الشديد إلى اللغة. إن عملية بسيطة كالغناء قد تترك منافع تكيفية إيجابية إذا ساهمت أيضاً في تفعيل إزالة النفاية الكيميائية في الدماغ. الرأي التالي يؤيد هذه الفكرة المثيرة:

(٥) هنري مان: «The Mushrooms of Language». مؤلف مايكل ج. هارنر: «Shamanism and Hallucinogens». لندن، Oxford University Press، ١٩٧٣، ص ٨٨.

للترددات التي تحدثها الأصوات المرتفعة أثرها في تدليك الدماغ كما أنها تسهّل في تنقيته من نتاج العملية الأيضية الذي ينتقل إلى السائل المخي الشوكي (CSF)... كان حجم دماغ إنسان نياندرتال أكبر من حجم دماغ الإنسان اليوم بنسبة ١٥ في المئة، ومع ذلك فهو لم يستمر في البقاء ولم ينجح في منافسة الإنسان الحديث. كان دماغه أكثر تلوثاً لأن جمجمته الكبيرة لم تكن تهتز وبالتالي لم يكن الدماغ ينظف كما ينبغي. في عملية تطور الإنسان الحديث كان ترقق عظام الجمجمة عاملاً فاعلاً»[٦].

كما أشرنا سابقاً يبدو أن الإنسان الأول كان على صلة مباشرة بالنبات المثير للهلوسة لفترة زمنية طويلة وهذا يجعلنا نقترح أن التغيرات الفيزيولوجية الحالية في بنية الإنسان كانت ناجمة عن هذه الصلة. تركيبة الحنك عند الطفل وتوقيت هبوطه من وسائل التأقلم الحديثة التي تسهّل عملية اكتساب اللغة. ليس هناك حيوان رئيس آخر يتمتع بهذه الميزة. قد يكون هذا التحول نتيجة لضغط إنتقائي على التغيرات التي تسبب بها في الأصل غذاء القوارت الجديد.

النساء واللغة

النساء هن اللواتي كنّ يجمعن الغذاء في معادلة العيش البدائي، وكن تعرّضن لضغوطات أكثر من الذكور لابتكار اللغة. الصيد، ميزة تفوق الذكر، يتطلب بالدرجة الأولى التمتع بالقوة وإجادة التسلل ورزانة الانتظار. كان الصياد يستطيع القيام بعمله بنحو جيد في إطار عدد محدود جداً من الإشارات اللغوية، كما هي حالة الصيادين اليوم في شعوب مثل شعب كَنْغ أو ماكو.

لكن الأمر يختلف بالنسبة لمن يجمع الغذاء. النساء اللواتي يحتفظن بذخيرة كبيرة من الصور القابلة للنقل عن الأطعمة ومصادرها وأسرار تحضيرها كانت لهن الأفضلية. قد تكون اللغة ظهرت كقوة غامضة تملكها النساء بشكل خاص ـ النساء اللواتي يمضين معظم أوقاتهن برفقة بعضهن البعض وهن في الغالب يتحدثن ـ أكثر من الرجال، النساء اللواتي تمتعن في كل المجتمعات بالحسّ الجماعي، مقابل صورة الذكر المتفرّد، واللواتي كن النسخة الرومنطيقية عن الذكر المتألق في القبيلة البدائية.

كانت إنجازات النساء اللغوية مدفوعة بحاجتهن لتذكر ووصف مختلف الأماكن والعلامات الأرضية وبأن يشرحن لبعضهن البعض العديد من الصفات المميزة للنباتات التي يجب البحث عنها أو تجنّبها. وقد ساهمت البنية المعقدة للعالم الطبيعي بتطور اللغة حتى

---

(٦) ك.ف. جيندراك و هـ. جيندراك: «Mechanical Effect of Vocalization of Human Brain and Meninges»، Medical Hypotheses 25، ١٩٨٨، من ص ١٧ وحتى ٢٠.

تستوعب العالم المرئي. وحتى اليوم لا يزال وصف نوع النبات ممتعاً: «شجيرة يتراوح علوها بين قدمين وست أقدام، خالية من النتوء؛ أوراقها متقابلة إجمالاً، بعضها ينمو في مجموعات من ثلاث أوراق، أو تكون متعاقبة في الأعلى، لا عنقية، رمحية طولية، أو رمحية، مستدقة الطرف أو حادة، أزهارها تنمو إفرادياً في الزوايا التي بين الأغصان، صفراء، لها رائحة، ذوات سويقات. كؤوسها جرسية الشكل، بتلاتها سريعة التساقط، بيضية مقلوبة» ويستمر الوصف عدة سطور.

إن المسافة التي قطعتها النساء في اللغة بوصفهن مكلفات بجمع الغذاء أدت لاحقاً إلى اكتشاف بالغ الأهمية: اكتشاف الزراعة. وأنا أعتبره بالغ الأهمية بسبب ما تركه من نتائج. أدركت النساء أنهن يستطعن ببساطة زرع عدد محدود من النباتات. ونتيجة لذلك تعلّمن احتياجات تلك النباتات وصارت حياتهن تميل إلى الاستقرار وبدأن ينسين سائر الطبيعة التي عرفنها في السابق معرفة جيدة.

في هذه المرحلة بدأ التراجع عن العالم الطبيعي ونشأت الثنائية التي تميز الإنسان عن الطبيعة. سوف نرى لاحقاً أن الأماكن التي ماتت فيها إلهة الحضارة القديمة ومنها «ساتال هويوك» الموجودة اليوم في الأناضول في تركيا، كانت الأماكن التي بدأ الإنسان فيها يعرف الزراعة. في أماكن مثل ساتال هويوك وجرش صار الناس مع نباتاتهم المزروعة وحيواناتهم المروّضة للمرة الأولى منفصلين فيزيولوجياً ونفسياً عن حياة الطبيعة غير المروّضة وسكوت المجهول. استخدام النباتات المهلوسة تجيزه فقط مجتمعات الصيد وجمع الغذاء. إذا استخدم المزارعون هذه النباتات لن يستطيعوا النهوض في فجر اليوم التالي لمتابعة عملهم في الحقول. في هذه المرحلة تصبح الذرة والحبوب آلهة ـ آلهة ترمز إلى التدجين والعمل الشاق. وهي تحل محل الآلهة القديمة للنشوة التي يحدثها النبات.

مع الزراعة تنمو الرغبة في زيادة الإنتاج، التي تؤدي إلى الوفرة والتخزين والتجارة. والتجارة توصل إلى المدن؛ والمدن تعزل سكانها عن العالم الطبيعي. والمفارقة الحاصلة أن المزيد من الإتقان في استخدام موارد النبات من خلال الزراعة أدى إلى الانفصال عن العلاقة التكافلية التي كانت توثق صلة الإنسان بالطبيعة. إن ضجر الحداثة من نتاج الخلل التكافلي الحاصل بيننا وبين الطبيعة. فقط باستعادة هذه العلاقة بشكل ما نستطيع التوصل إلى تقدير قيمة وجودنا وإحساسنا بأنفسنا كبشر متكاملين.

٥ . التعوّد كثقافة ودين

في فترات منتظمة، فترات قمرية على الأرجح، كان أفراد المجموعة البدوية الصغيرة من الرعاة يتوقفون عن ممارسة نشاطاتهم الاعتيادية. الأمطار تنهمر غالباً بعد اكتمال القمر في المناطق الاستوائية فتتكاثر الفطريات. جمع الفطر يكون أثناء الليل؛ الليل وقت التصوّر السحري والهلوسة، والتهيؤات يسهل الاندماج فيها في الظلام. كانت القبيلة كلها تشارك في هذا الحدث كباراً وصغاراً. يقوم الأكبر سناً، خصوصاً الشامان، وهم في الغالب من النساء لكنهم يكونون أحياناً من الرجال، بإعداد الكمية المناسبة لكل فرد. كان كل واحد يقف بدوره أمام المجموعة ويبدأ بمضغ حصته ثم يبتلع جسد «الآلهة» قبل العودة إلى مكانه في الحلقة. في هذه الأثناء تتصاعد أنغام آلات الفلوت العظيمة وتقرع الطبول لترافق الغناء. ويشكل البعض صفوفاً ويشرعون في الرقص بوقع أقدام أثقلتها طاقة الموجة الأولى من التخيلات. فجأة يشير الأكبر سناً بالتزام الصمت.

في سكون الظلمة يتبع البعض ومضاته إلى الدّغل فيما البعض الآخر يؤخذ بها بهدوء. يشعرون بالخوف ويتغلبون على الخوف من خلال قوة الجماعة. يشعرون بالراحة ممزوجة بالتعجب من روعة اتساع الرؤيا؛ يحاول البعض الاقتراب بشكل عفوي من الآخرين بدافع المودة والتقرّب أو تحت تأثير رغبة جنسية. لا يشعر الفرد بمسافة تفصله، أو تفصلها، عن سائر القبيلة، أو تفصل القبيلة عن سائر العالم. الهوية تذوب في الحقيقة العلوية الصامتة للنشوة. في ذلك العالم كل الانقسامات تزول. هناك فقط «حياة واحدة عظمى»؛ تشاهد نفسها تمرح، وتغتبط لذلك.

□ □ □

لا نجد دراسة وافية لأثر النباتات في تطور الثقافة والوعي، لكن كتاب غوردن واسون

«The Road to Eleusis» يحتوي بحثاً حذراً في هذه المسألة. لا يعلّق واسون على ظهور الوعي الذاتي عند الإنسان الأول، لكنه يقترح احتمال أن تكون الفطريات المثيرة للهلوسة العامل المسبّب في ظهور الإنسان الواعي روحياً وفي تكوين الدين. يقول واسون أن البشر القوارت الذين كانوا يجمعون المؤن سيلاقون بلا شك فطريات للهلوسة أو نباتات أخرى منبّهة:

فيما كان الإنسان يخرج من ماضيه البهيميّ منذ آلاف السنين، عرف في تطور إدراكه مرحلة مميزة عندما اكتشف الفطر (أو نبتة أخرى أعلى؟) الذي يتمتع بخصائص عجائبية اهتزت لها روحه وأثارت فيها مشاعر الخشية والمهابة، والرقة والحب، إلى أرفع مستوى يمكن للإنسان أن يرتقيه، جعلته يعرف كل المشاعر والفضائل التي يتوارثها أبناء الجنس البشري منذ ذلك الحين ويعتبرونها السمة الأبرز لهم. جعلته يرى ما لا تستطيع رؤيته العين الفانية. كم كان اليونانيون على حق في التكتم على هذا اللغز، فيرتشفون الجرعة بسرية وحذر!... قد لا نكون اليوم ونحن ننعم بمعرفتنا الحديثة بحاجة للفطر العجائبي. أم أننا نحتاج إليه أكثر من أي وقت مضى؟ قد يتفاجأ البعض بأن السبيل للوصول حتى إلى الدين يكون مجرد مخدّر. لكن المخدر ما زال يشكل لغزاً كما كان في الزمن القديم «كالريح التي تهب ولا نعرف قواعدها أو سببها». من المخدر البسيط يتأتى ما يفوق الوصف، يتأتى النشوة إنها ليست اللحظة الوحيدة في تاريخ الإنسانية حيث الأدنى يولّد الأكثر سمواً[١].

كانت الفطريات المنتشرة في الأرض الأفريقية المعشوشبة تجذب انتباه العيون الجائعة بسبب رائحتها وشكلها ولونها غير الاعتياديين. وبعد التعرّف إلى حالة الوعي التي تحدثها، كان الإنسان الأول يعود لجمعها مجدداً كي يعيش ثانية تلك الحالة السحرية الجديدة. وقد نشأ عن هذه العملية سلوك مميز كما قال س. هـ. ودينغتون، سبيل لتفعيل النشاط التطوري، وهذا السلوك المتكرر نسميه: «عادة».

النشوة

أشرنا في السابق إلى أهمية النشوة بالنسبة للشامان. الإنسان البدائي تعلّق بتجربة التخدّر فقط لأنها تثير فيها النشوة. وفعل النشوة مهم في سياق البحث ويحتاج إلى المزيد من الإنتباه. النشوة حالة تُفرض علينا عندما نعيش تجربة أو حالة ذهنية على مستوى كوني. تجربة النشوة تتجاوز الثنائية؛ إنها في الوقت نفسه مخيفة ومرحة، تلهم الخشية، مألوفة، غريبة. تجربة يتمنى المرء لو يعيشها مرة تلو المرة.

تجربة النشوة لم تكن بالنسبة للبشر العاقلين والذين يعرفون اللغة مجرد حالة فرح؛ بل كانت

(١) غوردن واسون، ألبرت هوفمان، كارل روك. «The Road to Eleusis». نيويورك، Harcourt Brace Jovanovichi، ١٩٧٨، ص ٢٣.

في غاية القوة والتعقيد. إنها ترتبط بإحكام بطبيعتنا الذاتية وواقعنا ولغاتنا ورؤيتنا لأنفسنا. من المناسب إذاً أن تكون حاضرة في صميم محاولات الشامانية لفهم الوجود. ميرسيا إلياد أشار إلى أن الشامانية والنشوة هما في الأصل شأن واحد:

التقليد الشاماني قديم جداً؛ وهو موجود بشكل كلّي أو جزئي عند الاستراليين والشعوب البدائية في أميركا الشمالية والجنوبية، وفي المناطق القطبية، الخ... النشوة هي السمة المميزة والأساسية في الشامانية الشامان مختص بما هو مقدس، قادر على التحرّر من جسده والقيام برحلات كونية «في الروح» (في الغشية). الوقوع في «تملك» الأرواح، مع أنه مذكور في العديد من الممارسات الشامانية، لم يشكل عنصراً أولياً وأساسياً. إنه بالأحرى ظاهرة أدنى لأن الهدف الأسمى للشامان هو التحرر من جسده والارتفاع إلى السماء أو الهبوط إلى الجحيم لا أن يترك الأرواح المساعدة أو الشياطين أو أرواح الموتى تستحوذ عليه؛ غاية الشامان السيطرة على هذه الأرواح لا الوقوع في حيازتها[٢].

إضافة غوردن واسون بدوره هذه الملاحظات حول النشوة:

ينطلق الشامان في غشيته في رحلة بعيدة إلى موطن الأسلاف الراحلين، أو العالم الآخر، أو حيث تقيم الإلهة وأنا أؤكد أن هذا العالم العجائبي هو حيث تأخذنا المواد المهلوسة بالتحديد. إنها السبيل إلى النشوة. النشوة بحد ذاتها ليست ممتعة أو غير ممتعة. حالة النعيم، أو الذعر، التي تغمرنا بها هي عرضية. عندما تكون في موقف النشوة تشعر كأن روحك تنسلّ من جسدك وتنطلق بعيداً. ومن يتحكم بمسارها: هل هو أنت، أم اللاوعي، أم قوة عليا؟ قد يكون الظلام دامساً لكنك ترى وتسمع بوضوح لم تعرفه من قبل. أنت أخيراً تقف وجهاً لوجه أما «الحقيقة المطلقة»: هذا هو الانطباع (أو الوهم) المهيمن الذي يأسرك. قد تزور الجحيم أو حقول البرواق الفردوسية أو الصحراء القاحلة أو القفار القطبية. تعرف الخشية والنعيم والخوف، وحتى الذعر. كل واحد يعيش تجربة النشوة بطريقته، ولا يعيشها مرتين بالطريقة نفسها أبداً. النشوة جوهر الشامانية. يظن المبتدىء أن الفطريات ترتبط بشكل أولي بالتهيؤات، لكن الذي توصّل لاتقان لغة الشامان يفهم أن الفطريات «تنطق» من خلال الشامان. القطر هو «كلمة: es habla كما أخبرني أوريليو. الفطر يغمر من يتناوله بما سماه اليونانيون «اللوجوس»، والآريون «فاك»، والفيداويون «كافيا»، وسماه لويس رينوس «إمكانية الشعر». وهي الشعر المقدس هبة من «الأنثوجين». إن المؤول النصي الحاذق فقط في تحليل النقاط البارزة في الأبيات الموضوعة أمامه له دوره الهام بالتأكيد وملاحظاته النقدية يجب أن تحظى باهتمامنا، لكنه إذا كان محروماً من موهبة «الكافيا» يجب عليه أن يتوخى الحذر عند مناقشة الأبعاد العلوية للشعر. إنه يحلّل الأبيات لكنه لا يعرف النشوة وهي روح الأبيات[٣].

---

(٢) س. هـ. وادينغتون: «The Nature of Life». لندن، Allen & Unwin، ١٩٦١.

(٣) ميرسيا إلياد: «Yogu: Immortalityand Freedoms». نيويورك، Pantheon، ١٩٥٨، ص ٣٢٠.

الشامانية محفّز إجتماعي

اختلف واسون مع ميرسيا إلياد في اقتراحه أن الدين بدأ يتكون عندما صادف الإنسان الأول القلويات المثيرة للهلوسة. إلياد رأى في ما سماه شامانية «المخدّر» حالة منحطّة، وقال إنه إذا كان الأفراد عاجزين عن بلوغ النشوة من دون مخدرات، تكون حضارتهم عندئذٍ من حالة انحطاط. إن استخدامه كلمة «مخدّر»، التي تعنى العقاقير المخدرة غالباً، لوصف هذا الشكل من الشامانية يكشف عن تقصيره في معرفة علمي النبات والعقاقير. رأي واسون، الذي أوافقه عليه، معاكس تماماً: وجود المادة المهلوسة يدل على أن الشامانية أصيلة وحية؛ مرحلة الانحطاط المتأخرة في الشامانية تتصف بالطقوس المعقّدة، ومحاكمات التعذيب والاتكال على شخصيات مريضة. حيث تتواجد هذه الظواهر تكون الشامانية بدأت تسلك الدرب لتصبح مجرد «دين»[(٤)].

والشامانية في الأصل ليست مجرد دين، إنها الصلة الدينامية التي تربط الإنسان بكلية الحياة على هذا الكوكب. إذا كانت المواد المهلوسة، كما بيّنا سابقاً، تعمل في البيئة الطبيعية كجزيئيات تحمل رسائل، فيرمونات خارجية، فإن العلاقة بين الحيوان الرئيس والنبات المثير للهلوسة تدل على انتقال المعلومات من جنس لآخر. فضائل الفطر تعود إلى تدجين الإنسان الأول للماشية فتوسعت البيئة الملائمة لانتشار الفطر. حيث لا تتواجد هذه النباتات يكون التطور الحضاري بطيئاً للغاية، أو لا يحدث تطور أصلاً، لكننا رأينا أنه بوجود هذه النباتات تتعرض الجماعة باستمرار لحالات متجددة دوماً معرفياً وشعورياً وسلوكياً وهكذا تتحرك إلى حالات أعلى من الوعي الذاتي. الشامان هم طليعة هذا التقدم الخلاّق.

إلى أي مدى استطاعت خواص النبات المحفزة للوعي لعب دور في ظهور الثقافة والدين؟ ما كان إثر هذا السلوك الجماعي، وتعزيز اللغة والتفكير إضافة لإدخال إنسان العصر الحجري في النظام الطبيعي؟ أعتقد أن المركبات الطبيعية المخدرة لعبت دور عوامل ملطّفة عدّلت وهذّبت القيم الأنانية للصياد المنعزل باهتمامات أنثوية تتعلّق بتربية الأطفال واستمرارية بقاء الجماعة. إن التعرّض لتجربة التخدير لفترة طويلة ومرات متكرّرة، والإحساس «بالآخر الكليّ» والفصل بينه وبين العالم الأرضي بفعل النشوة الطقوسية، تأتى عنهما بشكل مباشر إذابة ذلك الجزء من النفس الذي نسميه نحن المحدثون «الأنا». والأنا في بداية تشكلها تشبه تورماً كلسياً أو حاجزاً يمنع تدفق طاقة النفس. استخدام النباتات المخدرة في مستهل التلقين الشاماني أذاب كما يذيب

(٤) ر. غوردن واسون: «The Wondrous Mushroom: Mycolatry in Mesoamerica». نيويورك، Mc Graw-Hill، ١٩٨٠، ص ٢٢٥.

اليوم البنية المعقّدة للأنا في بوتقة إحساس لا يعرف التفاضل، ما يسميه الفلاسفة الشرقيون «التاو». إن ذوبان الهوية الفردية في التاو هو هدف الفكر الشرقي ويعتبر تقليدياً مفتاح الصحة النفسية والتوازن بالنسبة للجماعة والفرد. كي نحدد معضلتنا بشكل صحيح يجب أن نبدأ بتحديد تأثير فقدان التاو، وفقدان الصلة الجماعية بالأرض، على البشرية عموماً.

التوحيد

نحن في الغرب ورثنا مفهوماً مختلفاً جداً عن العالم. فقدان الصلة بالتاو جعل التطور السيكولوجي للحضارة الغربية مختلفاً عنه في الشرق. عرف الغرب تركيزاً مستمراً على الأنا وعلى إله الأنا ـ المثال الأوحد. التوحيد يظهر ما هو في الأساس نموذج لشخصية باثولوجية ـ تنعكس في مثال الإله: نموذج «أنا» الذكر المصاب بجنون الاضطهاد وحب التملك وهوس النفوذ. ومن الملفت أيضاً أن المثال الغربي للعبادة ليس له صلة بالمرأة في أية مرحلة من الرواية اللاهوتية. في بابل القديمة كان آنو مرتبطاً برفيقته إينانا؛ والديانة الإغريقية أعطت زوس زوجة وعدة رفيقات وبنات: هذه الازدواجية معروفة في الديانات عموماً. فقط إله الحضارة الغربية ليس له أم أو أخت أو رفيقة أو بنت.

حافظت الهندوسية والبوذية على تقاليد وسائل النشوة التي تشتمل على «أعشاب مليئة بالنور» كما ورد في «Yogic Sutras of Patanjali»، وطقوس هاتين الديانتين العظيمتين تحيط الأنثوي وتعبر عن تقديرها له، من المؤسف أن الحضارة الغربية تعاني من انقطاع طويل وثابت في العلاقة التكافلية الاجتماعية مع الأنثوي ومع ألغاز الحياة العضوية التي يمكن كشفها من خلال الاستخدام الشاماني للنباتات المهلوسة.

الدين الحديث في الغرب مجموعة من الأنماط الاجتماعية، أو مجموعة من الهموم تتمحور حول بنية أخلاقية معينة وإحساس بالالتزام. نادراً ما يتحول الدين الحديث إلى تجربة تضع «الأنا» جانباً. منذ الستينات انتشرت ديانات شعبية ترتكز إلى النشوة والرقص، وهي رد حتمي وصحي على الشكل المتحضر الذي أخره التعبير الديني في الحضارة الغربية والنمو التكنولوجي. صلة الروك أند رول بالمخدرات صلة شامانية؛ النشوة والرقص والتخدر، أنماط بدائية للطقوس الدينية وللاحتفالات.

إنتصار القيم الغربية يعني أننا، كجنس، نهيم في حالة اضطراب عصبي مطوّلة بسبب فقدان الصلة باللاوعي، واستعادة هذه الصلة عبر استخدام النباتات المهلوسة يعيد التأكيد على ارتباطنا الأصلي بالكوكب الحيّ. بُعدنا عن الطبيعة واللاوعي بدأ يتجذر فينا منذ حوالي ألفي سنة خلال فترة الانتقال من عصر بان الإله الأكبر إلى بداية النفور من الأساطير الوثنية وظهور

المسيحية. هذا التغيير السيكولوجي ترك الحضارة الأوروبية تواجه ألفي سنة من التعصب الديني والاضطهاد والحرب والمادية والعقلانية.

إن ما شهدته الأزمنة الحديثة من نمو هائل في مجال التصنيع وتوسع نطاق النفوذ السياسي اللذين ترافقا مع تحطيم الصلات التكافلية مع النباتات والتي كانت تربطنا بالطبيعة منذ بداية الخليقة؛ انعكس على الأفراد من خلال الاحساس بالخوف والذنب والوحدة. وهكذا ولد الإنسان الوجودي.

كان الخوف من الوجود المشيحة التي رافقت ولادة المسيحية ديانة الهيمنة الكلية للأنا الذكرية المطلقة. إن التخلّي عن طقوس النباتات المنبهة التي تذيب الإحساس بالأنا، سمح لما كان منذ البداية أسلوباً فردياً سيء التكيف، بأن يتحول ويصبح النمط الذي يهتدي به المجتمع بأسره. من داخل سياق نمو قيم السيطرة ورواية التاريخ من منطلق النفوذ والهيمنة نحتاج أن نلتفت إلى الطريقة البدائية طريقة نباتات التهيؤات والإلهة.

باثولوجية التوحيد

إن سعي النفس للوصول إلى التوحّد الكلي، وهو سعي غريزي إلى حدّ ما، يصبح مرضياً على الرغم من ذلك إذا كان يتم في إطار استحالة تذويب الحدود وإعادة اكتشاف أصل الوجود. صار التوحيد تجسيداً لنموذج الهيمنة، النموذج الأبولوني للنفس بكونها مكتملة في تعبيرها الذكوري. ونتيجة لهذا النموذج المرضي، جُرّد الشعور والعالم الطبيعي من قيمتها وقوتها، واستُبدلا بانجذاب نرجسي للمجرد وما هو وراء الطبيعة. ولقد أثبت هذا الموقف أنه سيف ذو حدّين بإعطائه العلم قوة التفسير وقابليته للإفقار الأخلاقي.

أظهرت حضارة السيطرة قدرة مميزة في إعادة تأهيل نفسها لمواجهة مستويات متغيرة من التطور التكنولوجي والوعي الجماعي. يبقى التوحيد في كافة مظاهر القوة الأكثر عناداً في مقاومة رؤية أولية العالم الطبيعي. يستجيب التوحيد بإصرار الحاجة لعودة إلى نمط حضاري يرى دورياً إلى الأنا وقيمها في إطار اللجوء إلى اللغز البدائي لنشوة التخدر النباتي والإحساس بالكلية، إلى ما له صلة بالأمومة كما يسميه جويس: «الرحم الأكثر غموضاً».

الجنس عند البدائيين

لا نريد بذلك القول أن حياة الرحّل الرعويين كانت خالية من القلق. لا شك أن البدائيين الذين تناولوا الفطر عرفوا الغيرة والرغبة بالتملّك، حتى لو كان ذلك في إطار ما تبقى من التنظيم الهرمي للأشكال الاجتماعية التي عرفها أشباه الإنسان. إن مراقبة الإنسان الحديث ـ في ممارسته للعبة السيطرة وفي ظل تواجد البنية الهرمية المفروضة عليه بالقوة ـ توحي بأن مجتمعات

أشباه الإنسان التي سبقت معرفة الفطر ربما كانت بالفعل ذات توجه استبدادي. وهكذا قد لا نكون عرفنا سوى فترة قصيرة من التخلّي عن النمط الاستبدادي ـ فترة موجزة في السعي للوصول إلى توازن دينامي فعلي وواعٍ مع الطبيعة؛ لكنها ما لبثت أن انهارت تحت وطأة عجلات المعالجة التاريخية. منذ تخلينا عن صلتنا بالفطر في جنة عدن الأفريقية، صرنا باستمرار نزداد بهيمية في التعامل مع بعضنا البعض.

كان التوجه المنفتح واللاتملكي في النظر إلى العلاقة الجنسية أساسي في نمط المشاركة. وهذا التوجه ترافق وتكرّس في إطار الطقوس العربية التي كانت بالتأكيد تشكل جزءاً من ديانة نبتة الفطر الألهة الأفريقية. ساهم النشاط الجنسي الجماعي داخل القبيلة الصغيرة للصيادين وجامعي الغذاء، وكذلك التعاطي الجماعي للمواد المهلوسة، في تذويب الحدود والفروقات بين الناس وتعزيز الممارسة الجنسية المنفتحة والحرة التي تعدّ صفة طبيعية من صفات الحياة القبلية الترحلية. (هذا لا يعني أن طقوس تعاطي الفطر الحالية تتصف بالعربدة، على الرغم من أن فئة صغيرة من الناس تودّ تصديق ذلك).

الفانغ والإيبوجين

طقوس البويتي في غرب أفريقيا، التي أشرنا إليها في الفصل الثالث، تشكل نموذجاً يوضح أن استخدام النبات الذي يحتوي الأندول المثير للهلوسة لا يؤدي فقط إلى النشوة الملهمة بل أيضاً إلى ما يسميه المجربون «الانفتاح القلبي». هذه الميزة، الإحساس الودي بالآخرين، يقال إنها كانت منطلق التضامن الداخلي في مجتمع الفانغ الذي قاوم الطموحات التجارية والحملات الإرسالية للنيل من أصالته:

> لم يشعر الويبتيون أو الفانغ بأنهم يستطيعون استئصال الخطيئة أو الشر من العالم. هذا العجز يعني أن البشر يجب أن يحتفلوا. الخير والشر يتآلفان معاً؛ وكما كان الغانغ يقولون دائماً للإرساليين: «كل واحد منا عنده قلبان، قلب خيّر وقلب شرير». عندما واجه الإرساليون الأوائل هذا الواقع بشروا الناس بالوعد المسيحي «بقلب واحد». كثيرون اعتبروا أحادية المسيحية فيها تضييق لعالمهم الداخلي. أحادية الشعور التي يحتفل بها البويتي أحادية تأتت من تدفق العديد من الخواص من حالة لأخرى. إنها الخير الذي يتحقق في وجود الشر، والسمو الذي يتحقق في وجود الأدنى. إنها خاصة ناشئة تتعزّز بوجود نقيضها(٥).

من المفارقة أن الإيبوجين، الأندول المثير للهلوسة المسؤول عن النشاط العقاقيري لنبتة البويتي

(٥) للرد على موقف إيلياد أنظر أيضاً ر. غوردن واسون في كتاب: «Soma: Divine Mushroom of Immortality». نيويورك، Harcourt Brace Jovanovich، ١٩٧١، ص ٣٢٦ ـ ٣٣٤.

(تابرنانت إيبوغا)، يُعتبر عموماً العنصر الذي يحافظ على تماسك الحياة الزوجية في مواجهة مؤسسات الفانج كالطلاق السهل، ومثير للشهوة الجنسية في الوقت نفسه. ربما يكون المكون النباتي الوحيد، بين العديد من المكونات التي تعتبر مثيرة للشهوة، الذي يعمل بالفعل كما يقال عنه[٦]. معظم المكونات الأخرى هي في الواقع مجرد مواد محفزة تستطيع إحداث إثارة وانتصاب.

الإيبوجين بالفعل قادر على تغيير وتعميق وتفعيل الآلية السيكولوجية التي تؤدي إلى الانطلاقة الجنسية. يغمر المرء إحساس بالإنعتاق والتورط يزيده قوة. لكن الإيبوجين لا يسبب السلوك الجنسي أو حتى يزيد من احتمال حدوثه إذا كان الموقف لا يجيز هذا السلوك أو يجده مناسباً. في مثل هذه الحالات يعمل الإيبوجين بطريقة مماثلة للأياهواسكا، كمادة مهلوسة تذيب الحدود بين الذين يتناولونها. وهنا يكمن نموذج آخر يستحق البحث ولا ينتظر سوى تغير المواقف الاجتماعية كي يُسهّل الخوض فيه.

هذه النباتات القوية التي تغيّر علاقتنا بوعينا الجنسي وبنظرتنا لأنفسنا وللعالم، كانت الدنيا الخاصة لشعوب تعودنا أن نصفها بالبدائية. هذا دليل آخر على المدى الذي توصلت إليه مواقف الهيمنة المغروسة في لا وعينا في حرماننا من المشاركة في عالم الأيروس والروح، الأوسع والأخصب.

إن مجتمعات الهيمنة التي حلّت محل مجتمعات المشاركة كانت أقل حماساً لقمع النشاطات الجنسية الجماعية منها لقمع ديانة الفطر المثير للهلوسة. ممارسة النشاط الجنسي داخل الجماعة بدون إذابة الأنا المسيطرة يساعد الذكور المهووسين بالأنا بتملك القوة والارتفاع في السلم الهرمي للمجتمع. إن السيطرة على الآخرين تعني السيطرة الجنسية أيضاً، وهذا يفسّر استمرار الطقوس العربيدة والنشاطات الجنسية الجماعية في العديد من الأديان السرية وفي احتفالات ديونيسوس إله الخمر وأعياد الإله ساتورن وفي ممارسات وثنية وذلك بعد وقت طويل من توقف قلب العالم الوثني. وفيما بعد تفوق قلق تكريس خطوط واضحة للأصل الذكوري على كل الاعتبارات الأخرى. ثم تمكنت الأنا أخيراً من حيازة الهيمنة المطلقة. أثناء سعي المسيحية الدؤوب للقضاء على الهرطقة، كانت الطقوس العربدية تدان بوصفها نشاطات هدامة تذيب الحدود، وهذا كان دورها.

---

(٦) جايمز و. فيرنانديز: «Buiti: An Ethnography of the Religious Imagination in Africa». برينسترن، Princeton University Press، ١٩٨٢، ص ٣١١.

تناقضات في السياسة الجنسية

عند إجراء مقارنة بين مجتمع السيطرة الذي يرتكز إلى الأنا، ومجتمع المشاركة المرن والمتحرر من القيود السيكولوجية تظهر عدة تناقضات مهمة. في مجتمع المشاركة تتقلص كثيراً موقف الرجال التملكي من النساء الذين يشكل نقطة مركزية في مجتمع السيطرة. كما تتقلص أيضاً حيل النساء لتطلب الالتزام الطويل بعقد الارتباط الزوجي بهدف الإحساس بالأمان والتحلي بمكانة اجتماعية مريحة. تنظيم الأسرة بدوره ليس متصلباً أو هرمياً. ينشأ الأطفال في عائلة موسّعة من أولاد العم والأخوة والأعمام والعمات وسائر الأقارب والشركاء السابقين والحاليين في العلاقة الجنسية مع الوالدين. في مثل هذا الجو يحاط الولد بعلاقات مختلفة ومجموعة متنوعة من الأدوار. قيم الجماعة ليست في الغالب مختلفة عن قيم الفرد أو قيم الشريك أو الأولاد. التجربة الجنسية عند المراهق أمر متوقع ويشجعه الجميع. قد يرتبط زوجان لأسباب عديدة تتعلق بشخصيهما وبالجماعة أيضاً؟ وقد يستمر الارتباط مدى الحياة ـ لكن هذا ليس شرطاً ضرورياً. هذه المجتمعات لم تكن تحرّم الممارسة الجنسية ولم تعرف ذلك إلاّ نتيجة احتكاكها بقيم المجتمعات المسيطرة.

في المجتمع المسيطر يميل الرجل لاختيار شريكة تكون شابة وتتمتع بصحة جيدة تخوّلها إنجاب عدد من الأطفال. والمرأة تسعى للارتباط برجل أكبر منها سناً يكون مسيطراً على موارد جماعية متنوعة (الطعام، الأرض، أو نساء أخريات) وبذلك يستطيع أن يكفل أن قيمة المرأة لن تهبط عندما تكبر في السن وتتجاوز سنوات الإنجاب. أما في مجتمع المشاركة المثالي فإن الرجال الكبار في السن قد تكون لهم علاقات جنسية مع نساء صغيرات، لكن ذلك لا يهدد الروابط التي جمعتهم بنساء أكبر سناً؛ والنساء على أية حال لسن ملزمات لطلب الأمان في ظل حماية الرجال.

ساد هذا الوضع لأن السلطة لم تكن حكراً على الرجال الكبار والأقوياء، بل كانت بالأحرى موزعة بين الرجال والنساء وكل فئات السن داخل الجماعة. كانت القوة المطلقة في هذه المجتمعات قوة خلق الحياة والمحافظة عليها ولذلك اتخذت بشكل طبيعي صورة الأنثى ـ إنها قوة الإلهة العظيمة.

جين بايكر ميلر أشارت إلى أن ما يسمى بالحاجة إلى السيطرة على الآخرين يُعدّ من الناحية السيكولوجية فعلاً للإحساس باللاسلطة وليس فعلاً للإحساس بالسلطة. وعند التمييز بين «السيطرة على الذات والسيطرة على الآخرين» قالت: «كلما كان تطور الفرد أعلى وأكثر

فاعلية تقلّ عنده الحاجة لوضع حدود للآخرين أو لقمعهم»[7].

مجتمعات المشاركة لا تستبدل ببساطة سلطة الأبوة بسلطة الأمومة؛ مثل هذا الشرح يكون محدوداً ومرتبطاً بالجنس فقط. الفارق الحقيقي هنا هو بين مجتمع تأسس على المشاركة وتوزيع الأدوار بشكل يتناسب مع العمر والحجم ومستوى المهارة، ومجتمع يحافظ على هرمية مسيطرة على حساب وجود الأفراد واستخدامهم الاجتماعي داخل المجموعة. في حالة المشاركة أدى فقدان مفاهيم الملكية وعدوى الأنا إلى التقليل من أهمية الغيرة والرغبة بالتملك.

إن الموقف العدائي إجمالاً من التعبير الجنسي في مجتمع يمكن ردّه إلى خوف الأنا المسيطرة عند تواجدها في أي موقف تذوب فيه الحدود مع الآخرين، حتى في المواقف الأكثر عفوية وإثارة للمتعة. إن وصف الفرنسيين للنشوة الجنسية بأنها «موت خفيف» يجسّد تماماً حالة الخوف والدهشة التي تثيرها النشوة التي تذيب الحدود في حضارة السيطرة.

(٧) كريستيان راتش وكلوديا مولّر - إيلينغ في: «Isoldens Liebestrank Aphrodisiaka in Geschichte Und Gegenwart». ميونيخ، Kindler Verlag، ١٩٨٦.

(٨) جان بايكر ميلر: «Toward New Psychology of Women». بوسطن، Beacon Press، ١٩٨٦.

٦ . سهول جنة عدن العلوية

آنجي، وأختها، ومجموعة أخرى من قريباتهما، تجمعن عند باب المعبد. الغطاء المصنوع من جلد البقر الذي يوضع عادة لحجب ما في الداخل أزيل. إنه عيد الخصب الذي يحتفل فيه بنعم الإلهة العظيمة. النساء الكبيرات في السن مشطن شعورهن بالزيت وغطين صدورهن وأفخاذهن بلون الرماد الاحتفالي: الرمادي ـ الأزرق، وكن راكعات يغنين حول تمثال الإلهة البهيج المحاط بجبال الزهور. بدت رائعة وهي مضطجعة على نفير وتتكدّس من حولها الأزهار وقرابين الصنوبر. وقفت الفتيات الصغيرات يراقبن المشهد الذي انعكس عليه الوميض الخفاق للمصابيح التي أحيط بها التمثال، ولم ينتابهن أدنى إحساس بأن الماثل أمامهما هو الإلهة نفسها، وقد أُعطيت صورة المرأة الحامل، وليس تمثالاً خشبياً غلّف بالسَّبج البركاني الأسود الذي اشتهرت به المدينة وفرك مرة تلو الأخرى بالأصباغ والدهون حتى اكتسب لمعان الجلد الأبنوسي العميق كسائر أهل المدينة.

في فسحة صغيرة عند أسفل التمثال وقفت ثلاث من الشامان من الرتبة الأعلى والأكثر سرية، وكن يرقصن ببطء وهن يرتدين أثواباً لها شكل النسور تمازجت ظلالها مع نسور مشابهة مرسومة على الجدران المبيّضة. عند نهاية الرقصة، أحضرت أوعية خشبية ملونة من كوة في الحائط ونزعت عنها أغطيتها من النسيج المصبوغ. كل النساء اللواتي حضرن الاحتفال، بما في ذلك الفتيات الصغيرات اللواتي وقفن يتجسسن عند الباب، عرفن أن الأوعية تحتوي على الفطر، تحتوي على «ذات الأسماء المتعدّدة». ووزع القربان المقدس على النساء. نادراً ما كانت النساء الكبيرات يسمحن للفتيات بمشاهدة طقوس الاحتفال «بأم الحصاد» ـ إنها علامة على أن الفتيات صرن بالفعل أكثر اقتراباً من سن النضوج. كل واحدة منهن تعرف أنها بعد بضع سنوات سوف تأخذ مكانها كمبتدئة في الطقوس التي كانت تشاهدها دون أن تفهمها. آنجي

كانت في الثامنة وأختها سلينغا في السادسة، ومع ذلك كانتا تعرفان أن أياً من رجال المدينة لم يسبق له أن رأى ما تريانه. الرجال لهم ألغازهم أيضاً، إنها مختلفة لكنها سرية أيضاً ولا أحد يتحدث عنها.

مرتفعات الأحجار

تقع هذه المرتفعات في الصحراء الكبرى في جنوب الجزائر وهي ذات تكوين جيولوجي ملفت يشبه المتاهة؛ إنها منطقة شاسعة ووعرة من الأجرف الحجرية التي جزأتها الرياح إلى العديد من الممرات العامودية الضيّقة. عند الإطلاع على الصور الفوتوغرافية المأخوذة من الجو لهذه المنطقة ينتابنا إحساس غريب بوجود مدنية مهجورة (الرسم ٢).

وجدت في مرتفعات الأحجار رسومات على الصخور تقود إلى فترة متأخرة من العصر الحجري الحديث، إلى حوالي ألفي سنة تقريباً. إنها الرسومات الأولى التي يظهر فيها الشامان مع أعداد كبيرة من المواشي. الشامان يرقصون ويحملون الفطر في أيديهم، وهو أيضاً ينبت على أجسامهم. (الرسم ٣). إنهم في إحدى الرسومات يركضون مرحين تحيط بهم الأشكال الهندسية لهلوساتهم (الرسم ٤)[1].هذا الدليل المرسوم لا يقبل الجدل.

كان النسيج البيروفي القديم يحمل أيضاً رسومات مماثلة. على هذه الأقمشة يبدو الشامان وهم يحملون أشياء في أيديهم قد تكون نبات الفطر وقد تكون أيضاً أدوات للقطع. لكن رسومات مرتفعات الأحجار واضحة جداً خاصة في موقعي متالين أمازار وتينتزاريفت حيث يبدو الشامان يرقصون والفطر في أيديهم وينبت على أجسامهم.

المجموعة المترحلة التي تركت رسومات مرتفعات الأحجار غادرت أفريقيا تباعاً على امتداد فترة طويلة من الزمن، ما بين حوالي ألف سنة وسبعة آلاف سنة. حافظت هذه المجموعات على طريقة عيشها الرعوي حيثما ذهبت[2]. كان البحر الأحمر محوطاً بالأرض خلال معظم هذه الفترة. إن المستويات المنخفضة للبحر تدل على أن الطرف الجنوبي لشبه الجزيرة العربية كان

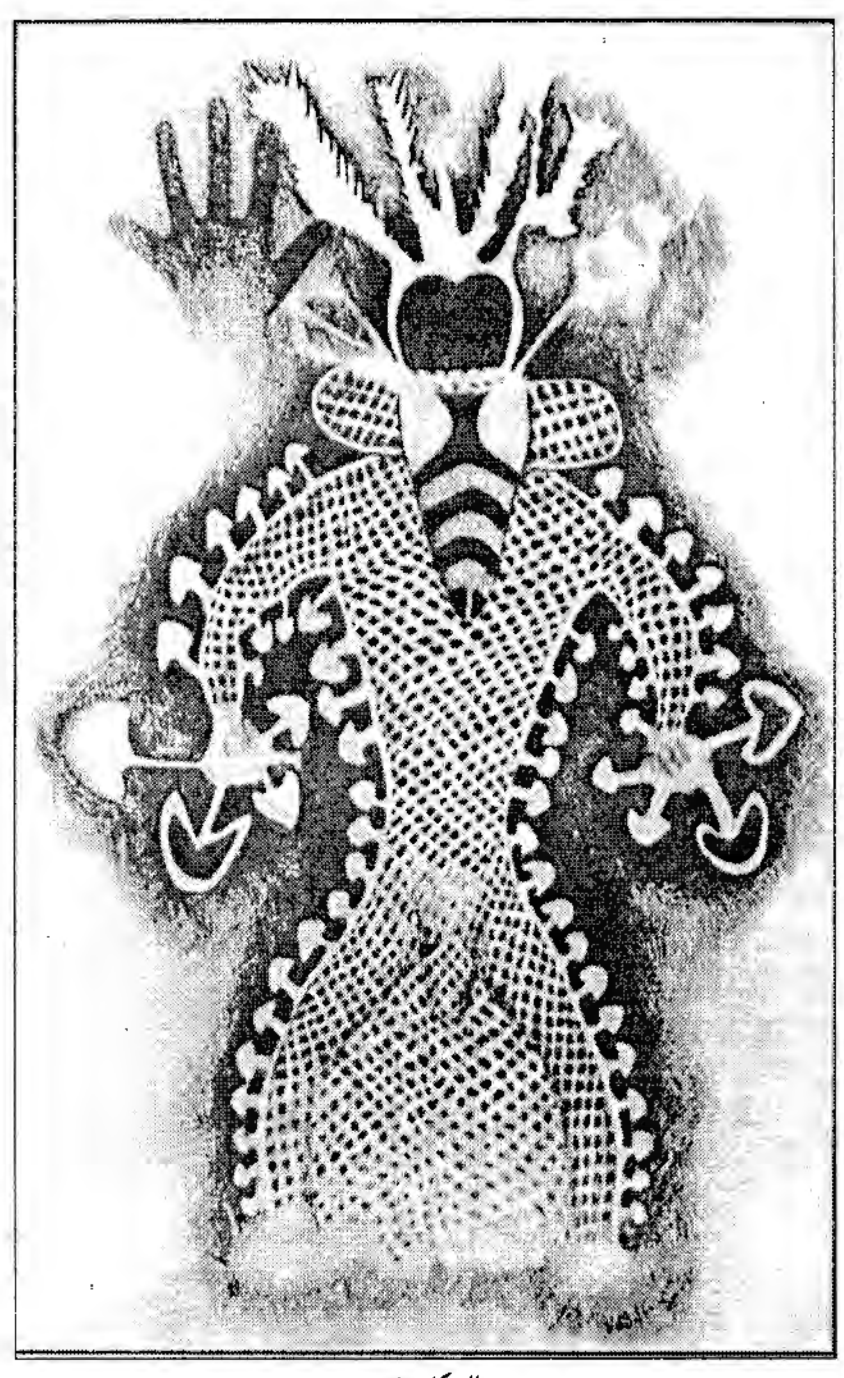
(١) هذا الربط بين فن مرتفعات الأحجار والفطر لفت انتباهي له جيف غايتز، وهو باحث من الفطور عند الشعوب القديمة ومؤرخ للفن يعيش في بولدر كولورادو. انتبه غايتز لما تكشفه صور المرتفعات من دور الفطر في حياة البشر ما قبل التاريخ. وقد عرفت مؤخراً أن مجموعة من الباحثين تشاركني الرأي في استخدام حضارة الرأس المدوّر في مرتفعات الأحجار للفطر. باحث إيطالي يدعى جورجيو ساموريني لفت الانتباه إلى وجود أشكال للفطر في الرسومات على صخور المرتفعات وافترض أن هذه المنطقة عرفت مادة الفطر. أنظر ج. ساموريني ١٩٨٩، ص ١٨ ـ ٢٢، (أنظر البيبليوغرافيا). أنظر أيضاً بحث روجر لوين: «Stone Age Psychedelia». في مجلة New Scientist، عدد ٨، حزيران/يونيو ١٩٩١، ص ٣٠ ـ ٣٤.

(٢) ليونيل بلوط: «Algérie Préhistorique». باريس، Arts et Métiers Graphiques، ١٩٥٨.



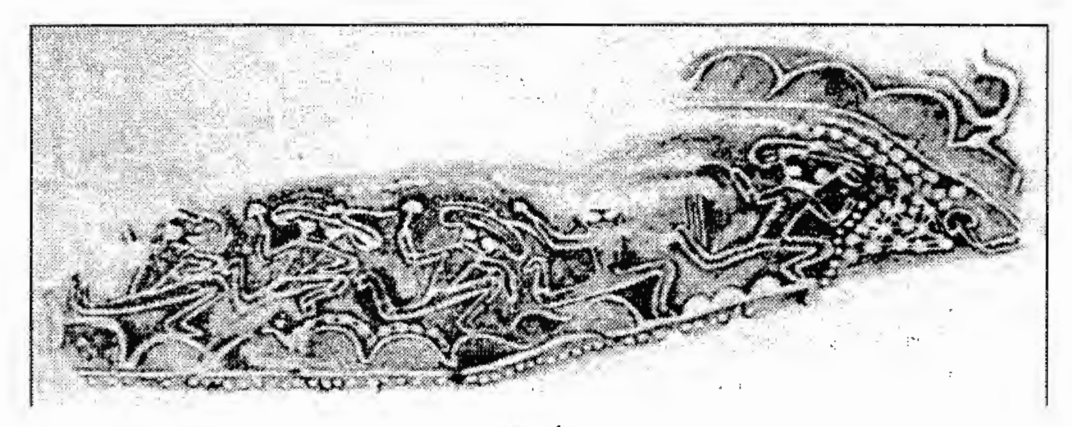
الشكل (٢)

صـورة من الفضاء لمنطقة مرتفعات الأحجار. من كتاب: «The Search for the Tassili Frescos» لهنري لوت (نيويورك: E.P. Dutton، ١٩٥٩)، رسم ٧١، ص ١٨٤ ـ ١٨٥).



الشكل (٣)

شامان له وجه نحلة وجسم فطر من مرتفعات الأحجار. رسم نقلته كات هاريسون ماكّينا ويضمه كتاب: أ.ت. أوس وأ.ت. أوريك: «Psilocybin: The Magic Mushroom Grower's Guide» (١٩٨٦، ص ٧١). وذلك عن الأصل الموجود في كتاب جان دومينيك لاجو: «The Rock Paintings of the Tassili». (نيويورك: World Publishing، ١٩٦٣، ص ١٧).



الشكل (٤)

راكضون يحملون الفطر، من رسومات مرتفعات الأحجار. هذا الرسم نقله كانت هاريسون ماكّينا وهو موجود في كتاب أ.ت. أوس وأ.ن. أوريك: «Psilocybin: The Magic Mushroom Growers's Guide». (١٩٨٦، ص ٦). وذلك عن الأصل الذي يتضمنه كتاب جان ـ دومينيك لاجو: «The Rock Paintings of the Tassili». (١٩٦٣، ص ٧٢ ـ ٧٣).

يستند إلى القارة الإفريقية. ساعدت الجسور الأرضية، التي كانت تصل بين ضفتي البحر الأحمر في أماكن متعدّدة، بعض هؤلاء الرعاة الإفريقيين على الوصول إلى الهلال الخصيب وآسيا الصغرى، حيث اختلطوا بجماعات من الصيادين وجامعي المؤن كانت تقيم هناك. إنتشرت الرعوية في الشرق القريب منذ حوالي اثني عشر ألف سنة. مجموعات الرعاة حملت معها عبادة الماشية وعبادة الإلهة في الرسومات التي اكتشفت في مرتفعات الأحجار والتي تعود إلى ما سماه الباحثون فترة الرؤوس المدوّرة. هذه التسمية تعود إلى الشكل الذي أعطي للإنسان في تلك الرسومات. وهذا الأسلوب المميز في رسم الإنسان لم يعثر عليه في أي موقع أثري آخر.

حضارة الرأس المدوّر

فترة الرأس المدوّر بدأت على الأرجح منذ فترة قديمة جداً وانتهت قبل الألف السابع ق.م.هنري لوت يعتقد أن هذه الفترة استمرت بضعة آلاف من السنين، وأن بدايتها كانت في حوالي مستهل الألف التاسع. وليس هناك شك في أن الإلهة العظيمة كانت جزءاً من عالم إنسان تلك الفترة الذي جسّدته الرسومات. في أحد مواقع مرتفعات الأحجار (إنا ونرهات) تظهر إحدى الرسومات صورة رائعة لامرأة ترقص (رسم ٥). تفرد المرأة ذراعيها، وهناك قرنان يمتدان من طرفي رأسها، وهي تجسّد صورة الإلهة العظيمة ذات القرنين. مكتشفوا هذه الصورة رأوا أن لها علاقة بالإلهة المصرية إيزيس، إلهة زراعة الحبوب.

هذا الشكل المؤثر يسلّط الضوء على واحدة من المشكلات العديدة التي أثارتها اكتشافات مرتفعات الأحجار. لماذا تدل معظم الرسومات التي اكتشفت في فترة الرأس المدوّر على تأثير



الشكل (٥)

رسم من رحلة متأخرة من حضارة الرأس المدوّر، وتبدو صورة رائعة لإلهة ذات قرنين وهي ترقص. من كتاب: «The Search for the Tassili Frescoes» لهنري لوت، (١٩٥٩، لوحة ٣٥، مقابل ص ٨٨).

مصري واضح في المضمون والأسلوب. في حين يؤكد فيه الباحثون أن وادي النيل كان شبه مهجور في هذه الفترة؟ والردّ المنطقي يكون أن هذه الرسومات التي نربطها بمصر القديمة حملها إلى مصر سكان الصحراء الغربية. هذا الاقتراح يعني أن مصدر الحضارة العظيمة التي عرفتها مصر كان في الصحراء الوسطى.

العثور على الجنّة؟

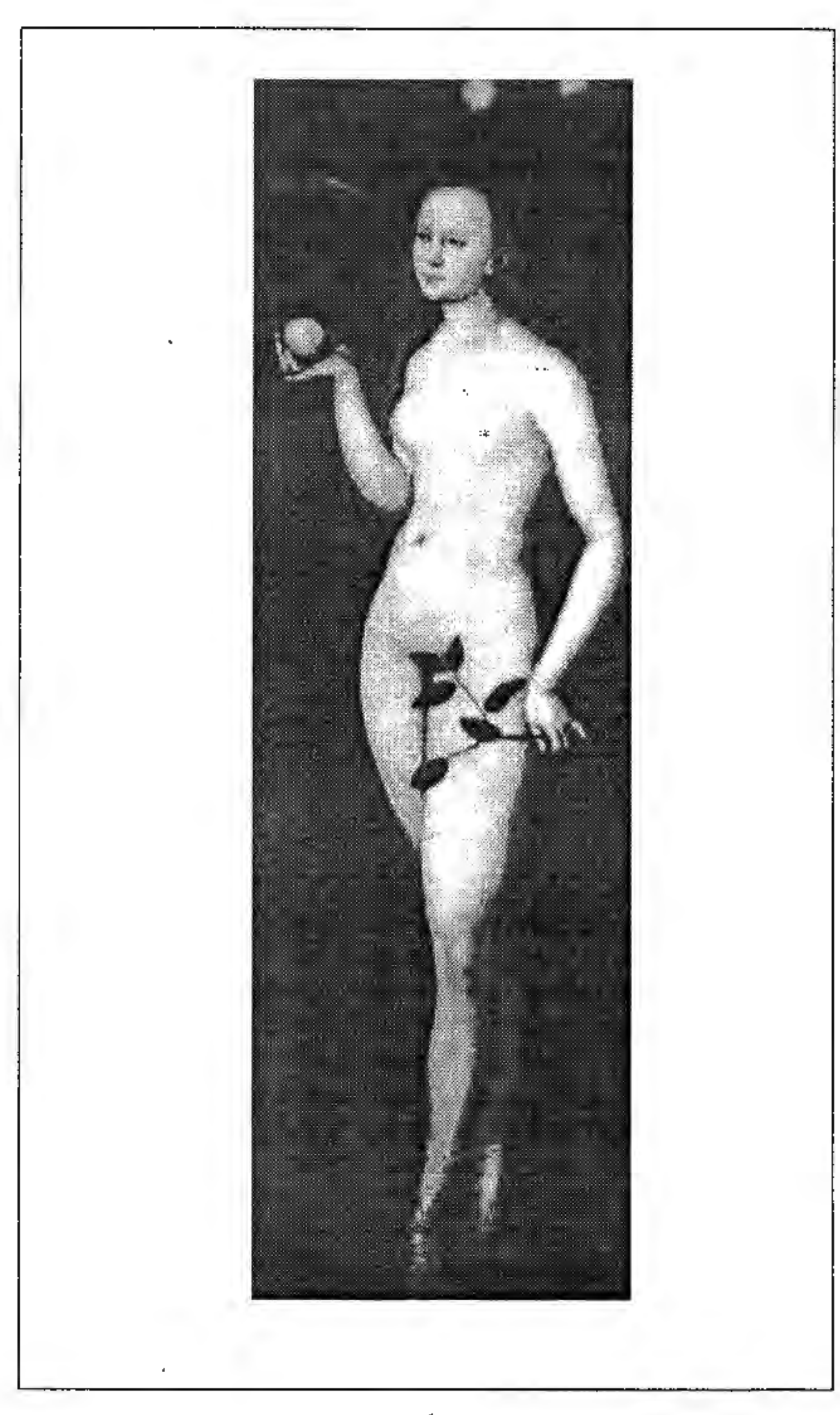
ربما كان مجتمع مرتفعات الأحجار منذ اثنتي عشرة ألف سنة مجتمع المشاركة المثالية الذي ترك ضياعه أثراً عميقاً ومستمراً في كافة المعتقدات الميثولوجية ـ الحنين إلى الجنة، إلى عصر ذهبي ضائع كان عصر الوفرة والمشاركة والتوازن الاجتماعي. لم تظهر اللغة ومجتمع المشاركة والأفكار الدينية المعقّدة في منطقة بعيدة عن تلك التي شهدت ظهور البشر الأوائل ـ الأراضي المعشوشبة الاستوائية وشبه الاستوائية في أفريقيا حيث تنمو الفطريات. هناك نشأ مجتمع المشاركة وازدهر؛ وحضارة الصيد والجمع أفسحت المجال تدريجياً لتدجين الحيوانات والنباتات. في هذه البيئة عرف الإنسان الفطريات التي تحتوي البسيلوسبين وتناولها وألّهها. وفي الزوايا المظلمة لعقل الإنسان الأول بدأت تتكون ملامح اللغة والشعر والدين. جنة عدن لم تكن أسطورة ـ بالنسبة لسكان مرتفعات الأحجار ما قبل التاريخ، تلك الجنة هي وطنهم.

نهاية قصة أولئك السكان قد تكون بداية قصتنا نحن. هل هي مجرد صدفة أننا نقرأ في سفر التكوين تفسيراً لبداية التاريخ يقول:

> الاصحاح الثالث ـ ٦ ـ «فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل وأنها بهجة للعيون وأن الشجرة شهية للنظر. فأخذت من ثمرها وأكلت وأعطت رجلها أيضاً معها فأكل. فانفتحت أعيُنهما وعلما أنهما عريانان فخاطا أوراق تين وصنعا لأنفسهما مآزر».

> الاصحاح الثالث ـ ٢٢ ـ «وقال الربّ الإله هوذا الإنسان قد صار كواحد منّا عارفاً الخير والشرّ. والآن لعلّه يمدّ يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضاً ويأكل ويحيا إلى الأبد. فأخرجه الإله من جنة عدن ليعمل الأرض التي أُخِذ منها. فطرد الإنسان وأقام شرقيّ جنّة عدن الكروبيم ولهيب سيف متقلّب لحراسة طريق شجرة الحياة».

سفر التكوين يروي قصة امرأة هي سيدة النباتات السحرية (رسم ٦). إنها تأكل وتطعم من ثمار شجرة الحياة أو شجرة المعرفة «وأنها بهجة للعيون وأن الشجرة شهية للنظر». وننتبه إلى «فانفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانان». أيّ تكون لدى كل واحد منهما إحساسه بنفسه وإحساسه بالآخر. ثمرة شجرة المعرفة أعطتهما نفاذ البصيرة وقد تكون عززت لديهما أيضاً شهوتهما الحسية. ومهما يكن الأمر فإن القصة تحكي عن مجتمع تهيمن عليه الإلهة، مجتمع مشاركة فقد استقراره خلال فترات متعاقبة من الجفاف الذي قضى على خصوبة جنة الرعاة.



الشكل (٦)
رسم حواء للفنان لوكاس كراناش. (١٩٢٠)

والملاك الذي يرفع سيف اللهيب المتقلب ويحرس طريق العودة إلى الجنة يبدو أنه يرمز إلى قسوة ووحشية شمس الصحراء والقحط الذي رافقها.

تكشف هذه القصة عن حالة التوتر الذي تصور علاقة الرجل بالمرأة، وهذا دليل على أنها دوّنت في زمن كان فيه المجتمع آخذاً في التحوّل من حضارة المشاركة إلى حضارة التسلّط. المرأة أكلت من ثمرة شجرة المعرفة؛ هذه الثمرة السرية هي فطر ستروفاريا كوبنسوس الذي يحتوي على البسيلوسبين والذي ساهم في تعزيز مجتمع المشاركة المثالي وأدى إلى تكريس دين جعل الأولوية لإذابة الفروقات الشخصية في عالم لا حضور فيه إلاّ للإلهة العظيمة، التي سميت أيضاً: غايا، جيو، جي، أي الأرض.

في مناقشة للرسومات التي اكتشفت في أوروبا وتعود إلى حقبة متأخرة من العصر الحجري، يقدم جون فايفر عدة ملاحظات هامة. يعتقد فايفر أن وجود الرسومات داخل المغاور في أماكن يصعب الوصول إليها عادة سببه أن هذه المواقع كانت تستخدم لطقوس التأهيل الذي تشتمل على مؤثرات مسرحية معقّدة. ويقول أيضاً أن ما يسميه حالة «التفكير المخدّر» هي شرط مسبق لتكشف الحقائق المحجوبة. حالة التفكير المخدّر تتصف بفقدان الحقيقة الموضوعية والتحريف المؤقت وبميلها إلى الهلوسة المعتدلة، وليست أكثر من وميض من حالة يقظة التخدير اللاّمحدودة والتي تذوب فيها الأنا:

«حالة التفكير المخدّر التي تؤهل المرء للتجربة، كانت لها أهميتها التطويرية. هذه الحالة قد تصبح حالة مرضية فتؤدي إلى الخبل والتشوش الذهني والاستغراق في الهلوسة والتهيؤات. لكنها في الوقت نفسه تشكل القوة الدافعة لرؤية الأشياء متكاملة، والتوصّل إلى مختلف التراكيب من نظريات الحقول الموحّدة في الفيزياء إلى مخططات المجتمعات الفاضلة التي سيعيش فيها الناس حقاً في سلام. هذه الحالة لعبت دوراً هاماً في حثّ عملية الاصطفاء الطبيعي في العصور القديمة. عندما ازدادت الضغوطات في الفترة المتأخرة من العصر الحجري وتطلّب الإيمان الصادق وطاعة القادة لأجل المحافظة على البقاء، كان الأفراد الذين يتمتعون بهذه الصفات، والمؤهلين للتوصل إلى حالة الغشية، سيتفوقون في إنجاب مَنْ هم أكثر قدرة على المقاومة»[٣].

يتجنب فايفر الحديث عن النباتات المخدّرة وعن الدور الذي ربما لعبته في إحداث حالة التفكير المخدّر، ويحدّ بحثه في نطاق أوروبا. لكن الرسومات المكتشفة في مرتفعات الأحجار شبيهة برسومات العديد من المواقع الأثرية في أوروبا، ولذلك نستطيع أن نفترض أنها كانت

(٣) جون إ. فايفر: «The Creative Explosion: An Inquiry into the Origins of Art and Religion». إيتاكا، نيويورك، Cornell University Press، ١٩٨٢، ص ٢١٣.

تستخدم لأغراض متماثلة؛ كان سكان أوروبا الجنوبية وأفريقيا الشمالية يمارسون شعائر دينية متشابهة على الأرجح.

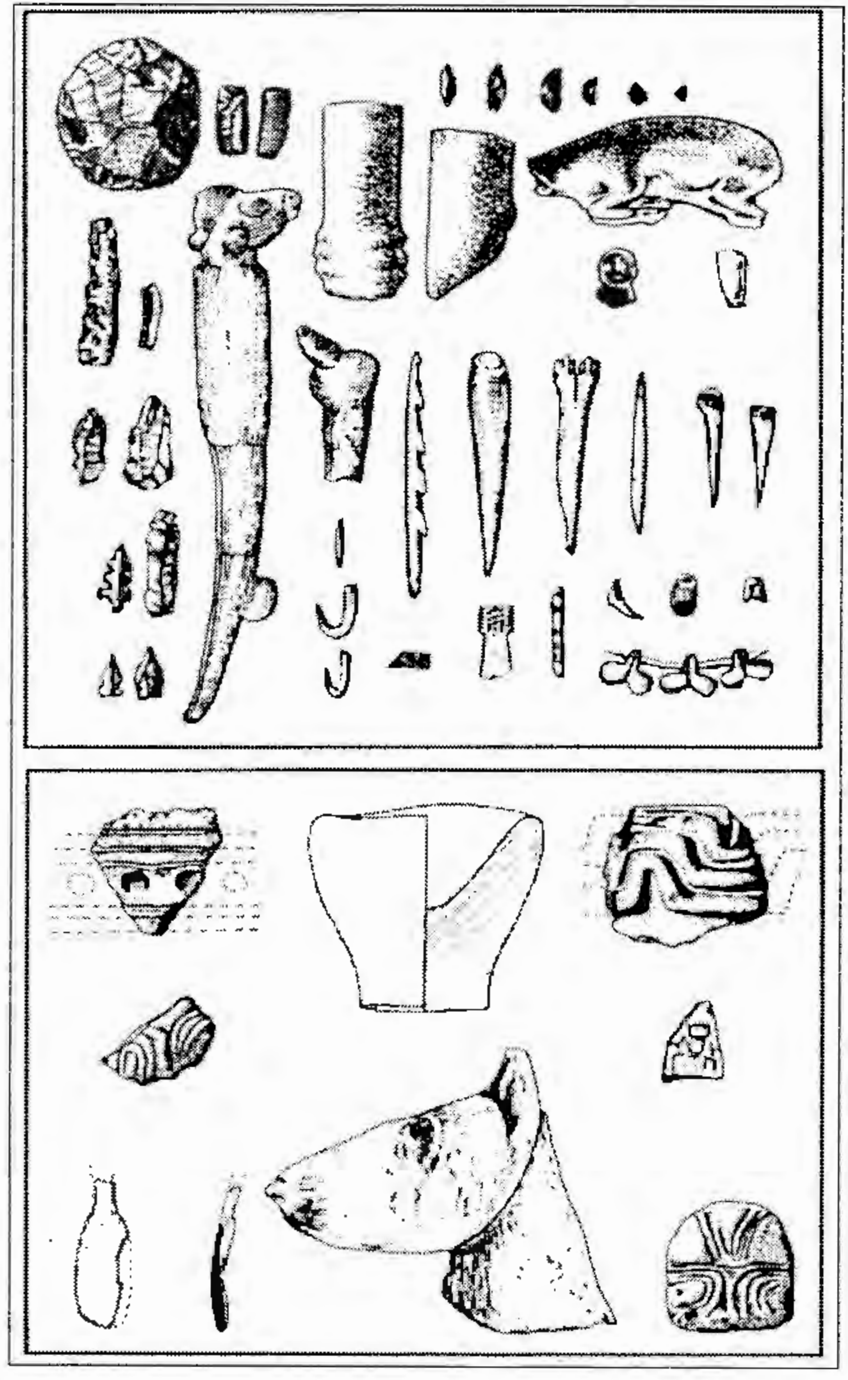
تراجع الأنهار الجليدية على الأرض الأوروبية الآسيوية، وتزايد حدّة الجفاف في الفترة نفسها في الأراضي المعشوشبة في أفريقيا، أدّيا إلى الطرد من الجنة الذي عبّر عنه التكوين بأسلوب رمزي. سكان مرتفعات الأحجار الذين عرفوا الفطر بدأوا يتحركون إلى الشرق من عدن. هذه الهجرة يمكن إثباتها بواسطة الأبحاث الآثارية.

حضارة الحلقة الضائعة

في أواسط الألف العاشر ق.م. تحولت فلسطين التي كانت بالكاد مأهولة إلى موقع شهد ظهوراً مفاجئاً لحضارة متطورة ترافقت مع زيادة كبيرة من حجم المستوطنات وفي مستوى الفنون والحرف والتقنيات المختلفة، بشكل لم يسبق له مثيل في الشرق القريب أو في أي مكان آخر على الأرض. تلك كانت الحضارة Natufian التي عرفت الصوان القادح ونحتت العظام باتقان لم تعرفه الآثار التي اكتشفت في أوروبا. جايمز ميلارت كتب حول هذا الأمر يقول: «عرفت الفترة الأولى من هذه الحضارة حباً للفن كان أحياناً طبيعياً وفي أحيان أخرى أكثر خضوعاً للتخطيط. التمثال الكلسي الصغير المنحني من مغارة أم الزويتية، أو قبضة المنجل من الواد والمحفورة على شكل ظبي، يعتبران نموذجان رائعان من الفن الطبيعي يشبهان ما عرفته فرنسا في فترة متأخرة من العصر الحجري»[٤] (أنظر رسم ٧).

على الرغم من الافتراض الذي يسود الدراسات الآثارية الأكاديمية في أوروبا بأن مثل هذه الحضارة كانت بالتأكيد ذات صلة بالمستوطنات في أوروبا القديمة، تبين من الهياكل العظمية التي عثر عليها في جرش حيث وصلت هذه الحضارة إلى ذروتها بأن السكان كانوا من أصل أفريقي - أوروبي يتصفون بالقوة والجماجم التي تميل إلى الطول. والآثار الخزفية تميل أيضاً إلى إثبات الأصل الأفريقي: إذ وجدت في المواقع الأثرية أوان خزفية مصقولة مصبوغة بلون واحد عُرف في الأوانية السودانية الصحراوية. وجدت أوان من هذا النوع قرب الحدود المصرية السودانية في موقع يشير إلى وجود مواشٍ مدجنة. ووجدت أيضاً في مرتفعات الأحجار وفي مناطق قريبة منها، وعرفت بالتأكيد في مرحلة الرأس المدوّر. ماري سيتغاست اعتبرت أن «أصل هذه الخزفيات الأفريقية مجهول. والحفريات الحديثة في تين تورها في الصحراء الليبية أدت إلى

(٤) جايمز ميلارت: «Earliest Civilizations of the Near East». نيويورك، Mc Graw Hill، ١٩٦٥، ص ٢٩.



الشكل (٧)

من حضارة فلسطين القديمة. من كتاب: «Earliest Civilizations of thr Near East» لجايمز ميلارت. (لندن: Thames & Hudson، ١٩٥٦).

اكتشاف خزفيات من النوع السوداني الصحرواي بمعدل كاربون ١٤ تعود إلى ٧١٠٠ سنة ق.م، وإذا ثبتت صحة هذا التاريخ فإنه يدل على تفوق السكان في المنطقة الغربية»[٥].

هذا يؤيد الفكرة القائلة بأن غرب النيل عرف حضارة متطورة كانت مصدر حضارة جديدة ظهرت في وادي النيل وفلسطين.

والملفت في هذا السياق هو اهتمام الحضارة Natufian وعنايتها بالنباتات:

عند البحث في العلاقة مع البيئة والأنماط السلوكية ما بين الألف العاشر والألف الثامن ق.م. يتبين أن أسلوب عيش الإنسان لم يكن يختلف بشكل ملحوظ عما عرفه التقليد المحلي في فترة متأخرة في العصر الحجري. لكن التأكيد على أهمية النباتات في الفترة Natufian أدى إلى تخزين الفائض وهذا بدوره ترك بصماته على أنماط السلوك. معظم أشكال الحضارة Natufian المادية (أسلوب البناء وأحجار الشحذ) وأسلوب الاستقرار تأثرت بالإستثمار الكثيف للموارد النباتية»[٦].

التكوين الأفريقي

إذا كان مصدر الخزفيات القديمة في المواقع الفلسطينية هو شمال أفريقيا، فإن هذا يعزّز الاعتقاد بأن مصدر الحضارة الفلسطينية القديمة كان جنة المشاركة التي ازدهرت في المناطق الغربية الرطبة في الصحراء الكبرى، خصوصاً في مرتفعات الأحجار. قد يستطيع علم الآثار تقديم إجابات توضيحية قريباً، لكن حتى هذا اليوم لم تُجر أية دراسات آثارية تحاول الخوض في هذه التساؤلات. لم يلتفت الباحثون بشكل جدي إلى الصحراء الكبرى بوصفها مصدراً محتملاً للحضارة المتطورة التي عرفتها فلسطين في منتصف الألف العاشر ق.م. نتائج هذا التقصير تنعكس في تعليقات الباحثين على النحو التالي:

«لكن ما يثير الحيرة هو أن سياق التطور الحضاري في تلك المنطقة لا يفسر التحوّل الكبير الذي عرفته المراحل الأولى في الحضارة Natufian. لم تكن الصناعة ذات أهمية ـ والحضارة التي سادت كانت غير ملفتة وليس بينها وبين التي تلتها قواسم مشتركة بارزة. حضارة Natufian تظهر في الواقع نامية وناضجة وبدون جذور تربطها بالماضي»[٧].

الـ Natufian الأوائل استقروا في فلسطين في الكهوف وفي الفسحات أمام الكهوف، وفي أوضاع مشابهة تماماً زيّن الإنسان كهوف مرتفعات الأحجار بالرسومات. قد يؤدي المزيد من

(٥) ماري سيتغاست: «Plato Prehistorian». كامبريدج، Rotenberg Press، ١٩٨٧، ص ١٥٤.

(٦) دايفيد أوين هنري: «The Natufian of Palestine: Its Material Culture and Ecology». آن آربورد، University Microfilms، ١٩٧٣، قسم ٥.

(٧) د.أ. إ. غارود: «The Natufian Culture: The Life and Economy of a Mesolithic People in the Near East». «Proceedings of the British Academy 43»، ١٩٥٧، ص ٢١١ ـ ٢٢٧.

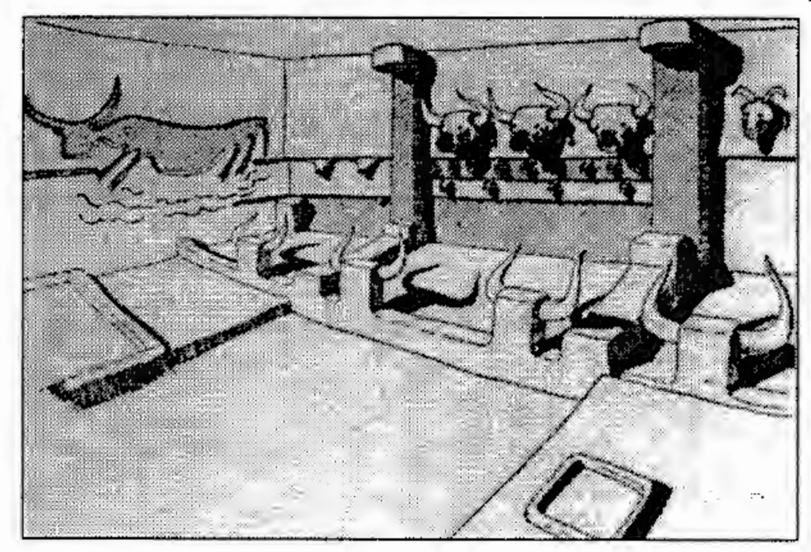
البحث في حضارة الرأس المدوّر في المرتفعات إلى اكتشاف الخيوط التي تربطها بالحضارة التي عرفتها فلسطين القديمة.

ساتال هويوك

إذا كانت مرتفعات الأحجار تعتبر الموقع الغربي لحضارة المشاركة وجنة عدن الأصيلة، فإن ساتال هويوك في وسط الأناضول تعتبر بالتأكيد بالنسبة لها المرادف الشرقي الذي يعود إلى العصر الحجري الحديث.

ساتال هويوك مدينة بلغت من الثراء والرفاهية ما يجعلها تكشف عن توهج سابق لأوانه. من دراسة تراصف الطبقات الجيولوجية يتبين أن تاريخ الموقع يعود إلى أواسط الألف التاسع ق.م. ويصل التوسع الحضاري إلى ذروته في المستوى السادس، في أواسط الألف السابع ق.م. ساتال هويوك كانت مستوطنة كبيرة، تمتد على اثنين وثلاثين أكراً في سهل كونيا، وضمت في قمة مجدها أكثر من سبعة آلاف نسمة.

على الرغم من أن عمليات التنقيب لم تبدأ منذ فترة طويلة لكنها كشفت عن مقامات زينت جدرانها بنقوش ضئيلة البروز ورؤوس ثيران الأرخص المنقرضة اليوم (Bos Primigenius) مغطاة بأشكال مرسومة باللون الأصفر ـ رسومات تدل على حضارة معقّدة (رسم ٨). التنوع الموجود في ساتال هويوك أثار حيرة علماء الآثار:



الشكل (٨)

مقام بين في ساتال هويوك. من كتاب: «Catal Hüyük: A Neolithic Town in Anatolia» لجايمز ميلارت (سان فرنسيسكو: Mc Grow-Hill Book co.، ١٩٦٧، رسم ٤١، ص ١٢٨).

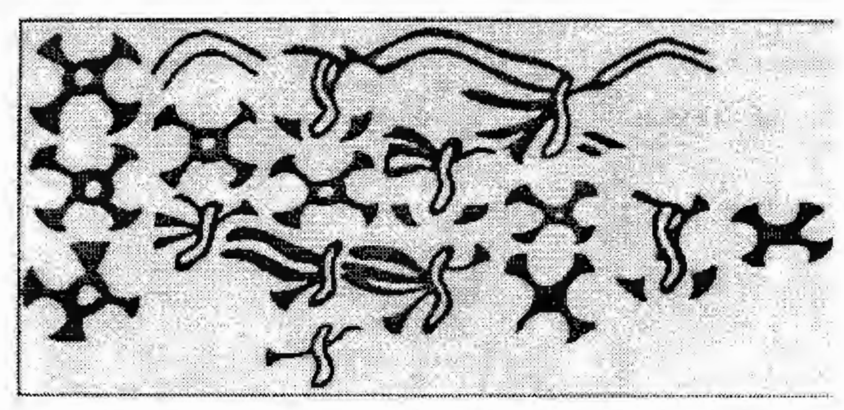
«لم يتجاوز التنقيب نسبة ثلاثة في المئة من الموقع ومع ذلك فإن ما رأيناه من غنى الفن الديني والرمزي يبدو سابقاً لأوانه بثلاثة أو أربعة آلاف سنة. إن مستوى النضوج في التقاليد التي عرفها هذا الموقع في العصر الحجري الحديث تفترض كما يقول المنقبون وجود حضارة تمهيدية أكثر قدماً لكننا لا نعرف شيئاً عنها»[٨].

هذه الحضارة برأيي هي حضارة مرتفعات الأحجار. كانت حضارة فلسطين القديمة مرحلة انتقالية ربطت حضارة الرأس المدوّر في أفريقيا بساتال هويوك.

من هذا المنطلق سوف نلقي نظرة على علاقات بعض الدارسين. يقول ميلاّرت عن الزراعة في ساتال:

«كل شيء يدل على أن مزروعات ساتال هويوك لها امتدادها في مكان ما كانت فيه تلك المزروعات تنمو في برية أرض كثيرة التلال بعيدة عن البيئة التي روّضها الإنسان في سهل كونيا... يجب البحث عن البدايات في فلسطين القديمة ومرتفعات الأناضول (تركيا) وفي خوزستان (الأبعد إلى الشرق)»[٩].

وهذا ما يقوله ميلاّرت عن الحضارة المادية في ساتال. (رسم ٩).



الشكل (٩)

رسم على جدار لحشرات وأزهار، بأسلوب الطبيعيين. من كتاب: «Catal Hüyük: A Neolithic Town in Anatolic». (١٩٦٧، رسم ٤٦، ص ١٦٣).

حافظت ساتال هويوك على عدد من التقاليد في إطار مجتمع متقدم عكس الحضارات الأخرى المعاصرة لها في العصر الحجري الحديث، فن الرسم الجداري، والنقش على الصلصال أوعلى الجدران المكسوّة بالجصّ، الرسم التمثيلي الطبيعي للحيوانات والبشر والآلهة، اللجوء

---

(٨) سيتغاست، غير مطبوع، ص ٢.

(٩) ميلارت: «Catal Hüyük: A Neolithic Town in Anatolia». نيويورك، Mc Graw Hill، ١٩٦٧، ص ٢٢١ ـ ٢٢٢.

أحياناً إلى حفر أشكال على الصلصال بواسطة الأصابع تشبه «المكرونة»، الاستخدام المتطور للنقوش الهندسية التي تتضمن الأشكال اللولبية والتعرّجات وكانت تنحت على الأقفال أو تنقل إلى حياكة النسيج؛ تمثيل الحيوانات الجريحة في حملات الصيد، ومراسم دفن الموتى في رسومات ملوّنة بمزيج من الأحمر والأصفر؛ وتم العثور أيضاً على تمائم قديمة حفرت على شكل إلهة تشبه الطائر، والعديد من الأدوات الحجرية وبدا هناك ميل لاستخدام الأصداف في الحلي؛ وكل هذا بقايا موروثة من فترة تاريخية أكثر قدماً؛ ويمكن ربطه بنسب متفاوتة بعدد من الحضارات التي تعود إلى بدايات العصر الحجري، كالتي عرفتها فلسطين؛ لكن تجدر الإشارة هنا إلى أن هذه الملامح الحضارية لا تبدو بهذا الوضوح في أي مكان آخر كما تبدو في ساتال هويوك[١٠].

ستيتغاست كتب حول الجدران المرسومة في مقامات ساتال هويوك وذكر ما يلي:

عدد المواد الملونة التي استخدمها فنانو ساتال هويوك ليس له مثيل في الشرق القريب (لكننا سنجد ما يوازيه أو حتى يتفوق عليه في فن حضارة الرأس المدوّر في الصحراء الكبرى)... وهناك نمط ثالث من التزيين لجأ فيه الفنانون لنحت أشكال الحيوانات في تكتلات الجصّ على الجدران، وهذا النمط من الاستخدام للسطوح الداخلية يبدو ملفتاً، ويعتقد ميلاّرت [المنقّب] أنه ربما يكون منقولاً عن تقنيات فن الرسم عن الصخور[١١].

إن الأسلوب الطبيعي الأنيق الذي تعكسه الآثار الفنية في ساتال هويوك هو صدى لرسومات المواشي الجميلة والحساسة التي تميزت بها الاكتشافات الفنية في مرتفعات الأحجار (أنظر على سبيل المثال رسم ١٠). ويقول ميلاّرت عن تمثيل الحيوانات في العصر الحجري القديم:

> وجدنا بقايا طفيفة للأسلوب الطبيعي في حضارة فلسطين القديمة، لكنها كانت أكثر بروزاً في الرسومات الجدارية والنقوش الجصيّة في موقع ساتال هويوك والتي تعود إلى العصر الحجري الحديث. هناك استمر هذا الفن الطبيعي حتى أواسط القرن الثامن والخمسين قبل الميلاد؛ لكنه لم يعد موجوداً فيما بعد في موقعي هاسيلار أو كان هاسان اللذين عثر عليهما في المنطقة نفسها[١٢].

ما هو سبب تراجع الروحية الطبيعية في الفن البدائي والذي رافق التحول من الصيد والجمع إلى الزراعة؟ صحيح أن غياب الفطر الملهم والدقة البصرية التي يحدثها لا يمكن يكون السبب

---

(١٠) المصدر نفسه، ص ٢٢٦.

(١١) ستيغاست، غير مطبوع، ص ١٦٦ ـ ١٦٧.

(١٢) ميلاّرت، «Earliest Civilizations»، ص ٧٩.



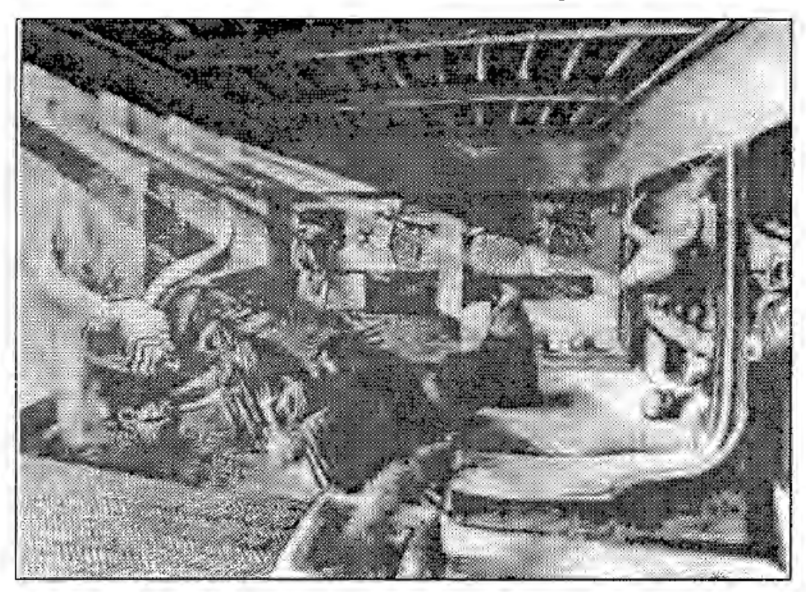
الشكل (١٠)

تصوير طبيعي جميل للماشية يتميز به فن مرتفعات الأحجار. هذا النموذج وجد في جبارين.
من كتاب جان دوميك لاجو: «The Rock Paintings of the Tassili».

الوحيد، لكنه أدى بالتأكيد إلى استنزاف حيوية الرؤية. الرعاة الذين عبدوا الإلهة كانوا يرون الطبيعة بتعمق أكثر، وأسلوبهم الطبيعي ترك التمثيل الرمزي الخفي وفضّل عليه الواقع المرئي، في شكله الأكثر نقاءً في الغالب.

أكثر الأشكال شيوعاً في ساتال هويوك الماشية والثيران، وتليها النسور والنمور ـ وكلها حيوانات في الأراضي الأفريقية المعشوشبة (رسم ١١). عن النسور يقول سيتغاست:

إذا كان شكل النسور عرف في فن ساتال هويوك في المستوى الثامن في إطار الأسلوب الذي ساد قبل ظهور السلالات الحاكمة وتجسد في الخناجر الصوّانية والخزفيات الذي ربما تكون ذات صلة بالنمط السوداني الصحراوي، كما بيّنت التنقيبات الأثرية حتى اليوم، لا يمكننا أن نرفض احتمال أن يكون التعبير الرمزي عن النسور في الأناضول له أصول أفريقية(١٣).



الشكل (١١)

إعادة تمثيل لطقس النسر الذي تتكر فيه الكاهنات بزي النسور. من المستوى السابع في ساتال هويوك: حوالي ٦١٥٠ ق.م. وهو يستند إلى كشاف رسومات جدارية لنسور وجماجم وجدت في سلال تحت كل رأس ثور كبير على الجدارين الغربي والشرقي. من كتاب: «Earliest Civilizations of the Near East» لجايمز ميلارت. (١٩٦٥، رسم ٨٦، ص ١٠١).

إن الاستنتاج القائل بأن الشعوب والمؤسسات الحضارية التي استمرت لفترة طويلة في أفريقيا، نزحت وازدهرت لفترة من الزمن في البيئة الشرقية القريبة، استنتاج منطقي ويصعب رفضه. ويقول ميلاّرت الذي حيّره أمر حضارة ساتال هويوك التي لم تترك تأثيراً بارزاً في

(١٣) سيتغاست، غير مطبوع، ص ١٨٠.

الحضارات التي تلتها في المنطقة: «في حضارات العصر الحجري الحديث في الأناضول ظهرت الزراعة وتربية المواشي في مراحلهما الأولى وكذلك ديانة الإلهة الأم، وتلك تشكل أساس حضارتنا»[١٤]. وتجدر الإشارة هنا إلى أن عدداً كبيراً من الناس لا يزال يرفض حتى اليوم هذا الأساس.

ريان إيسلر التي بحثت في البعدين السيكولوجي والآلي للمحافظة عن التوازن الحضاري في مجتمع المشاركة، يفترض بأسلوب مقنع أن النمط الأخير الذي ظهر، أي مجتمع السيطرة، ساد مع الهنديين ـ الأوروبيين ـ حضارات عرفت ركوب الحصان واستخدام العربة المزودة بالدواليب والتي أتت من البلاد الباردة شمالي البحر الأسود. حول نزوح هذا الشعب الذي أثار الجدل كتبت ماريجا جيمبوتاس تقول:

تعبير أوروبا القديمة نطلقه على حضارة عرفتها أوروبا قبل المرحلة الهندية ـ الأوروبية، وهي حضارة أمية المركز وعلى الأرجح أمية الامتداد، زراعية، مستقرة، مسالمة، تطبق المساواة. وهي تتناقض بحدة مع الحضارة ذات الأصل الهندي ـ الأوروبي والتي كانت تتصف بأنها أبوية تؤمن بالتقسيم الطبقي الاجتماعي، وهي رعوية متحركة وذات نزوع حربي، وقد فرضت نفسها على أوروبا بأسرها ما عدا الأطراف الغربية والجنوبية، وذلك خلال ثلاث موجات كبيرة نزحت فيها من السهب الرومية ما بين ٤٥٠٠ و٢٥٠٠ ق.م. خلال هذه الفترة، وبعدها، كانت عبادة الأنثى أو بالتحديد عبادة الإلهة الخالقة بتجلياتها المختلفة، تستبدل عموماً بديانة الذكر المسيطر عند الهنديين ـ الأوروبيين. والذي عرف بعد سنة ٢٥٠٠ ق.م. كان مزيجاً من النمطين الأسطوريين، الأوروبي القديم والهندي الأوروبي[١٥].

هذا يعني باختصار أن الحضارة المستقرة ذات الامتداد الأمي في أوروبا القديمة زعزعتها الموجات المتتالية من الغزاة الهنديين ـ الأوروبيين الذين لهم حضارتهم ولغتهم.

عالم الآثار في جامعة كامبريدج كولين رنفرو قدّم تفسيراً مختلفاً لكيفية انتشار اللغة الهندية ـ الأوروبية. يقول رنفرو إن ساتال هويوك هي نقطة انطلاق اللغة الهندية ـ الأوروبية والمنطقة التي عرفت على الأرجح بداية الزراعة[١٦]. ولكي يدعم آراءه غير التقليدية يستشهد رنفرو بالإكتشافات اللغوية التي توصل إليها فلاديسلاف م. إيليتش ـ زفيتش وآرون دولغوبولسكي، والتي تشير أيضاً إلى الأناضول بوصفها مهد اللغات الهندية ـ الأوروبية. تلميذ دولغو بولسكي

(١٤) ميلاّرت: «Earliest Civilizations»، ص ٧٧.

(١٥) ماريجا غيمبوتاس: «The Goddesses and Gods of Old Europe». بيركلي، University of California Press، ١٩٨٢.

(١٦) كولين رنفرو: «Archaeology and Language: The Puzzle of Indo-European Origins». لندن، Canbridge University Press، ١٩٨٨، ص ١٧١.

سيرجي ستاروستين يعتقد أنه قبل سبعة آلاف سنة اقتبس الهنديون ـ الأوروبيون عدداً كبيراً من المفردات من لغة شمال القوقاز من منطقة الأناضول. والتاريخه الذي يقترحه لهذه العملية يوافق استنتاجنا بأن الشعب الهندي ـ الأوروبي لم يكن هو الذي شيّد ساتال هويوك بل نزح إليها بعد فترة متأخرة(١٧).

لويجي كافالي سفورزا وألان س. ويلسون توصلا أيضاً في بيركلي إلى اكتشافات وراثية جديدة تؤكد هذا الاستنتاج. قام هذان العالمان بتحليل عينات من دم السكان وحاولا تتبع جذورهم الوراثية. وتوصلا مؤخراً إلى وجود صلة قرابة وراثية بين الناطقين باللغتين الأفريقية ـ الآسيوية والهندية ـ الأوروبية. كما أن أبحاثهما تؤيد وجهة النظر القائلة بأن جماعات لها جذور لغوية أفريقية كانت تعيش في مرتفعات الأناضول قبل فترة طويلة من ظهور الشعب الهندي ـ الأوروبي.

تراث ساتال هويوك طُمس بالتحديد بسبب ما له من صلة بالإلهة الأم. ديانة التخدير وطقوس العربدة التي آمنت بالإلهة الأم جعلت حضارة ساتال محرمة بنظر نمط التسلط والحرب والتسلسل الهرمي. هذا النمط الحضاري وصل فجأة وبدون إنذار؛ تدجين الحصان واكتشاف الدولاب أتاح للقبائل الهندية ـ الأوروبية التحرك إلى الجنوب من جبال زاغروس للمرة الأولى. نمط التسلط اعتلى حصان السلب والنهب ووصل إلى الأناضول ليسحق تحت حوافز حصانه آخر حضارات المشاركة العظيمة التي عرفها البشر. حلّ السلب والنهب محلّ الرعوية، وديانات الشراب المخمّر قضت على الأسلوب المتقدم لاستخدام الفطر؛ وملوك البشر حلّوا محل عبادة الإلهة.

تعبتر الديانة التي عرفتها ساتال هويوك الأكثر تطوراً وتماسكاً في العالم. ليست لدينا معلومات كافية حتى نتبين طبيعة الطقوس التي مارسها أبناء ساتال، لكن عدد المقامات الكبير بالنسبة للعدد الإجمالي للغرف يدل على تمسّك تلك الحضارة بالتأملات الدينية. نعرف اليوم أنه دين حيوانات طوطمية ـ النسر، قط الصيد، والثور أو البقرة في المقدمة دائماً. منطقة الشرق الأوسط عرفت فيما بعد ديانات عبدت الثور لكننا لا نستطيع أن نفترض ذلك بالنسبة لساتال هويوك. إن رؤوس الماشية المنحوتة والتي تطل من جدران المقامات هناك ليس لها جنس محدّد وقد تكون رؤوس ثيران أو أبقار أو أنها رؤوس ماشية عموماً. لكن هيمنة الرمز الأنثوي في المقامات تلفت الانتباه ـ هناك على سبيل المثال أثداء منحوتة في الجصّ وموزعة بطريقة عشوائية

(١٧) فيتالي شيفوروشكين في بحث: «The Mother Tongue». في مجلة The Sciences، عدد أيار/حزيران ١٩٩٠، ص ٢٠ ـ ٢٧.

ـ هذا يحملنا على الافتراض بأن النساء كن القيّمات على الدين. كما أن وجود مقاعد منحنية منحوتة في بعض المقامات يشير إلى أن الممارسات تضمنت على الأرجح معالجة المرض أو القبالة على الطريقة الشامانية.

من المستحيل أن لا نرى في ديانة الإلهة العظيمة والماشية في العصر الحجري الحديث إشارة إلى وجود الفطر الذي يشكل العنصر الثالث الخفي فيما يشبه الثالوث الشاماني. كان الفطر من نتاج الماشية كالحليب، واللحم، والسماد، وكان معروفاً من القدم بأنه الوسيلة المادية للتواصل مع الإلهة. هذا هو السر الذي ضاع حوالي ستة آلاف سنة مع أفول ساتال هويوك.

الفارق الحاسم

إنني متفق إجمالاً مع وجهة نظر إيسلر التي أوردتها في كتابها The Chalice and the Blade، وأريد فقط توسيع نطاق بحثها بطرح السؤال التالي: ما هو العامل الذي حافظ على التوازن في مجتمعات المشاركة التي عرفت في العصر الحجري المتأخر ثم تلاشى وهيأ بذلك الجوّ لظهور نمط التسلط التطور السيء التكيف؟

عند التفكير في هذا الأمر كنت أتمسك بقناعة بأن عمق الصلة بين جماعة بشرية والمعرفة الروحية للآخر المتعالي، كلية الحياة العضرية على الأرض، يحدّد مقدار تعلّق الجماعة بالنموذج البدائي للإلهة وبالتالي لنمط المشاركة السائد في التنظيم الاجتماعي. إنني أستند في عرض افتراضي هذا رأيته لما عند الشامان في الأمازون، وبناء على تجريبي لتأثير النباتات المثيرة للهلوسة على نفسي وعلى آخرين.

توقف الفكر الغربي عن الانتعاش بمعرفة النباتات المهلوسة التي تزيل الحدود قبل نهاية الحقبة المينوية حوالي سنة ٨٥٠ ق.م. بفترة طويلة. في كريت، وفي اليونان القريبة، ظلّ تعاطي النبات بشكل سري يتضاءل تدريجياً إلى أن قرر البرابرة المسيحيون سنة ٢٦٨ بعد الميلاد القضاء نهائياً عن تلك الطقوس الخفية[١٨]. ونتيجة لهذه الصلة المقطوعة نرى اليوم العالم الحديث ـ عالم يموت تحت وطأة التخدير الأخلاقي.

كانت العلامة الفارقة في القرون الماضية القضاء على صفة الأنثوية وعلى معرفة العالم الطبيعي. كنيسة القرون الوسطى التي قادت عمليات إحراق السحرة أرادت أن تنسب كل

(١٨) ر. غوردون واسون، ألبرت هوفمان، كارل روك: «The Road to Eleusis». نيويورك، Harcourt Brace Jovanovich، ١٩٧٨.

مظاهر السحر والفساد إلى الشيطان؛ لذلك عمدت إلى شجب كل معرفة بالنباتات كالداتورة (Datura) وعنب الثعلب السام وعشب قلنسوة الراهب، وشجب الدور الذي تلعبه في النشاطات الليلية لمن كانوا يمارسون السحر. دور هذه النباتات كان أوسع من ذلك، مراهم الطيران والسحر كانت تُعد من جذور الداتورة وبذورها، وهي غنية بالمركبات القلوية التي تحدث الهذيان والتهيؤات. عندما كانت هذه المادة توضع على جسم الساحرة كانت تحملها إلى حالات عميقة من الهلوسة والذهول. هانز بالدينغ (رسم ١٢) في معالجته لهذا الأمر لا يترك مجالاً للشك بالخوف من «الآخر» الذي هيمن على عقلية القرون الوسطى والذي جسّده في رسمه وهو يراقب المرأتين المخدرتين. لكن سجلات محاكم التفتيش الكاثوليكية لا تشير إطلاقاً إلى الدور الأساسي الذي لعبته النباتات. إن الكنيسة لا تهتم لشيطان تضاءل لدرجة أنه يجب أن يعتمد على أعشاب معينة لتنفيذ مآربه. الشيطان يجب أن يكون عدواً لائقاً:

> يجب أن نفترض أن الدور الذي تلعبه النباتات في التجربة السحرية إستخف به أو حتى أهمل كلياً لسبب معين. لولا هذا الردّ كان لا بد من تقديم تفسير «طبيعي» لمثل تلك الظواهر وهذا ما بادر إليه بعض الفيزيائيين والفلاسفة والسحرة أمثال بورتا واير وكاردانوس. لن يترك للشيطان عندئذٍ سوى دور متواضع للغاية أو لا شيء على الإطلاق. إذا كان الشيطان لا يستطيع أكثر من استحضار حالة الشعوذة التي تجعل التهيؤات تتقد في أذهان الساحرات فإنه لن يعود قادراً على القيام بالمهمة الموكلة إليه بوصفه المضلّل والعدو الأكبر للمسيحية(١٩).

العقل النباتي

في ظل المأزق الحضاري الحالي الذي نعيشه أجد أن الخطوة التطويرية التالية يجب أن تشتمل ليس فقط على رفض حضارة التسلط بل على إحياء الماضي البدائي أيضاً وعلى بعث الإحساس مجدداً بالإلهة. يجب العودة إلى العقل النباتي، ذلك العقل الذي حملنا إلى اللغة الواعية يفتح أمامنا اليوم آفاق المخيلة الرحبة. هذه الرؤية لتكامل البشر هي نفسها التي أشار إليها ويليام بلايك في خلال «المخيلة السماوية». لكننا بدون الدور الملهم لفيرمونات التخدير التي تعدّل علاقتنا التكافلية مع مملكة النبات، نصبح بعيدين عن إمكانية استيعاب الغاية الدنيوية. وفهم الغاية الدنيوية قد يكون أهم مساهمة نستطيع تقديمها للعملية التطويرية. إن العودة إلى نمط المشاركة الدنيوية يعني التخلي عن الأنانية والتسلط وتفضيل المعرفة الحدسية والشعورية في إطار القالب الأمي.

---

(١٩) هانز بيتر دوير: «Dreamtime: Concerning the Boundasy between Wildernese and Civilization». أوكسفورد، Bassil Blackwell، ١٩٨٥، ص ٤.



الشكل (١٢)

رسم بعنوان: ساحرات يحضرن مرهماً لهانز بالدنغ: من مجموعة مانسيل.
في مكتبة Fitz Hugh Ludlow (١٥١٤).

إن إعادة النظر في الدور الذي لعبته النباتات والفطريات المثيرة للهلوسة في تعزيز تميز الإنسان، قد تساعدنا اليوم على التوصل إلى تقدير ذلك الحشد الفريد الواسع الانتشار بحضور «الآخر» كإلهة يمكن ردّه إلى فترة استغراق المجتمع في العقل النباتي. هذا الإحساس بالرفيقة الأنثى يفسّر إقحام مفهوم الإلهة الأم حتى في المجالات الأكثر تمسكاً بالأبوية. استمرار عبادة «مريم» في المسيحية مثال على ما نقول وكذلك فكرة بوروشا المقدسة في الهندوسية. روح العالم في الفكر السحري، Anima Mundi، هي وجه آخر لإلهة الدنيا. جميع هذه الصور الأنثوية تعود إلى العقل النباتي. معرفة البشر لتجربة التخدير أنتجت السياق الطقوسي الذي رافق تشكّل الوعي على ضوء الإدراك الذاتي والتفكير الذاتي والتعبير عن الذات ـ وعلى ضوء الغايا، الأرض نفسها.

كلية الأرض

تفكيك قيم حضارة التسلّط يعني تعزيز ما يمكن أن نعتبره إحساساً بكلية الأرض ـ أي الإحساس بوحدة وتوازن الطبيعة، وبموقفنا داخل ذلك التوازن الدينامي المتحرك. إنها وجهة نظر تنطلق من النبات. هذا الرجوع إلى نظرة تضع الذات والأنا في إطار الأكبر لحياة الأرض وتطورها هو أساس الإحياء البدائي. كان مارشال ماك لوهان على حق في رؤية أن الحضارة البشرية الدنيوية، في القرية العالمية، ستكون ذات طابع قَبَليّ. إن الخطوة الكبيرة التالية نحو الكلية الدنيوية تكون بالاندماج الجزئي بين العالم التكنولوجي والنسيج البدائي للذكاء المتجلّي في «الآخر المتعالي».

أتردد في وصف هذا الوعي بأنه دين؛ لكنه كذلك بالتأكيد. وسوف يتضمن الأبعاد التي توحي بها النباتات المثيرة للهلوسة، خصوصاً تلك التي لها صلة بأجهزة الإرسال العصبية الموجودة في دماغ الإنسان. إن التحري المتأني للنباتات يحملنا إلى المستوى الأكثر دقة في عملية ظهور الوعي: علاقة النبات بالبشر، شبه التكافلية، التي اتسم بها المجتمع والدين البدائيين، والتي من خلالها بدأ يظهر لغز القداسة. هذه التجربة ليست أقل غموضاً بالنسبة لنا اليوم، على الرغم من الافتراض السائد بأننا استبدلنا خشية أجدادنا البسيطة بأدوات فلسفية ومعرفية تتميز بقدرتها التحليلية وتعقيدها البالغ. نحن اليوم أمام خيار حضاري في غاية البساطة: العودة إلى الخضار أو الموت.

II

الفردوس الضائع
البحث عن السوما

٧ . لغز الفيدا الذهبي

أزمتنا العالمية اليوم تفوق أية أزمة أخرى عرفها البشر على مرّ التاريخ؛ لذلك نجدها تتطلب حلولاً متطرفة. النبات وتجدّد علاقتنا البدائية به قد يشكلان المثال التنظيمي المناسب للحياة في القرن الواحد والشعرين، تماماً كالكومبيوتر الذي يُعتبر المثال المسيطر على أواخر القرن العشرين.

نحن بأمس الحاجة لأن نعود إلى ماضينا، إلى آخر لحظة سليمة عشناها كجنس بشري، ومن ثم نبدأ بالعمل إنطلاقاً من المعطيات التي كانت متاحة لنا في تلك اللحظة. هذا يعني الرجوع إلى نماذج معيشية كانت ناجحة ما بين عشرين ألف وخمسة عشر ألف سنة. هذا الانتقال سوف يتيح لنا رؤية النباتات على أنها أكثر من مجرد طعام أو مأوى أو ملبس، أو حتى مصادر للتعلّم والعبادة؛ سوف نراها على أنها نماذج للتقدم. إنها على أي حال نماذج للترابط التكافلي وإعادة تفعيل المورد والتحكم به.

إذا سلمنا بأن الإحياء البدائي سيصبح مثالاً يحتذى للتغيير وأننا نستطيع بالفعل إيجاد عالم حريص يسترد أنوثة وحساسية البيئة بالرجوع إلى نماذج معيشية قديمة جداً، يجب أن نعترف عندئذٍ بأننا نحتاج إلى أكثر من الحضّ السياسي. لكي يكون الإحياء البدائي فاعلاً يجب أن يرتكز إلى تجربة تهزّ كل واحد منا حتى أعماقه. وهذه التجربة يجب أن تكون حقيقية ومعمّمة وقابلة للنقاش.

نستطيع البدء بعملية إعادة بناء الفكر هذه بالإعلان عن شرعية الطبيعة التي أنكرناها منذ فترة طويلة. إن فكرة وجود نباتات غير شرعية فكرة بغيضة وسخيفة في الأصل.

الاتصال بالعقل ما وراء الطبيعة

آخر أمل لدينا لتذويب الجدارن العالية للجمود الحضاري الذي يقودنا على ما يبدو نحو الدمار الفعلي، هو تجديد الصلة بالشامانية. بإعادة بناء قنوات الاتصال المباشر «بالآخر»، العقل ما وراء الطبيعة، من خلال استخدام النباتات المثيرة للهلوسة، نحصل على عدسات جديدة نرى بواسطتها بوضوح طريقنا في هذا العالم. عندما كان عالم القرون الوسطى يحتضر بأفكاره، سعى المجتمع الأوروبي العلماني إلى الخلاص بإحياء الدراسات اليونانية والرومانية الكلاسيكية في القانون والفلسفة وعلم الجمال والتنظيم المدني والزراعة. ولأننا اليوم نواجه معضلة أكثر عمقاً فإن هذا يجعلنا نغوص أبعد في الزمن بحثاً عن حلول لها. نحن بحاجة لأن نختبر المخدرات الملهمة التي عرفها البشر في الماضي، والتي تشتمل على عبادة السوما الغريبة المذكورة في النصوص الروحية الهندية الأوروبية الأكثر قدماً.

لن تكتمل رؤيتنا لتاريخ البشر والنباتات بدون البحث في عبارة السوما الغامضة. ذكرنا في الفصل السادس أن الهنود الأوروبيين اعتمدوا حياة الترحلّ وموطنهم الأصيل لا يزال موضع خلاف، ويُنسب إليهم النظام الأبوي والعربات المزوّدة بدواليب وتدجين الحصان. وينسب إليهم أيضاً دين يرتكز إلى السوما المخدّرة.

السوما عصير أو نسغ مصدره الألياف المنتفخة لنبتة تدعى أيضاً سوما. تشير النصوص ضمناً إلى أن العصير كان يُنقّى بتمريره عبر نسيج صوفي لتصفيته، وفي بعض الحالات كان يضاف إليه الحليب بعد ذلك. ومرة أخرى، وبطرق مختلفة، نجد السوما مرتبطة بالبعد الرمزي والطقوسي للماشية والحياة الرعوية. هوية السوما لا تزال غير معروفة، وأنا أعتقد أن ارتباطها بالماشية له أهمية أساسية في محاولة تعريفها.

تسمّى الكتابات النصّية الأولى لهذه الشعوب الفيدا، والنص الأكثر شهرة بينها هو «ريغ فيدا» الذي يتضمن حوالي مئة وعشرين ترتيلة للسوما، النبتة والإله. المندالة التاسعة في ريغ فيدا كناية عن تسبيحة شكر للنبتة السحرية. مقدمة المندالة التاسعة[1] تعتبر نموذجاً في تبجيل السوما الذي كان الطابع المهيمن والمميز لنصوص تلك المرحلة:

> عصيرك، أيتها السوما المصفّاة، كلّي التملك، رشيق كالفكر، ينطلق وحده كصغير الفرس الرشيقة؛
> عصير سماوي سريع الاختراق، حلو المذاق، يثير البهجة، يشتعل في الكأس.

---

(١) في أنوفاكا ٥، ١٠، ٥، ١.

عصير البهجة الكلّي التملك يُترك لينطلق بمفرده كعربة الخيل؛ أمواج السوما الحلوة المذاق تذهب إلى إيندرا سيد الصواعق، كما تذهب البقرة التي تدر الحليب إلى العجل.

كحصان مدفوع للقتال، أنت العارف بكل شيء تندفع من السماء إلى كأس أصلها سحابة...

أيتها السوما المصفاة، جداولك السماية كالجياد المطهّمة وبرشاقة الفكر تنسكب مع الحليب في الكأس. أيها الريتشي، القيّمون على القرابين، الذين يصفّون السوما، أيها الريتشي الذين تستمتعون بالسوما، صبّوا جداولها المتدافعة وسط الوعاء[٢].

كانت السوما معروفة في إيران في الديانة ما قبل الزرادشتية باسم «هوما». و«السوما» و«الهوما» شكلان مختلفان لكلمة واحدة، مشتقتان من أصل لغوي يعني الضغط لاستخراج العصير، وهو «سو» في السنسكريتية، و«هو» في الافستية (نسبة لكتاب الزرادشتية المقدس الأفستا).

كان الاعتقاد السائد أن نسراً من السماء العليا حمل السوما إلى الأرض، أو حملها من الجبال حيث وضعها فارونا أحد آلهة الهندوس. وهذا نصّ آخر من ريغ فيدا عن السوما:

يشربها المريض عند شروق الشمس دواء؛ فيها قوة للأطراف، وحماية للأرجل من الوهن، ووقاية من كل الأمراض، وإطالة للحياة. بتناولها يزول الضيق والأسى، ويتلاشى الحرمان المؤلم عندما يتحكم المصير الملهم بالمخلوق؛ الرجل الفقير يشعر أنه غني إذا تخدّر بالسوما؛ الجرعة تجبر المغني على رفع صوته وتلهمه الغناء؛ إنها تمنح الشاعر قوى خارقة حتى يشعر أنه خالد. وحول الطاقة الموجبة في الشراب، شاع في المرحلة الهندية الإيرانية تشخيص للنسغ على أنه الإله سوما، وقد نسبت إليه كل أفعال سائر الآلهة تقريباً، وقدرة الآلهة كانت تزداد بهذه الجرعة. مثل آجني، سوما يترك تألقه يشعّ بمرح في الماء؛ مثل فايو، يندفع مع خيوله؛ مثل إكفين يهبّ مسرعاً للمساعدة عندما يطلب منه؛ مثل بوسان، يثير المهابة، ويحرس القطعان ويقود إلى النجاح عبر أقصر الطرق. مثل إيندرا، الحليف المنشود، ينتصر على كل الأعداء، القريبين والبعيدين، ويحمي من نوايا الحاسد الشريرة، ومن الخطر والحرمان، ويجلب الرزق الكريم من السماء والأرض والهواء. السوما أيضاً يجعل الشمس تشرق في السماء ويردّ المفقود، وعنده ألف طريقة ووسيلة للمساعدة؛ يشفي الجميع، الأعمى والكسيح، يطرد السود (السكان الأصليين)، ويعطي كل شيء لآريا الورعة. هذه الأراضي تخضع لطقوسه، هو حاكم العالم. هو حامل السماء ودعامة الأرض، كل الناس في قبضته. متألق بنوره مثل ميترا، فارض لهيبته مثل أرياماان، يبتهج ويومض مثل سوريا؛ أوامر فارونا أوامره؛ هو أيضاً قاس مساحات الأرض، وشيد قبب السماوات؛ وهو مثله أيضاً ممتلىء حكمه، يحمي الجماعة، يراقب الناس حتى في الأماكن الخفية، يعرف كل الأسرار... سوف يطيل حياة التقي إلى ما لا نهاية... وبعد الموت يمنحه الخلود في مقام المباركين، في السماء الأكثر علواً[٣].

---

(٢) هـ. هـ. ويلسون، ترجمة: Rig-Veda Sanhita، بونا، الهند، Ashtekar، مجلد ٥، ص ٢٨٧.

(٣) أدولف كايجي: «The Rig Veda: The Oldest Literature of the Indians». بوسطن، Ginn، ١٨٨٦، ص ٧٢ ـ ٧٣.

السوما ـ ما هي؟

سؤال أساسي يطرح نفسه عند الحديث عن هذه النبتة القوية التي ترتكز إليها الطقوس الهندوسية: ما هي طبيعة السوما: «دعامة الدنيا»؟

كانت الإجابة على هذا السؤال مستحيلة تقريباً في القرن التاسع عشر. مستوى الدراسة الفيلولوجية المقارنة كان بدائياً. ولم يكن هناك مجال لتبني أسلوب يوفّق بين النظم السائدة لمقاربة المشكلة: السنسكريتيون لا يتحدثون إلى علماء النبات، وهؤلاء معاً لا يتحدثون إلى علماء العقاقير. كان السؤال في الواقع غير مثير للاهتمام، وبدا شبيهاً بالسؤال عن «أية أغنية تغني السّيدانة؟» أو «أين تقع طروادة؟»

يعود الفضل لجهود إينريتش شليمان، الذي تسلّح بحدسه وحزمه حتى توصل إلى تقرير موقع طروادة. وانطلاقاً من نفس القناعة بصدقية النصوص القديمة حاول بعض الباحثين معرفة الطبيعة النباتية للسوما في القرن العشرين. وتراوحت هذه الجهود بين التقطع والمعالجة المضنية. تلك بالتحديد اللعبة التي يحب الباحثون الخوض فيها؛ يجب لملمة الجواب في الأوصاف المفككة في إطار لغة انقرضت منذ زمن طويل مليئة بالكلمات المحلية والكلمات التي لا ترد سوى مرة واحدة في سياق نصّ معين. أية نبتة هي الأكثر تلاؤماً مع الإشارات المتناحرة لشكل تلك النبتة الغامضة التي تنتمي إلى عائلة نبات التهيؤات؟

كي نستطيع الإجابة على هذا السؤال يجب أن نحاول إعادة بناء الإطار الحياتي للهنود الأوروبيين. تقول إحدى الروايات أن هجرات تلك القبائل بدأت خلال الألف السادس ق.م. وأنها تجاوزت حدود الغابات التي كانت البيئة المناسبة لتكاثر السوما البدائية. لكن سياق الأحداث كان بالطبع يستغرق زمناً طويلاً؛ ربما كانت السوما تستخدم في التبادل التجاري بين موطن الآريين الأصلي والحدود الجنوبية الشرقية لامتداد نفوذهم. وهناك احتمال ألا يكون الهنود الأوروبيون عرفوا السوما قبل ملاقاة الرعاة الذين كانوا على الأرجح يعرفون الفطريات والذين أقاموا في سهل كونيا في الأناضول (أنظر الرسم ١٣).

وفي مطلق الأحوال ـ مع بروز الاختلافات اللغوية، وتباعد الطرق التجارية، وتجريب المزيد من البدائل المحلية للسوما وتبني التقاليد المحلية للشعوب المغلوبة ـ صار وصف السوما ممزوجاً بالأسطورة. تدريجياً ازدادت غموضاً وتحولت إلى تعليم سري، ينتقل شفوياً ولا يعرفه إلاّ قلّة، حتى قضى عليه النسيان. يبدو أن تحضير السوما تضاءل مع توقف هجرات الهنود الأوروبيين، في وقت كانت فيه حركات الإصلاح والإحياء في أوجها في بلاد فارس وشبه القارة الهندية.

الشكل (١٣)



صورة الفطر المزدوج عثر عليها في سهل كونيا. موجودة في كتاب:
«Anatolia: Immagini di Civilta» لأرنولدو موندادوري، روما، ١٩٨٧

الهوما والزرادشتية

ربما يكون سبب اختفاء السوما أن دين زرادشت الجديد التوجه (الذي ظهر حوالي سنة ٥٧٥ ق.م) والذي كان مهيمناً على الساحة الإيرانية، شاء أن يكون قمعياً بخصوص فكرة التحلي بالقوة الإلهية البدائية. زرادشت بشّر بأهورا مازدا، الخالق الأعلى، الذي يخلق بإرادته المقدسة والذي يحكم عالماً يتقاسمه الصدق والكذب. مخلوقات أهورا مازدا أحرار، أي مسؤولون عن مصيرهم؛ رمز الحقيقة النار؛ ومذبح النار يحتل المقام الرئيسي في الطقوس الزرادشتية(٤). لكن النص التالي يثبت أن مكانة السوما القديمة يصعب تبديدها:

> هناك إشارتان فقط للهوما (السوما) في نصوص زرادشت المقدسة، الأولى تذكر دروساً «الحامي من الموت» والثانية تتحدث عن «قذارة هذا المخدّر»، هاتان الإشارتان تكفيان لإثبات أن الهوما كانت محظورة في عالم المصلح الأكبر. لكن في النص الأخير من الأفستا (كتاب الزرادشتية المقدس) تعود الهوما للظهور كالعديد من الآلهة القدماء الآخرين، بالنسبة إلى ياسنا ٩ ـ ١٠ هي نفسها السوما المذكورة في الفيدا(٥).

قد لا يكون زرادشت قصد بالفعل منع الهوما. ربما كان يعترض فقط على التضحية بالثيران التي كان جزءاً من طقوس الديانة القديمة. تلك التضحية تكون بالتأكيد محرّمة لكل من فهم العلاقة بين الماشية والفطر في عبادة الإلهة العظيمة القديمة. ر.س. زاهند يقول أن زرادشت لم يمنع طقس الهوما ويبرّر رأيه على النحو التالي:

> كانت الهوما تُحضّر في «الياسنا» إرضاء لأتباع زرادشت الصالحين. من المسلم به بالطبع أن الزرادشتيين في الفترة التي سميناها «كاثوليكية» تبنوا قدراً غير ضئيل من المادة «الوثنية» للدين القومي الأكثر قدماً... نستطيع القول أن طقس الهوما كان في صلب الممارسة الزرادشتية منذ أن صار لذلك الدين طريقته في الممارسة الطقوسية؛ وتلك المكانة التي تتمتع بها لم تكن يوماً موضع جدال. لكن ذلك ليس صحيحاً بالنسبة للتضحية بالحيوان؛ وحتى زمن متأخر كان البعض يحبذون تقديم القرابين والبعض الآخر يعارض ذلك(٦).

ما هي المفاتيح التي قد تكون دليلنا في البحث عن الطبيعة النباتية للسوما؟ نبتة السوما وصفت في الفيدا والأفيستا بأنها صفراء اللون، ذات أغصان متدلية. كما أن أصلها الجبلي أيضاً ليس موضع خلاف. عندما أجبر سكان السهول الإيرانية المرتفعة على التخلّي عن تقليد السوما كان لا بدّ لهم من البحث عن بدائل لتلك النبتة. وعلى الأرجح كانت تلك البدائل تشبه في

(٤) ر.س. زاهنر: «The Dawn and Twilight of Zoroastrianism». نيويورك، Putnam، ١٩٦١، ص ٨٦.

(٥) هـ.د. غريسولد: «The Religion of the Rig Veda». لندن، Oxford University Press، ١٩٢٣.

(٦) زاهنر. غير مطبوع، ص ٨٦.

الشكل النبتة الأصلية. ومن المحتمل أيضاً أن يكون الناس قد حافظوا على لغة النصوص الطقسية على الرغم من أن النبتة لم تعد نفسها نبتة السوما. كان طقس السوما محور العبادة الفيدية، ويفترض في المتعبّد الحصول على عصير السوما ثلاث مرات يومياً لتبجيل الآلهة، أي يجب أن تكون النبتة متوفرة بكميات كبيرة. لكن الأهم من ذلك أن أية نبتة بديلة عن السوما يجب أن تكون مثلها ذات قدرة تخديرية إيحائية جاذبة تستحق أن توصف على النحو التالي:

حيث يوجد النور الأبدي، في العالم الذي تضيئه الشمس، في ذلك العالم الأزليّ الخالد اتركيني أيتها السوما...

حيث الحياة حرة، في السماء الثالثة بين السموات، حيث العوالم تتوهج، هناك اجعليني أزلياً...

حيث السعادة والبهجة، حيث الفرح والسرور، حيث رغبات رغبتنا تتحقق، هناك اجعليني أزلياً[7].

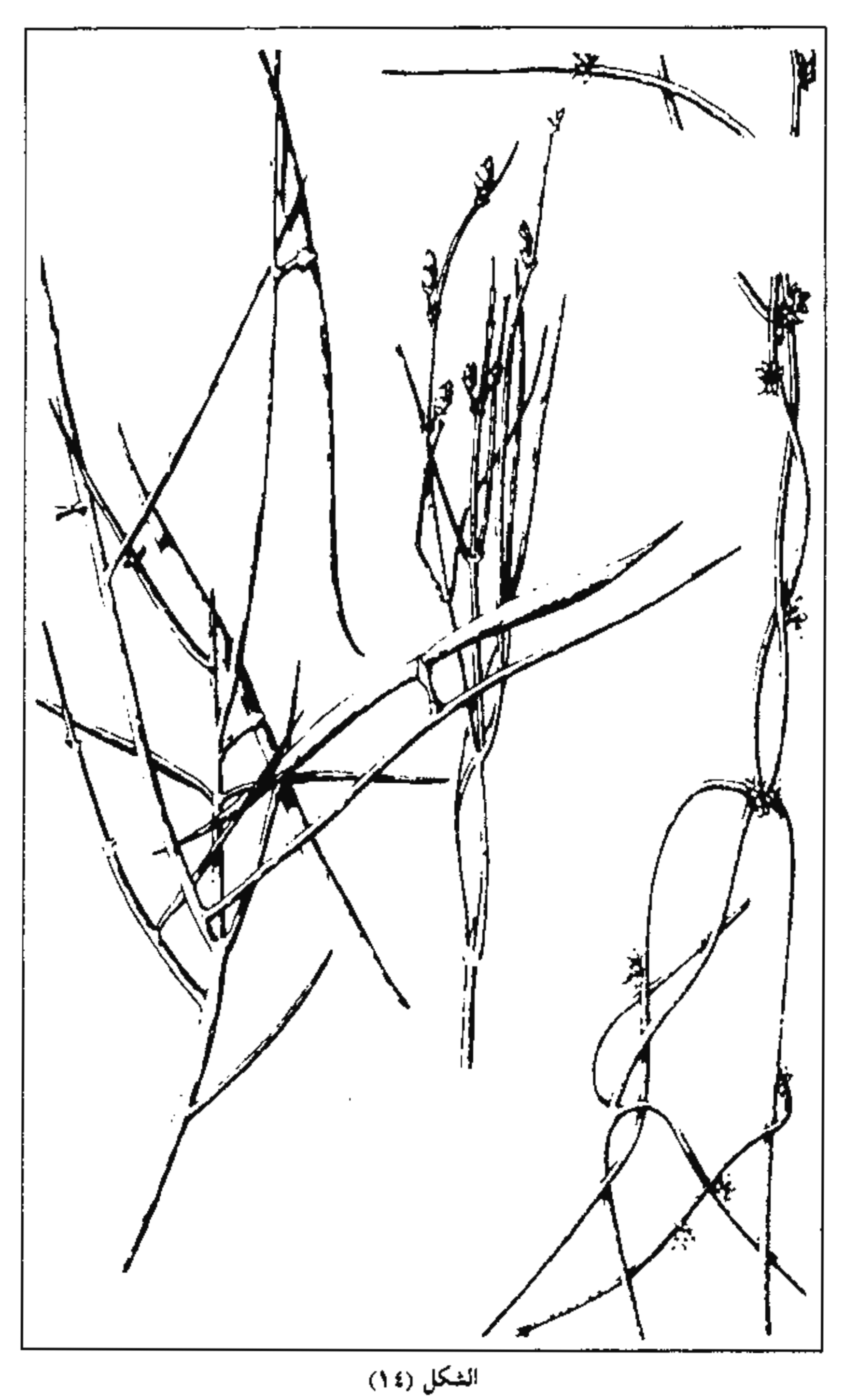
الهوما والهارملين

أدّت محاولات السوما إلى مناظرات حامية دارت على سبيل المثال حول تحديد معاني بعض الكلمات المحلية التي وردت في الأوصاف الفيدية[8]. ونتج عن المناظرات تعريفات مختلفة للسوما، منها أنها إيفدرا، نبتة قريبة من تلك التي تستخرج منها مادة الأيفدرين المنبّهة؛ أو ساركوستيما، من عائلة حشيشة الصقلاب الأميركية؛ أو قنّب؛ أو نبتة معترشة لا أوراق لها من نوع بريبوكا (أنظر الرسم ١٤). كما عُرفت بأنها حليب فرس مخمّر، أو عسل مخمّر، أو مزيج من الاثنين ومواد أخرى. ومؤخراً عُرفت بأنها بيغانوم هارمالا، نبات الفيجين العملاق، الذي يحتوي على مواد مخدّرة، وقد تبنّى هذا الرأي دايفيد فلا تري ومارتن شوارتز في كتابهما «الهوما والهارملين»[9]. يقول الباحثان إن السير ويليام جونز كان أول من تعرّف إلى السوما بأنها نبات الفيجن وذلك سنة ١٧٩٤، وهو محق في ذلك؛ ويستندان في تبرير رأيهما إلى كتاب الأفيستا وغيره من النصوص المعترشة في الديانة الفارسية والتي لم يلتفت إليها سائر الباحثين. وعند الحديث عن عالم ما بعد الموت الروحاني الخفي، والذي يسمى الوجود في حالة مينوغ في النصّ الأفيستي، يقول فلاتري:

(٧) جورج و. كوكس: «The Mythology of the Arian Nations». لندن، C. Kegan Paul، ١٨٧٨، ص ٣٨٧ ـ ٣٨٨.

(٨) أنظر كتاب إيرنست بندور: «R.Gordon Wasson on Sama and Daniel H.H. Ingall's Response»». الطبعة السابعة، نيوهايفن، American Oriental Society، ١٩٧١.

(٩) دايفيد فلاتري ومارتن شوارتز: «Hoama and Harmaline Near Eastern Studies»»، مجلد ٢١، بيركلي، University of California Press، ١٩٨٩.



الشكل (١٤)

بدائل عن السوما. من كتاب ر.ج. واسون:

«Soma: Divine Mushroom of Immortality». (نيويورك: Harcourt Brace Jovanovich، ١٩٧١، ص ١٠٥).

ربما كان تناول السوما الوسيلة الوحيدة التي أشارت إليها الديانة الإيرانية أنها تتيح الرؤية داخل وجود مينوغ، حالة ما بعد الموت؛ على أي حال، السوما هي الوسيلة الوحيدة التي يعترف بها النص الزرادتشي... وكما رأينا هي الوسيلة التي استخدمها الأهرقزد ليجعل وجود مينوغ مرئياً للأحياء. ليست هناك أدلّة تشير إلى أن الديانة الفارسية القديمة اهتمت بالممارسة التأملية التي ربما تساعد على تطور وسائل بديلة غير عقاقيرية للوصول إلى مثل هذه الرؤية. لم يكن الاعتقاد يتحقق ببساطة بنعمة سماوية أو يكون مكافأة على الورع. انطلاقاً من الدور الواضح الذي أعطي للسوما في طقوس التأهيل، ومن الحديث عن تأثيراتها، التي من ضمنها رؤية وجود مينوغ، يبدو أن تعاطي السوما كان مفروضاً على كل الكهنة (أو الشامان الذين سبقوهم)[١٠].

نظرية الأمانيتا

غوردن وفالنتينا واسون، اللذان علم الإثنوميكولوجي، دراسة المعارف التقليدية والفوائد فيما يختص بالفطريات المتنوعة، إقترحا أن السوما ربما تكون فطراً ـ وبالتحديد فطر أمانيتا موسكاريا، ذو الغطاء القرمزي، مرقّط بالأبيض، من فصيلة الغاريقونيات؛ كان معروفاً لدى الشامان في الماضي السحيق، وتستخدمه اليوم قبائل التانغو ستيك في سيبيريا القطبية.

بذل الزوجان واسون جهداً كبيراً في تجميع الأدلة. درساً تطور اللغات المعنية، وتفحصا الآثار الفنية، وأعادا تفسير ما ورد في النصّ الفيدي، ليستنتجا أخيراً أن النبتة اللغز هي فطر. كان بحثهما للكشف عن هوية السوما متميزاً في دقته في مجالي علم النبات والعقاقير.

وفي بحث آخر إكتشف الزوجان واسون وجود طقوس شامانية لا تزال تستخدم الفطر في جبال سييرا مازاتيكا في أوكساكان في المكسيك. أحضر غوردن واسون عيّنات من الفطر المكسيكي وأعطاها إلى ألبرت هوفمان، عالم العقاقير والكميائي السويسري مكتشف «إل إس دي» LSD، وبذلك مهّد لعزل البسيولسبين وتعريفه في ١٩٥٧، إنها المادة نفسها التي أعتقد أنها لعبت دوراً في ظهور وعي الإنسان لذاته على الأراضي المعشوشبة في أفريقيا منذ بضعة عشر ألف سنة.

سنة ١٩٧١ أصدر غوردن واسون كتابه: Soma: Divine Mushroom of Immortality. وضمنه بحثاً موسعاً في فطر الغاريقونيات. كان واسون ذكياً عندما اقترح وجود فطر ما في لغز السوما. لكنه كان أقل براعة عندما أراد أن يثبت أن الفطر المعنيّ كان من الغاريقونيات. إنه، كالذين سبقوه في محاولة تعريف السوما، نسي أنه بغض النظر عن النوع النباتي للسوما فإنها كانت نبتة ذات قدرة تخديرية عالية تثير التهيؤات والهلوسة بشكل لا مثيل له. وهو كان يعرف

(١٠) المصدر نفسه، ص ٣١.

جيداً أن الباحثين الأوروبيين اعتبروا الشامانية السيبيرية «نموذجية» وتمثل كل الشامانية البدائية، وأن فطر الغاريقون مستخدم منذ زمن بعيد في سيبيريا لإحداث الرحلات الشامانية وتأهيل المبتدئين في الشامانية لتملّك تراثهم.

نتيجة لاكتشافات واسون في المكسيك صار معروفاً أن هناك أنواعاً أخرى من الفطر إلى جانب الغاريقون قد تحتوي على مواد تخديرية ملهمة. واسون افترض أن السوما فطر، وأن الفطر يجب أن يكون الغاريقون. هذا الإصرار على الأمانيتا موسكاريا فرض نفسه على كل المحاولات التي أجريت للتعرف إلى السوما منذ ذلك الحين.

اعتراضات على الغاريقون

من الناحيتين الجينية والكيميائية يبدو الأمانيتا موسكاريا كثير التنوع؛ هناك أنواع عديدة من الغاريقون لا تؤدي إلى خوض تجربة نشوة ناجحة. إن طبيعة التربة ومختلف العوامل الجغرافية والفصلية تؤثر جميعها على صفاته المهلوسة. إذا كان الشامان يستخدم نبتة معينة فهذا لا يعني بالضرورة أنها مثيرة للنشوة. هناك الكثير من النباتات البغيضة فعلاً والتي يستعملها الشامان للتخدير وفتح «الشقّ بين العوالم». من بينها الداتورة ـ وهي شبيهة بجيمسون ويد، والبروغمانسيا الشجرية التي تتدلى براعمها كنباتات الزينة؛ وبذور سوفورا سيكونديفوليا Sophora Secundifolia الحمراء والسوداء، والبرونفيلياس، والسعوط الذي يحتوي على الفيرولا والمصنوع من بودرة الراتينج المجفّف. هذه النباتات، على الرغم من استخدامها في طقوس الشامان، لا تحدث تجربة نشوة تتوافق مع ماورد من نصوص التبجيل للسوما. واسون نفسه انتبه أن الأمانيتا لا يعتمد عليه وأنه لم يستطع شخصياً الوصول إلى حالة النشوة بواسطته.

وبدلاً من أن ينتبه واسون إلى أن الأمانيتا موسكاريا لم يكن الاحتمال المناسب للسوما الفيدية، افترض أن الخلل قد يعود لطريقة ما في تحضير الفطر. لكن ليس هناك أية مادة أو طريقة تستطيع تحويل تجربة تعاطي الأمانيتا التي غالباً ما تكون مزعجة وضعيفة إلى رحلة تهيؤات في جنة سحرية. واسون عرف حالة واحدة وكانت استثناء غير قابل للتكرار:

> في ١٩٦٥، وفي ١٩٦٦ أيضاً، جرّبنا الأمانيتا موسكاريا مراراً. كانت النتائج مخيبة للأمل. أكلناها نيئة، على معدة فارغة، وشربنا عصيرها، على معدة فارغة أيضاً. مزجنا العصير بالحليب وشربنا المزيج، وكنا دائماً ننتبه لأن تكون المعدة الفارغة. شعرنا بالغثيان والبعض تقيأ؛ شعرنا بالرغبة بالنوم، واستغرقنا في نوم عميق لم يستطع حتى الصراخ انتشالنا منه، كنا نستلقي كألواح الخشب، لا نشخّر، ونبدو كالأموات لمن يرانا. كنت في هذه الحالة مرة عندما تراءت لي أحلام حية، لكنها ليست ذات قيمة بالمقارنة مع ما حدث لي عندما تناولت فطر البسيلوسبين في المكسيك، وذلك دون أن أكون نائماً. خلال تجاربنا في سوغاديرا (اليابان) عرفنا حالة واحدة مميزة نستطيع اعتبارها ناجحة. روكيا إيمازيكي

تناول الفطر مع «ميروشيرو»، الشوربا اللذيذة التي يتناولها اليابانيون عادة على الفطور، وحمّص رؤوس الفطر على النار. عندما أفاق من سبات الفطر كان في حالة بهجة كلية. ظل ثلاث ساعات لا يستطيع منع نفسه عن الكلام؛ وخلاصة ملاحظاته أن الحالة التي عرفها كانت مختلفة للغاية عن حالة الخدر بواسطة الكحول؛ كانت أفضل بكثير ولا مجال لمقارنتها مع أية حالة أخرى. لم نعرف في حينه، وفي تلك المناسبة الوحيدة، سبّب تأثر إيمازيكي على هذا النحو[١١].

يحتوي الأمانيتا موسكاريا على مركبين كيميائيين فاعلين هما الموسكارين والموسكيمول. الموسكارين سمّ قوي، ومثل معظم السموم الكولينرجية تنعكس فاعليته بواسطة حقنة أتروبين سلفايت. الموسكيمول، المسؤول على الأرجح عن حالة الخدر التي يحدثها الفطر، وُصف بأنه مقيّء ومسكّن[١٢]. لم تورد الأبحاث تعريض البشر للموسكيمول. (من غير المعقول أن الخطوة الواضحة لإعطاء الموسكيمول للإنسان لتحديد طاقته التخديرية، إذا كانت موجودة، لم تنفذ. هذا الواقع يشير مرة جديدة إلى الحالة اللاّمنطقية التي تسيطر على التفكير الأكاديمي عندما تطرح تساؤلات تدور حول تعاطي مواد تحدث تغيرات في معدلات الوعي).

سوف أضيف في هذا المجال تجربتي الشخصية مع الغاريقون. تناولت الفطر مرتين. في المرة الأولى كان الفطر مجففاً على شاطىء كاليفورنيا الشمالية. تناولت خمسة غرامات تسببت لي بحالة غثيان وسيلان لعابي وتشوش في الرؤية. تتابعت الصور أمام عيني المغمضتين، لكنها كانت تافهة وغير ملفتة. وفي المرة الثانية تناولت فطراً كبير الحجم طازجاً كان ينمو على علو ١٠,٠٠٠ قدم في المنطقة الجبلية خلف بولدر في كولورادو. وفي هذه الحالة كانت الآثار الوحيدة سيلان اللعاب وأوجاع في المعدة.

سأعرض أخيراً جزءاً مما رواه طبيب أعصاب متمرّس في التحليل النفساني عن تعاطيه لفطر الغاريقون. كانت الجرعة مقدار كأس من الفطر المفروم. ومصدر الفطر كان نهر بيكوس في نيومكسيكو:

> كنت أنتظر مرتعشاً والعرق ينضح من جسمي ، واللعاب يسيل بغزارة من فمي. لم أعرف كيف مرّ الوقت. ظننت أنني مستيقظ، أو أنني أرى أحلاماً تشبه الواقع تماماً ـ كنت أحلم وأنا واعٍ تماماً. كنت بالكاد قادراً على سماع الموسيقى. نزعت عني البطانية ـ كنت حاراً مبلّلاً بالعرق، وبارداً جداً، لكنني لم أرتجف بشكل مرئي. كنت في أعماقي هادئاً إلى حد غير اعتيادي. كنت كالحجر. لم يسبق لي أن عشت حالة مماثلة ـ التخدير تعبير واسع، لم تكن تلك حالتي تماماً. بدا كل شيء كما هو تماماً لكنه

(١١) ر. غوردون واسون: «Soma: Divine Mushroom of Immortality». نيويورك، Harcourt Brace Jovanovich، ١٩٧١، ص ٧٥.

(١٢) مؤلف مارتا ويندهولز: «The Merck Index». الطبعة التاسعة، راهوي ن.ج.: Merck، ١٩٧٦.

لم يكن مألوفاً على الإطلاق ـ لكنني شعرت أنني أعرف أنه موجود. هذا العالم كان على بعد ظلّ مني (أو بعد مستوى كمّي) ـ مختلفاً بطريقة غريبة وعميقة وجليّة. كنت في حالة تخلّج (غير قادر على تنسيق الحركات الإرادية) ونشاط ـ لكن المادة المرئية كانت ضئيلة(١٣).

باختصار، كان الأمانيتا موسكاريا بالتأكيد وسيلة شامانية فاعلة في البيئة البدائية المحدودة حيث استخدم تقليدياً كعامل تخديري. لكن حالة النشوة الملهمة المثيرة للبهجة والتي ذكرتها نصوص الفيدا، وكانت اللغز الذي حافظت عليه الشعوب الهندية الأوربية التي نُزحت عبر السهب الإيرانية، لا يمكن أن تكون ناجمة عن الأمانيتا موسكاريا.

واسون: آراء مناقضة وبدائل فطرية أخرى للسوما

ظل واسون مقتنعاً بأن الغاريقون هو السوما. في كتابه الأخير Peresphone's Quest، الذي نشر بعد وفاته، يصف الغاريقون بأنه «الأنثيوجين الأعلى درجة على الإطلاق» ـ وقد أورد ذلك عن ثقة على ما يبدو، طالما أنه اعترف بأنه مخيب للأمل ولم يذكر أنه يتوصل إلى حالة النشوة الشامانية إلاّ باستخدام البسيلوسبين، الذي لم يدخله في إطار لغز السوما. لكنه أورد أمراً هاماً عندما كان يكتب عن الهند:

هناك فطريات أنثيوجينية أخرى تنمو في مستويات أكثر انخفاضاً. إنها على روث المواشي ومن السهل التعرف إليها وجمعها، وهي شديدة الفاعلية. لكنها لا ترتفع لمجاراة مستوى الممارسات البراهمية؛ يعرفها أبناء القبائل والمنبوذون. لكن السوما من ناحية ثانية تتطلب إنضباطاً عند الكهنة وفترة طويلة من الإعداد والتمرين؛ إنها باستثمارها اللائق مسألة تخصّ النخبة الكهنوتية. لكن الدور المحتمل الذي قد يكون الستروفاريا كوبنسوس، الذي ينمو على روث المواشي، لعبه في حياة البسطاء لا يزال غير معروف حتى اليوم، هل الستروفاريا كوبنسوس هو المسؤول عن رفع البقرة إلى حالة القداسة؟ وعن إضافة بول وروث المواشي إلى البانكا غافيا (القربان الفيدي)؟ وهل كان ذلك سبباً ساهم في التخلي عن السوما؟ في ظل الظروف البيئية المسيطرة على وادي إيندوس كاشمير، نستنتج أن قلّة من الهنود الأوروبيين فقط كان بإمكانهم أن يجربوا شخصياً سر العشب المقدس. طقس السوما كان مرتبطاً بالظروف الخاصة المسيطرة في تلك المنطقة، وتلك الظروف هي المسؤولة إلى حدّ بعيد عن القضاء عليه. إنه لا يزال حتى اليوم مستمراً في الهند كذكرى عميقة وقوية لديانة قديمة(١٤).

في مناقشة حظر تناول الفطريات عن البرهمانيين، وقد ورد في المرحلة الفيدية الأخيرة، يقول واسون:

(١٣) رسالة خاصة، ١٩٨٨.

(١٤) ر. غوردون واسون: «Persephone's Quest: Entheogens and the Origins of Religion». نيوهايفن، Yall University Press، ١٩٨٦، ص ١٣٥.

- لا نزال نجهل ـ وربما لن نعرف أبداً ـ متى اكتسب التحريم قوته، ربما عبر قرون من الزمن فيما كانت النصوص الفيدية تؤلف، أو ربما عندما عرف الكهنة البرهمانيون الكبار فضائل الستروفايد كوبنسوس التي يعرفها أبناء الفئة الدنيا في الهند...[١٥].

في هذين النصين أمر غير اعتيادي. واسون العالم، والذي كان برهمانياً إلى حد ما، وكان مصرفياً يعمل في توظيف الأموال، وهو عضو شرف في جامعة هارفارد، يبدو أنه يتصرف بطريقة غير علمية. نحن نعرف من الشروحات التي قدّمها أنه جرّب نشوة البسيلوسبين في أكثر من مناسبة. ونعرف أنه لم يحصل أبداً على تجربة مرضية من الأمانيتا موسكاريا. لكنه في هذين النصّين يرفض ويتجاهل ويتجاوز الدليل الواضح بأن الفطر المعنيّ في لغز السوما هو الستروفاريا كوبنسوس الغني بالبسيلوسبين. يقول عنه إنه «يسهل التعرف إليه» وأنه «فاعل» لكنه لا يستنتج من ذلك أنه ربما يكون السوما التي يبحث عنها. يتساءل ما إذا كان الستروفاريا كوبنسوس سبباً ساهم في التخلّي عن السوما. ثم يتجاهل سؤاله. إذا كانت السوما هي الستروفاريا كوبنسوس نستطيع عندئذٍ تتبع هذا التقليد دون انقطاع حتى المجتمع الإفريقي ما قبل التاريخ. إنه يشير في هذين النصين إلى الطبقات الدنيا وهذا يتنافى مع إيمانه بالمساواة. أعتقد أن اعتبارات عديدة، بعضها غير واعية، قبلت كلمات واسون وهو يدوّن رأيه الأخير حول الموضوع الذي اهتم به معظم حياته.

الذين عرفوا واتسون عرفوا بغضه للهيبيين وأنه كان منزعجاً جداً من الأحداث التي جرت في أوكسانا بعد نشره لاكتشافاته حول طقوس الفطر التي ما زالت تمارس هناك. المغامرون والشبان، والذين يتوقون إلى الروحانية، أو إلى الإثارة الحسية، كل هؤلاء توجهوا إلى المنطقة، وكان ذلك متوقعاً، وهذا ما جعل واسون حساساً جداً لموضوع التخدير.

تناولت مراراً نباتات الفطر المقدسة، لكنني لم أفعل ذلك أبداً بدافع تضييع الوقت أو الاستجمام. كنت أعرف منذ البداية نظرة الإجلال التي يرمقها بها أولئك الذين يؤمنون بمكانتها، لذلك لم أدنسها، ولن أفعل ذلك. بعد قراءة مقالتي في مجلة لايف بدأ حشد من المتاجرين بالإثارة يبحثون عن «الفطر السحري» فاقتحموا هواتلا دوجيمينيز ـ هيبيون، وعلماء نفس مزيفون، وغريبو الأطوار، والبعض نظّم رحلات واصطحب مجموعات من الراغبين في المعرفة، وكثيرون من هؤلاء اصطحبوا معهم مومسات... ومن أماكن مختلفة آلاف لا تحصى تناولت الفطر (أو الأقراص المركبة التي تحتوي على العنصر الفاعل فيه) وتولى قطاع من «صحافتنا الحرة» نشر بعض ما ورد على ألسنة هؤلاء. إنني أستنكر ما قام به الرعاع، لكن ماذا كنت أستطيع أن أفعل؟[١٦].

(١٥) المصدر نفسه، ص ١٣٤.

(١٦) ر. غوردون واسون: «The Wondrous Mushroom: Mycolatry in Mesoamerica». نيويورك، Mc Graw Hill، ١٩٨٠، ص xvi.

· تمسك واسون بموقفه الصارم الرافض لاستخدام «الأنثيوجين» العزيز على قلبه على سبيل المتعة ـ وكان يفضّل تلك الكلمة الخرقاء المثقلة بالعبء اللاهوتي على كلمة «مخدر» العادية. ربما يكون هذا الموقف هو الذي جعل واسون يقرر أن مؤلفه الضخم الذي كتبه بالتعاون مع روجر هايم عالم الفطريات الفرنسي وعنوانه Les Champignons Hallucinogènes du Mexique. يجب أن لا يترجم إلى الإنكليزية في الستينات. ربما كانت لديه أسباب وجيهة لموقفه هذا، لكن الواقع يظلّ أن أهم مؤلف كتبه واسون هو المؤلف الوحيد لديه غير المتوفر باللغة الإنكليزية.

سوما: البيغانوم هارمالا

لكي نكون منصفين مع واسون يجب أن نشير إلى أنه افترض أن الهنود الأوروبيين تعرفوا إلى الستروفاريا كوبنسوس عند وصولهم إلى الهند ـ أي أنها دخلت معادلة السوما في وقت متأخر. برأيي كان الستروفاريا كوبنسوس، أو أي فطر آخر من النوع نفسه الذي ينمو على الروث، معروفاً للإنسان في أفريقيا والأناضول وحتى السهول الإيرانية المرتفعة قبل آلاف السنين من وصول الشعوب الهندية الأوروبية. هذا الافتراض يحدث تغييراً هاماً في الصورة. إنه يعني أن قبائل الغزاة الهنديين الأوروبيين وجدت ديانات في الأناضول والسهول الإيرانية تعتمد على استخدام الفطر.

قد يكون الجفاف المتزايد دفع الناس إلى البحث عن بدائل للفطر قبل الغزوات الهندية الأوروبية بوقت طويل. وفي هذا السياق أعترف بأنني تأثرت بالمعطيات الجديدة التي عرضها فلاتري وشوارتز حول الهارمالين[١٧]، وقد أكدا أنه حتى الفترة الفيدية المتأخرة على الأقل، كانت الهوما/السوما هي البيغانوم هارمالا. الهارمالين، البيتا كاربولين الموجود في بيغانوم هارمالا يختلف في فاعليته العقاقيرية عن الهارمين الشبيه به والذي تحتوي عليه نبتة أياهواسكا الأميركية الجنوبية، Banisteriopris. من المعروف أن الهارمالين مخدر أقوى من الهارمين وأقل منه سُمّية. هذا يعني أن البيغانوم هارمالا إذا خُمّر بدرجة معينة يحدث حالة نشوة ويثير الهلوسة. ومن المؤكد أن البيغانوم هارمالا ممزوجاً مع البسيلوسبين بأي شكل سوف يتعاون مع البسيلوسبين ويعزّز فاعليته. ربما لجأ الإنسان إلى هذا المزج عندما تدنت موارد الفطر. وربما يكون البيغانوم هارمالا حلّ تدريجياً محل الفطر الذي يزاد ندرة. هذا مجال يستدعي المزيد من البحث.

مهما يكون مستوى الأهمية التي أعطاها الإنسان للبيغانوم هارمالا، فإنه من الواضح أن

---

(١٧) فلاتري وشوارتز غير مطبوع.

حضارتي الأناضول وإيران قبل الغزو الهندي الأوروبي كانتا على نمط ساتال هويوك. كان الناس يهتمون بتربية المواشي ويعيشون في مجتمعات تعتمد المشاركة ويعبدون الإلهة العظيمة ويمارسون طقوس العربدة والتخدير؛ هذه الحضارة تعود جذورها إلى أفريقيا في العصر الحجري الحديث وظهور الوعي الذاتي عند الإنسان.

سوما، إله القمر الذكر

تخوض المانديلا التاسعة في ريغ فيدا في تفاصيل كثيرة حول السوما وتؤكد أن السوما تعلو بمقامها فوق الآلهة. السوما هي الوجود الأسمى. السوما هي القمر؛ والسوما ذكورية. نقع هنا على ظاهرة نادرة وهي تأليه القمر كذكر. هذه الظاهرة تقتصر على بعض القبائل الهندية في أميركا الشمالية، وعلى الشعوب الهندية الأوروبية (لا يزال مفهوم ذكورية القمر موجوداً عند الشعب الألماني حتى اليوم)، عند دراسة الفلكلور، تبدو صلة القمر الأنثوية عميقة وواضحة لذلك يتميز تأليه ذكورية القمر ويصبح من السهل دراسته في التاريخ التقليدي لأية منطقة.

في ميثولوجيا الشرق القريب هناك إله قمري حُمل عن الارجح الى الهند من الغرب. من الحضارة البابلية تبرز مدينة حرّان الشمالية، وهي مدينة عرفت في التاريخ بأنّها موطن إبراهيم الأصلي ومهد علم الفلك. وكان الإله الحامي لحران إله قمر ذكر: سين أو ننّار. وكان الاعتقاد السائد أنه نشأ من إله للبدو وحامٍ للمواشي وله صلة بعبادة القمر الذكر في المنطقة العربية القديمة. ابنته عشتار تفوقت على كل الأمهات، كما فعلت إيزيس في مصر[١٨].

بما أنه أب أو مصدر الإلهة، من المناسب أن يضع سين على رأسه غطاء يشبه الفطر. (أنظر الرسم ١٥). ثلاثة نماذج عن سين أو ننّار على أختام أسطوانية؛ وكان الغطاء واضحاً فيها، وفي نصّ مرفق بأحد النماذج أشار باحث من القرن التاسع عشر إلى أن الغطاء كان في الواقع دليل هوية الإله[١٩].

ما الذي جعل الإله الحامي لحرّان الذي ارتبط بالفطر يُعتبر ذكراً؟ هذه مسألة لدارسي الفولكلور والميثولوجيا. لكن من الواضح أن السترفاريا كوبنسوس فطر يتقبل الذكورية أو الأنثوية بسهولة متوازية. إنه بالتأكيد مرتبط بالقمر: له في بعض الأحيان مظهر لمّاع وفضّي، وبروز الفطر أثناء الليل في الحقول يوحي بأنها تكون ناشطة في الليل عندما يحكم القمر السماوات. ومن ناحية ثانية، قد نرى ذكورية الفطر: إنه شمسيّ

---

(١٨) س.هـ. هوك: «Babylonian and Assyrian Religion». نورمان، University of Oklahoma Press، ١٩٦٣، ص ١٩.

(١٩) غاستون ماسبيرو: «The Dawn of Civilization-Egypt and Chaldea». لندن، Soceity for Promoting Christian Knowledge، ١٨٩٤، ص ٦٥٥.



الشكل (١٥)

ختم عليه نقش لإله القمر في حرّان سين أو نَنّار أعيد رسمه في: «The Dawn of Civilization: Egypt and Chldea». لغاستون ماسبيرو (الطبعة الرابعة. لندن: Society for Promoting Christian Knowledge، ١٩٢٢، ص ٦٥٥). الرسم الأصلي لفوشر ـ غودين.

اللون، قضيبي المظهر، ويمدّ الإنسان بطاقة كبيرة، وهو يعتبر تقليدياً إبن البرق ـ اعتبر الفطر إلهاً منشطاً للذكورة يستطيع أن يأخذ أشكالاً مختلفة تتناسب مع الأطر الحضارية المختلفة. قد نعتبر الفطر في هذا المجال مرآة تعكس التوقعات الحضارية، وهو عند الهنود الأوروبيين. اكتسب طبيعة ذكورية وفي الصحراء الإفريقية وساتال هويوك كان أقرب إلى القمر والأنثوية. في مطلق الأحوال الفطر يعتبر مخدراً، أو إلهاً بعيداً عن التوحش، إنه يرتبط بتدجين الحيوانات والحضارة الإنسانية.

السوما والماشية

تدجين الفطر قد يكون الخيط الذي يربط بالتحديد فطر ستروفاريا كوبنسوس الذي ينمو على الروث، والسوما. لا يعود هناك أي معنى لكون الماشية تشكل عنصراً هاماً في عبادة السوما إذا افترضنا أن السوما هي الأمانيتا موسكاريا. واسون أشار إلى الصلة بين الماشية والسوما، لكنه حاول تحاشي الاستنتاج المنطقي بأن السوما من الفطر الروتي: «نصوص الريغ فيدا تؤكد على أهمية الأبقار وبول الثيران في ديانة البارسيين ولا بد هنا من التساؤل حول ما إذا كانت الأبقار تأكل فطر الغاريقون أو تتأثر به، ويتأثر به أيضاً حليبها وبولها. لا أستطيع الإجابة على هذا التساؤل»[٢٠].

بعد حوالي ثماني عشرة سنة كتب كارل أ.ب. راك حول كتاب واسون الأخير، وعلّق على المقطع السابق في ملاحظة يقول فيها:

(٢٠) واسون: «Soma»، ص ٢٥٦.

الاستعارات التي تدور حول الماشية هي أيضاً من صفات السوما التي يمكن وصفها بأنها «ضرع» يدرّ الحليب المخدّر، و«ثور يخور»، والصورة الثانية نُسبت إلى الفطر الذي لقيه فرساوس بالقرب من متّيني. الثور هو أكثر الاستعارات انتشاراً عن السوما، وهذا التجسيد للنبتة المقدسة قد يغير خلفية الأسطورة القائلة بأن زوس وهو في صدد ترسيخ الحضارة الأوروبية اختطف أوروبا الأناضولية بعدما تصدّى لها على هيئة ثور وحمّل أنفاسه التي أحاطت بها وهي الزهرة التي أكلها[٢١].

من أجل إنقاذ الفرضية بأن الأمانيتا مورسكايا هو السوما، عمد القائلون بذلك إلى التأكيد على أن بول الرنّة، والأشخاص الذين تناولوا الأمانيتا موسكاريا يصبح مادة مخدّرة بذاته. وعند القبائل السيبيرية، حيث رصد هذا الأمر، كان البول يُفضّل على النبتة نفسها لكن فطر الأمانيتا موسكاريا لا ينمو في الأراضي المعشوشبة، والمواشي لا ترعى الفطر عادة، وليس هناك ما يحمل على الاعتقاد أن بولها سوف يتضمن صفات تخديرية إذا أكلت الفطر.

شكوك واسون

لم يكن واسون واثقاً تماماً من نفسه كما قد يظهر من كتاباته. سنة ١٩٧٧ ردّ واسون على سؤال وجهته له حول الستروفاريا كوبنسوس، فقال:

سؤالك عن الستروفاريا كوبنسوس لفت انتباهي أيضاً. عندما كنت في الهند سنة ١٩٦٧ برفقة روجر هايم نزور تلال سيمليبال في أوريسا، أخبرني أحدهم عن فطر ينمو على روث البقر يتطابق تماماً مع الستروفاريا كوبنسوس وله القدرة التخديرية نفسها. قال لي إن كل الناس يتحاشونه. لم يكن على ما يبدو يخفي شيئاً. وعدنا بإحضار الفطر إذا أعطيناه مهلة يومين، لكنه لم يعد. كان هدفنا زيارة الهدف مختلفاً تماماً. سيكون من الضروري متابعة البحث في الستروفاريا كوبنسوس ليس فقط في الهند، بل وفي مناطق أخرى من العالم أيضاً. من المؤكد أن هذا الفطر ينمو في الهند. هل لعب دوراً في التخلي عن السوما؟ السكر الذي يسببه الستروفاريا كوبنسوس وأنواع أخرى من الفطر الذي يحتوي على البسيلوسبين هو برأيي أعلى مرتبة مما يسببه الأمانيتا موسكاريا. قد أتوسع في هذا المجال وفي أفكار مختلفة أنوي إضافتها إلى كتابي التالي بعد نشر الكتاب الحالي الذي أكاد أشرف على إنهائه[٢٢].

لكن واسون ما لبث أن أعلن عن موقف مناقض لذلك.

طرح أكثر قابلية للتصديق

طالما أن الافتراضات بأن الأمانيتا هو السوما مشوهة، أعتقد أنه من الأفضل تجاهلها. ذلك

---

(٢١) كارل راك، مساعد في تأليف كتاب: «The Road to Eleusis». نيويورك، Harcourt Brace Jovanovich، ١٩٧٨. في كتاب واسون Persephones Quest، ص ٢٥٦.

(٢٢) ر. غوردون واسون ـ رسالة خاصة، ١٩٧٧.

النسج النصي واللغوي الذي بدا مقنعاً بالنسبة للبعض لا يمكن الأخذ به. لكن هناك إمكانية لإعادة ترتيب الأمور عن النحو التالي:

> في موطنهم الأصلي شمالي البحر الأسود، كان الهنود الأوروبيون يمارسون على الأرجح ديانة شامانية لها صفاتها المشابهة للشامانية التي تستخدم الأمانيتا والتي عرفها شعوب كورياك وشوكشي وكافشادال في شمال شرق سيبيريا. كان الهنود الأوروبيون في تلك المرحلة محاطين. من الشمال والشرق بشعوب فينو ـ أوغريك المعروفة منذ الماضي البعيد باستخدامها لفطر الغاريقون.

في الألف السادس ق.م. كان الناس بدأوا يستقرون في تجمعات زراعية في أوروبا منذ أكثر من ألفي سنة والحضارات المدنية كانت معروفة أيضاً في أودية الأنهار الخصبة في الشرق القريب والسهل الأناضولي. في وقت ما من هذا الألف بدأ الهنود الأوربيون استعمالهم للسهوب الآسيوية والمناطق الصحراوية. في السهوب الأوروبية الآسيوية شمال البحر الأسود، في جبال القوقاز وطوروس وزاغروس، كان الحصان هو مفتاح الغلبة. إذا كان تدين المواشي في أفريقيا هيأ الجو لنشوء مجتمعات المشاركة التي تعبد الإلهة وتعرف الفطر، فإن تدجين الحصان عند الهنود الأوروبيين عزّز قدرة الانتقال، والهيمنة الذكورية، وتشكيل بنية اقتصادية تستند إلى الغزو والسلب. العربات المزودة بالدواليب، التي اخترعها الإنسان للمرة الأولى على أطراف القوقاز حيث يتلاقى السهب مع الغابة، ما لبثت أن انتشرت بسرعة بين القبائل. برفقة الحصان والعربة بدأوا يتحركون غرباً إلى منطقة جماعات المزارعين المستقرين، وشرقاً نحو أواسط آسيا، وجنوباً نحو بحيرة فان حيث تعرفوا إلى الحضارات المدنية في الأناضول والسهول الإيرانية. تلك الحضارات كانت مستقرة في أماكنها منذ فترة طويلة ولها ماضيها الممتد جنوباً وغرباً إلى مهد الوعي في الأراضي المعشوشبة، المعتدلة المناخ، في أفريقيا. استخدام البسيلوسبين كان تقليداً شعبياً عريقاً كالحضارات نفسها.

الهنود الأوروبيون

مهما كانت طبيعية علاقة الهنود الأوروبيين بالأمانيتا في موطنهم الأصلي، فإنه من المنطقي أن نفترض أن نصوص الفيدا كتبت خلال السنوات الطويلة لنزوحهم نحو شبه القارة الهندية. في تلك الأثناء كانوا يستعبدون ويستوعبون سكان الأودية التي يحتلونها. ومن خلال احتكاكهم بتلك الحضارات، عرف الهنود الأوروبيون للمرة الأولى معجزة السوما والطاقة الكامنة في البسيلوسبين. وفيما كانت صورة الإلهة العظيمة تُمحى لصالح التشكيلة الإلهية في الفيدا، ونظام المشاركة يستبدل بالهيمنة الذكورية والسلطة الأبوية، استمر الفطر مبجّلاً ومؤلهاً في المرحلة البدوية، وأصبح السوما، صاعقة إيندرا.

كنت أشرت في الفصول السابقة إلى استخدام البسيلوسبين في أفريقيا القديمة وآسيا الصغرى، لكن الأدلة على هذا الموقف الآخير لا تزال صورية وظرفية؛ ليست واضحة بعد. في (الرسم ١٣)، تبدو صورة إناء عمره حوالي ألفين وخمسمئة سنة حفر عليه فطران نافران، وقد عثر عليه في الأناضول ويعتبر من الأدلة المادية، التي ربما تتكاثر قريباً، عن وجود الفطر في الشرق الأوسط. وفي يوغوسلافيا عثر أيضاً على أغراض صغيرة لها شكل الفطر منحوتة في حجارة خضراء (أنظر الرسم ١٦).

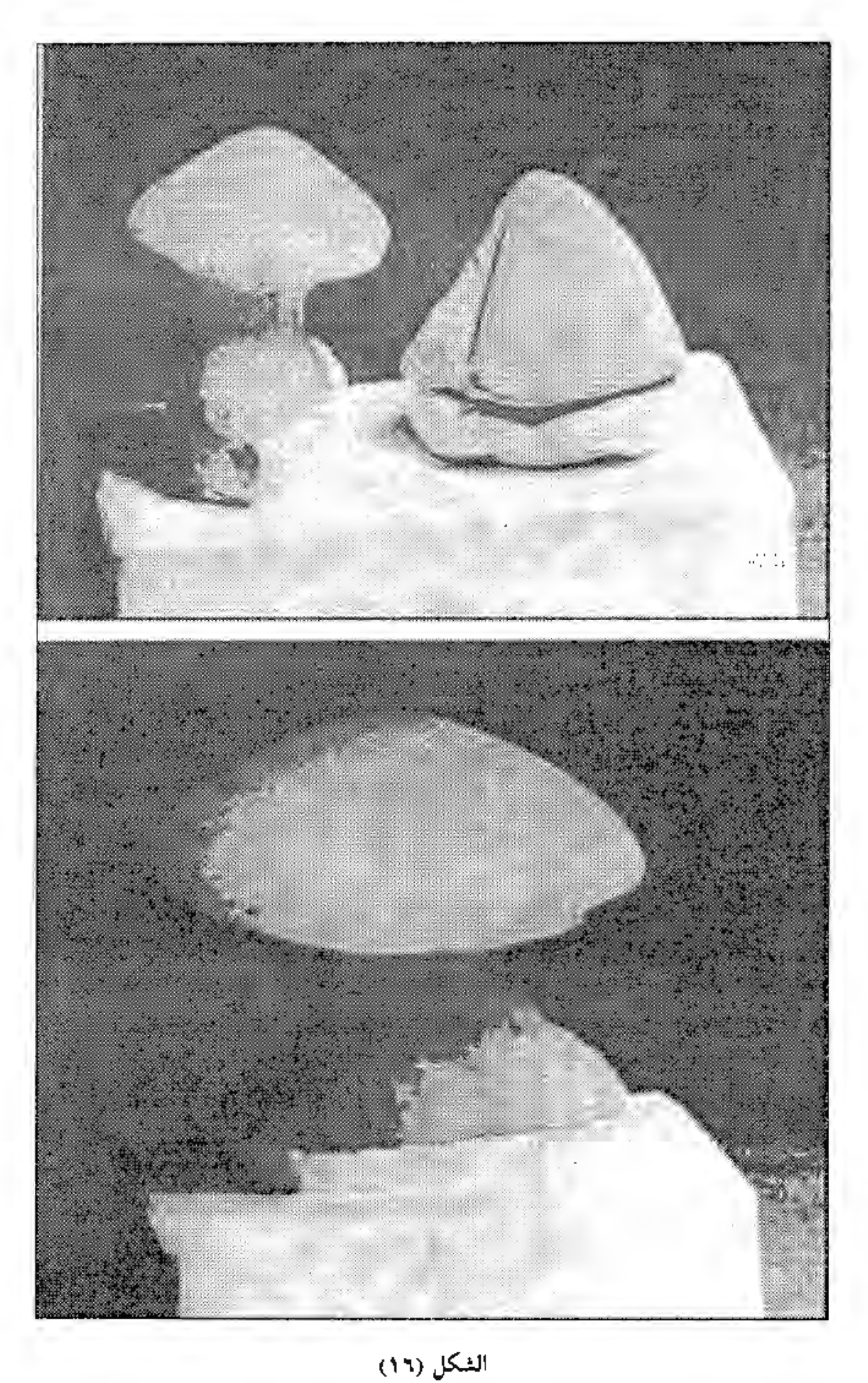
مع تغيير الظروف المناخية واستمرار توغّل الهنود الأوروبيين شرقاً، من المحتمل أن تكون الشروط التي يتطلبها انتشار الستروفاريا كوبنسوس من حرارة معتدلة وأرض معشوشبة لم تعد متوفرة. قد يكون الإنسان لجأ إلى استخدام أنواع أخرى من الفطر كبدائل، ومن هذه الأنواع قد يكون فضّل الأمانيتا موسكاريا لأنه الأكثر رواجاً في المناخ البارد وبسبب قدرته التخديرية (على الرغم من أنها غامضة) وشكله الملفت.

هناك عدد من الإشكالات المحتملة في هذه النظرية. الأكثر بروزاً بينها هو عدم التوصل إلى ما يؤكد وجود الستروفاريا كوبنسوس أو أي فطر آخر يحتوي على البسيلوسبين في الهند. فطر الأمانيتا موسكاريا نادر أيضاً في الهند. لكنني أتوقع مع ذلك أن البحث المتأني في الأنواع النباتية في الهند سوف يكشف عن أن الستروفاريا كوبنسوس كان من مقومات الحياة المألوفة في شبه القارة. إن تصحّر المنطقة الممتدة من الشمال الأفريقي إلى دلهي شوّه تصورنا لما حدث عندما كانت الحضارات القديمة في فترة نشوئها وكانت المنطقة ترتوي بمياه الأمطار الغزيرة.

عبادة فطر البسيلوسبين التي تزامنت مع ظهور الوعي في أراضي أفريقيا المعشوشبة، ربما كانت عبادة عرفها البشر جميعا. كل الرموز التي تدل على الدين الذي عرفه سكان الشرق القريب في الماضي البعيد يمكن ردّها إلى عبادة إلهة، وتبجيل الماشية، وقد تكون لها جذور بدائية تصل إلى طقس في غاية القدم يستند إلى تناول فطر البسيلوسبين لإحداث النشوة وتذويب حدود الأنا وإعادة توحيد المتعبّد مع الأصل النباتي الذي يجسّد الحياة الأرضية.

---

(٢٣) ماريجا غيمبوتاس: «The Goddesses and Gods of Old Europe, 6500-3500 B.C.: Myths and Cull Images». بيركلي، University of California Press، ١٩٨٢، ص ٢١٩.



الشكل (١٦)

حجارة خضراء على شكل الفطر من موقع فينا، من كتاب ماريجا غيموتاس:

«The Goddesses and Gods of Old Europe»، (بيركلي: University of California Press، ١٩٨٢، رسم ٢٢٣ و٢٢٥).

٨ . الشفق في عدن:
كريت المينوية ولغز الإيليوسينية

في ظل غياب مجتمع المشاركة وفقدان النباتات المخدرة التي تحفّز على المشاركة وتحافظ عليها، من الطبيعي أن يظهر الحنين إلى الجنة في مجتمع السيطرة. كان التخلي عن المحفّز الأساسي لظهور الوعي الذاتي واللغة، الستروفاريا كوبنسوس، الفطر الذي يحتوي على البسيلوسبين، عملية تمت على أربع مراحل. كل مرحلة شهدت مزيداً من الضعف في الإحساس بقوة وقداسة المعنى الكامن في اللغز.

كانت الخطوة الأولى للابتعاد عن المشاركة التكافلية بين الإنسان والفطر التي تميزت بها المجتمعات الرعوية الأولى، طرح بدائل نباتية مخدرة أخرى للفطر الأصلي. طاقة التخدير لهذه النباتات قد تتراوح بين التساوي في العمق مع طاقة السكر في الستروفاريا كوبنسوس، كما هي حالة المخدرات الكلاسيكية المعروفة في العالم الجديد، وبين الضعف النسبي. من الأمثلة على الأنواع الأخيرة الإيفيدرا، وهي نبتة منبهة، والعسل المخمّر.

التخلّي عن اللغز

قد يكون استخدام الستروفاريا كوبنسوس في أفريقيا عرف بعض التغيير المعقول: في ظل التغيرات، المتكررة، أو حتى المستمرة في طبيعة المناخ، أدّت المستويات المتدنية لتناول الفطر تدريجياً لأن يصبح تعاطيه موسمياً فقط. وكان تناول الفطر يصبح طقوسياً خلال فترة توفره الموسمي، وربما يكون هذا التقليد استمر عدة آلاف من السنين. ومع تزايد ندرة الفطر والبيئات المناسبة لنموه ربما كانت هناك محاولات للاحتفاظ به بعد تجفيفه وحفظه في العسل. وبما أن العسل يتخمّر بسرعة ويتحوّل إلى مخدر كحولي، من المحتمل أن يكون الناس آثروا تقليل كمية الفطر وزيادة كمية العسل تدريجياً إلى أن تشجعوا على استبدال طقس الفطر بطقس الميد. لا

نستطيع أن نتخيل تغييراً أكثر أهمية في القيم الاجتماعية من الذي رافق التحوّل التدريجي من تعاطي البسيلوسبين إلى تعاطي الكحول.

مثل هذا التدنيس التدريجي للسرّ المقدس للنبتة المخدرة يصل بسرعة إلى الخطوة الثانية بالتخلي عن اللغز الأصلي؛ الخطوة الثانية كانت استبدال المواد الفاعلة بأخرى غير فاعلة. في هذه الحالة، لا تكون البدائل، على الرغم من أنها في الغالب من النباتات، سوى مجرد رموز لقوة اللغز السابقة تكرّس أصالة الطقس عند المبتدئين.

وفي المرحلة الثالثة من العملية تكون الرموز هي كل ما تبقّى. في هذه المرحلة لا تستبعد النباتات المخدرة فقط بل كل النباتات، لتحلّ محلّها التعاليم السرية والعقيدة والشعائر والتأكيد على المادة المدوّنة والحركات والرسومات التي تفسّر نشأة العالم. أديان العالم الأساسية اليوم تمثل هذه المرحلة.

وتقودنا المرحلة الثالثة إلى التخلّي حتى عن ادعاء تذكّر الإحساس بالتجربة. وتتميز هذه المرحلة الأخيرة بالتوجه العلمي العلماني المهيمن على القرن العشرين.

نستطيع أيضاً أن نضيف منحى آخر لعملية التخلي في المرحلة الرابعة: اعادة اكتشاف اللغز وتفسيره بأنه شرّ يهدّد القيم الاجتماعية، وهذا ينعكس بالقمع الذي تتعرض له الأبحاث في مجال المخدرات وحالة الهيستيريا التي يثيرها إعلام الفوبيا العقاقيرية.

تحملنا الحضارة المينوية والعبادات السرية التي أفرزتها واحتوتها إلى مجال البدائل النباتية لبسيلوسبين الستروفاريا كوبنسوس. تلك العبادات استندت إلى استخدام نباتات قوية تساعد على تشكل الوجود الديني ـ لكنها على الأرجح لم تكن تعتمد مباشرة على موارد البسيلوسبين من أجل الوصول إلى النشوة. في كريت المينوية وفي إيليجيس في اليونان، عرفت مواد أخرى مثيرة للهلوسة واستخدمت كطرائق تقنية للنشوة. ساهمت الظروف الحضارية والمناخية في تحويل المصدر الأصلي لنشوة البسيلوسبين التي تزيل الحدود، إلى مجرد ذكرى، ولم تعد صورتها أكثر من رمز.

سقوط ساتال هويوك وعصر الملكية

جايمز ميلاّرت الباحث والمشرف على الموقع، قال إنه على الرغم من الحضارة المشرقة التي عرفتها ساتال هويوك فإنها لم تؤثر على المجتمعات من حولها. عرف المستويان «٥» و«٦ أ» حرائق مدمرة حوالي سنة ٦٥٠٠ ق.م. والمدينة هجرت وصار من الواضح أن عصر المدن غير المحمية، عصر المشاركة، أشرف على نهايته. منذ ذلك الحين وصاعداً ستشهد مؤسسات مجتمع

المشاركة وعبادة الإلهة الأم القديمة مزيداً من التآكل والتفتت في منطقة الشرق القريب. سكان ساتال هويوك تشتتوا، بعضهم لجأ إلى كريت:

قصة الحضارة المينوية تبدأ حوالي الألف السادس ق.م. مع وصول مجموعة صغيرة من المهاجرين، من الأناضول على الأرجح، إلى شواطىء الجزيرة. هؤلاء المهاجرون حملوا معهم إلهتهم ومعرفة زراعية مما يتيح تصنفهم في إطار العصر الحجري الحديث. في الأربعة آلاف سنة التالية عرف المستوطنون الأوائل تقدماً بطيئاً ومستمراً في تقنية صناعة الخزف والنسيج وتصنيع المعدن وحفر النقوش والبناء وغير ذلك من المهارات الحرفية، إلى جانب النمو التجاري والتحول التدريجي إلى الأسلوب المرح التي تتميز به كريت.

على الجزيرة التي هيمت عليها الإلهة لم يكن هناك ما يشير إلى وجود نزاعات أو حروب، بل ساد الرخاء وازدهرت الفنون. وحتى عندما خضعت الجزيرة أخيراً لسيطرة الإيجيين في القرن الخامس عشر ق.م ـ في هذه الفترة لا يعود علماء الآثار يشيرون إلى الحضارة المينوية بل إلى الحضارة المينوية ـ المسينية ـ ظلت ديانة الإلهة، وطريقة التفكير والعيش اللتان ترمزان إليها، هي السائدة[1].

الديانة المينوية ـ المسينية واقعية، تنمّي الشعور بحيوية «الحياة»، وتحتفل بالأحاسيس. وإلهة الطبيعة المينوية التي تحمل الثعبان تجسد هذه القيم. تبدو الإلهة في الرسومات بنهديها الممتلئتين والعاريين وهي تحمل ثعباناً ذهبياً. رأى بعض الباحثين المطلعين على التقاليد الشامانية أن الثعبان يرمز إلى روح الميت. هذه الإلهة كانت، مثل بيرسيفوني إلهة العالم السفلي، شامانة لها مقدرة عظيمة معروفة منذ أكثر من ألف عام[2].

في ذلك الوقت كانت موجات نزوح الهنود الأوروبيين المتتالية في آسيا الصغرى تخف تدريجياً، وبدأت الحضارات المدنية تتشكل على ضفاف الأنهار، كما هيمنت على المخيلة الجماعية أفكار الملكية وحرب العربات وأعمال الأبطال الذكور العظيمة. صار قوام الحضارة شن الحروب وبناء المدن المسوّرة. في عصر الملكية ظلّت كريت ـ وهي جزيرة وكانت في تلك الأزمنة بعيدة عن أحداث آسيا الصغرى ـ متمسكة بنمط المشاركة القديم.

ورثت الحضارة المينوية الغامضة تركيبة اجتماعية ومعرفة روحانية تعودان إلى ماضٍ سحيق منسيّ. وكانت النموذج الحيّ لمجتمع المشاركة المثالي الذي استمر ثلاثة آلاف سنة بعد انتصار مجتمع السيطرة في كافة الأماكن الأخرى.

---

(١) رايان إيسلر: «The Chalice an the Blade: Our History Our Future». سان فرنسيسكو، Harper & Row، ١٩٨٧، ص ٣٠ ـ ٣١.

(٢) مارتن ب. نيلسون: «A History of Greek Religion»، نيويورك، W.W. Norton، ١٩٦٤، ص ١٣.

أوهام الفطر المينوية

من الطبيعي أن نتساءل عن صلة المجتمع المينوي بالمصدر البدائي للقوة الكامنة خلف مجتمع المشاركة المثالي، خاصة البسيلوسبين. هل استمرت عبادة الفطر القديمة التي عرفتها جنة عدن الإفريقية في الحضارة المينوية؟ هل استمر الناس في البحث عن النشوة لكن عبر وسائل أخرى بسبب غياب الفطر؟

كيف نستطيع تفسير عبادة الأعمدة التي تميزت بها الديانة المينوية، علماً أن السوما عرفت في ريغ فيدا بأنها «عمود العالم»؟ من المتعارف عليه أن هذه الأعمدة تنسب إلى ديانة الإلهة العظيمة وطقوسها التي تستخدم فيها النباتات، لكن هل نعتبرها أصداء لذكرى الفطر؟

> كانت القصور تجسيداً لطابع الحضارة المينوية. وكانت على الأرجح مقدسة عموماً، مع أن غرفاً محددة فيها كانت تستخدم لممارسة الشعائر الدينية... في الطوابق العليا نجد عدة غرف يحتل وسط كل منها عمود يتسع عند قمته، كالعمود الموجود في المدفن المعبد قرب قصر كنوسوس، لا نستطيع أن نشك بالطبع أن هذا العمود كان يجسد معاني دينية[٣].

هل كان يشير بشكل خفي إلى لغز الفطر، أم كان تجسيداً لما تبقّى من صورته[٤]؟ كانت الأعمدة تعتبر عموماً رمزاً لشجرة مقدسة، وتترابط مع صور وشعائر، ذات دلالة نباتية، قديمة جداً، هل كان استخدام الفطر على جزيرة كريت عبادة ناشطة ومنتشرة، أم أنه كان فقط ذكرى استمرت من أزمنة مضت قبل وصول عبدة الإلهة إلى شواطىء الجزيرة؟ عرف العالم اليوناني القديم أهم ديانتين سرّيتين تواجدتا في القرن الرابع عشر ق.م. وهما كما نسميهما الديونيسية والإيليوتيسينية، وكانتا آخر معقلين في الغرب حافظا على استخدام النباتات المثيرة للهلوسة لإذابة الحدود الشخصية واكتساب المعرفة الروحية؛ المعرفة الحقيقية لطبيعة الأشياء والتي تعود إلى آلاف السنين. وعلى الرغم من هاتين العبادتين يمكن ردّهما إلى أصول كريتية، لكن ليس هناك ما يؤكد أن استخدام المواد المخدرة كان جزءاً من الشعائر المينوية لتمجيد الإلهة، ليس هناك دليل آثاري على هذه المسألة. لكن الدليل الحضاري، وسنتناوله بالتفصيل، يشير إلى أن إليوسيس، الديانة الإغريقية الأكثر غموضاً، كانت تقوم على تخدير جماعي بالنباتات للوصول إلى النشوة.

قد نجد في إحدى الأساطير اللافتة والموحية ما يلقي الضوء على مسألة استخدام النبات

---

(٣) كارل كيرنيي: «Dionysis: Archetipal Image of Indestructible Life Bollingen Series LXV»، برينستون، Princeton University Press، ١٩٧٦، ص ١٧.

(٤) إيلمرج. شوهر: «Befor Olympis». نيويورك، Helios Books، ١٩٦٧.

المخدّر في الطقوس المينوية ـ المسينية. هذه الأسطورة تحكي قصة غلوكوس، إبن الملك مينوس وياسيفاي، إلهة القمر، ولم تحظ بالاهتمام الذي تستحق من قبل الدارسين، وهي مدوّنة كاملة في مصدرين متأخرين فقط، عن أبولودوروس وهيجينوس؛ وذكر بعض الكتاب الأكثر قدماً مقاطع متفرقة منها[٥]. وتظهر أيضاً أجزاء من القصة في «كريساي» إيسخولوس، و«مانتيز» سوفوكليس، و«بوليدوس» يوريبدس. إعجاب هؤلاء الكتاب الكبار بالأسطورة دليل على أنها كانت معروفة في الفترة الكلاسيكية. إنها قصة قديمة، تعود بالتأكيد إلى مرحلة التفكير الميثولوجي الأغريقي ما قبل التاريخ المدوّن. سنعيد روايتها استناداً إلى أبولودوروس[٦].

أسطورة غلوكوس

عندما كان غلوكوس، ابن مينوس وياسيفاي طفلاً صغيراً مات لأنه وقع في جرة Pithas مليئة بالعسل وهو يطارد فأراً أو ذبابة؛ المراجع ليست واضحة في هذا الخصوص. بعد اختفائه قام والده مينوس بعدة محاولات للعثور عليه، وأخيراً قصد العرّافين لميستشيرهم في كيفية متابعة البحث. قال «الكورتيس» أن مينوس يملك في قطعانه بقرة ذات ثلاثة ألوان مختلفة، وأن الرجل الذي يستطيع أن يعبّر بأفضل تشبيه عن هذه الظاهرة هو نفسه سيعرف كيف يعيد الصبي إلى الحياة. اجتمع العرافون لهذه المهمة، وأخيراً شبه بوليدوس ابن كوريانوس ألوان البقرة بثمرة العليق. وفرض عليه عندئذ البحث عن الصبي، وتمكن أخيراً من العثور عليه بقوى عرافته، لكن مينوس أصرّ أن يعيد بوليدوس الصبي إلى الحياة، فأغلق عليه باب القبر مع جثة الصبي. كان مستغرقاً في حيرته عندما رأى ثعباناً يقترب من الجثة. خاف على حياته إن أصيب جسم الصبي بمكروه فتناول حجراً ورمى به الثعبان وقتله. ثم تقدم ثعبان آخر من الجثة ليعود بعشبة وضعها على الثعبان الأول مقتولاً اختفى ليعود بعشبة وضعها على الثعبان الميت، فأعادته مباشرة إلى الحياة. رأى بوليدوس ذلك بدهشة عظيمة، وأخذ العشبة ووضعها على جسم غلوكوس، الذي نهض في الحال من الموت. ومع أن مينوس حقق رغبته وأحيا ابنه، لكنه لم يسمح لبوليدوس بالعودة إلى موطنه آرغوس قبل أن يعلم غلوكوس فن العرافة. أطاع بوليدوس أوامر مينوس وقاد الصبي في معرفة هذا الفن. لكن عندما كان بوليدوس يهم بالإيحاء بعيد طلب من غلوكوس أن يبصق في فمه. غلوكوس فعل ذلك وبدون قصد خسر قدرة العرافة.

بهذا أكون أنهيت حديثي عن سلالة أوروبا[٧].

إذا أردنا تحليل هذه القصة الغريبة نجد أولاً أنه من الضروري الانتباه لإسمي الشخصيتين

(٥) «Ly Kophron»، ص ٨١١، «Tzetes, Scholia on Lykophron» ص ٧٩٨. «Eusta thios, Scholia on Homer»، ص ٣٦٩، ٢٠، ٨٩٤، ٤٢.

(٦) «Bibliotheke III»، ص ٣ وما يليها.

(٧) أكسيل و. برينسون: «The Religion of Greece in Prehistoric Times». بيركلي، University of California Press، ١٩٤٢، ص ١٠.

الرئيسيتين: بوليدوس ومعناه «الرجل الذي عنده أفكار كثيرة» وغلوكوس ويعني ببساطة «الأزرق ـ الرمادي». كان معنى اسم غلوكوس بالنسبة لي المدخل لفهم مغزى الأسطورة. من المعروف عند العالمين بالفطور أن فطر ستروفاريا كوبنسوس وسائر أنواع فطر البسيلوسبين تصطبغ باللون الأزرق عندما تخدش أو تكسر. هذا الصباغ الأزرق ينتج عن تفاعل إنزيمي، وهو مؤشر يعتمد عليه لإثبات وجود البسيلوسبين. غلوكوس الصبي الذي حفظ في جرة العسل، يجسد على ما يبدو رمز الفطر نفسه. واسون يشير إلى المرات العديدة التي ذكر فيها العسل وصلته بالسوما في الفيدا. ورفض احتمال أن يكون الميد، شراب العسل المخمّر، له علاقة بتحضير السوما: «العسل، مادهو (Madhu) مذكور مراراً في الفيدا، لكن ليست هناك أية إشارة للميد. العسل يذكر لحلاوته ويستخدم غالباً كاستعارة لتعزيز السوما. هناك ما يحمل على الافتراض أنه كان يستخدم في بعض المناسبات ليمزج مع السوما، لكن النصوص لا تخلط أبداً بين الإثنين»[٨].

العسل والأفيون

خواص العسل المانعة للعفونة جعلت معظم الناس يفضلونه لحفظ أطعمتهم المترفة. وكان العسل يستخدم في المكسيك لحفظ الفطر الذي يحتوي على البسيلوسبين. حكاية غلوكوس، الأزرق الرمادي، الذي وقع في وعاء عسل (يشبه مدافن الفلسطينيين القدماء Natufians التي كانت على شكل الدلو) وظل محفوظاً هناك إلى وقت بعثه، فيها الكثير من الإيحاء. يشير هيرودوت إلى أن البابليين كانوا يحفظون أمواتهم في العسل، واستخدام أوعية التخزين الكبيرة أو Pithoi لدفن الموتى كانت ظاهرة معروفة في منطقة إيجه في العصر البرونزي. ويرد ذكر الماشية في القصة. في الجزء الغريب الذي يتعلّق بتشبيه البقرة ذات الألوان الثلاثة وضرورة إثبات المقدرة اللغوية كشرط مُسبق لحيازة المقدرة التي تتيح العثور على الصبي المفقود. والثعبان، المعروف في قصة سفر التكوين عن جنة عدن، له حضور بارز ـ وهو يثبت ثانية أنه يمتلك معلومات دقيقة وسرية من النباتات، خصوصاً النباتات التي تهب الحياة الأبدية. بوليبدوس، الذي يلعب دور الشامان، يستخدم المعلومات التي أخذها من الثعبان ليعيد الحياة إلى غلوكوس؛ ثم يشرك الصبي في معرفته الشامانية، تلك المعرفة تخرج من غلوكوس فيما بعد وترجع إلى المعلم الذي كان على أهبة الرحيل. وقد يكون في ذلك إشارة إلى الطبيعة المحيّرة للتصورات التي تتراىء خلال التخدير بالفطر.

(٨) ر. غوردون واسون: «Soma: Divine Mushroom of Immortality». نيويورك، Harcourt Brace Jovanovich، ١٩٧١، ص ١٦.

. من الواضح أن الحكاية محرّفة في هذه النسخة، وأن التشبيه المتعلّق بالبقرة ذات الألوان الثلاثة لا معنى له؛ لكن كل العناصر التي توحي بالتمسك بعبادة الفطر التي تكاد تصبح منسية متوفرة في النص ـ الموت والبعث، الماشية، الثعبان ومعرفته النباتية، الطفل الأزرق الرمادي الذي يُحفظ في العسل. وتقدم عبادة الفطر في العالم الجديد مثالاً موازياً: في أميركا الوسطى يشير الناس إلى نباتات الفطر المخدر بأنها أطفال صغار Los ninos ـ «الصغار العزيزون»، هكذا سمتها ماريا سابينا، شامانة الفطر في هُوَاتلا دو جيمنيز. هنا تتجسد صورة أطفال الكيمياء القديمة، أطفال يسكنون عالماً سحرياً قريباً يمكن الوصول إليه بواسطة البسيلوسبين.

قد لا نعرف بالتأكيد الدور الذي لعبته الفطريات والنباتات المثيرة للهلوسة في العالم المينوي. أمور كثيرة تتغير خلال أربعة آلاف سنة، ونحن نعرف من دراسة كيرنيي وغيره أن الحضارة المسينية ـ المينوية كانت أكثر اهتماماً بالأفيون منها بسائر النباتات المخدرة:

> نستطيع الافتراض بأنه عند نهاية المرحلة المنيوية كان استخدام الأفيون معروفاً لتقوية حاسة البصر وإحداث التهيؤات؛ وهذه النتائج كان يمكن الحصول عليها قبل ذلك بدون الأفيون. خلال فترة معينة استطاعت تجربة الحثّ المصطنع للسمو في الطبيعة أن تحلّ محل التجربة الأصلية.
>
> في تاريخ الأديان تسيطر مراحل «العلاج الحاسم» عادة عندما لا تعود الطرائق البسيطة كافية... كان الأفيون منسجماً مع نمط الحضارة المينوية وساعد على المحافظة عيلها. ومع أفول تلك الحضارة تراجع استخدام الأفيون. تلك الحضارة تميزت بجو عام تطلب في النهاية «علاجاً حاسماً». نمط العيش المينوي يمكن رؤيته من خلال ما أسميه «روح» الفن المينوي. وهذه الروح لا يمكن تصوّرها من دون الأفيون[٩].

إن انفتاح المجتمع المينوي الذي سمح باستخدامه الأفيون في الطقوس الدينية دليل على استعداده لحث النشوة وحالات الوعي المختلفة بواسطة النباتات. وهنا يبرز احتمال قوي أن يكون المجتمع نفسه عرف في السابق نباتات أخرى كانت تستخدم لغايات مشابهة.

ديونيسوس

ديونيسوس ابن زيوس وسيميليه الفانية، إله التخدير الذي يذهب بعقول النساء، لم يكن نموذجا مريحًا بين آلهة الإغريق. سيطرت عليه ملامح القدم والوحشية والغرابة. إنه إله نباتي، إله مجنون ، وإله فان، إله العربدة وتنشيط الذكورة والخدر ـ والأكثر من ذلك أن قصته منذ ولادته العجائبية تضمنت تفاصيل فريدة. ديونيسوس ولد مرتين لأن أمه ماتت، قضي عليها في عاصفة برق قبل أن تلده:

> جسد سيميليه البشري لم يقو على تحمل الصاعقة فاحترق، وأسرع الإله فانتزع الجنين الذي لم يكن

(٩) كيرنيي، (نافذ)، ص ٢٧.

قد اكتمل نموه وأخرجه من بطن أمه وأفسح له مكاناً في جسمه حيث أبقاه مدة شهور الحمل، ثم ترك ابنه يرى النور[١٠].

فكرة الإله الذي يولد مرتين تستبق لغز المسيحية في نواحٍ لم يتناولها الدارسون بالبحث. فقط في المرحلة الأخيرة من الحضارة الإغريقية تحول ديونيسوس إلى إله الخمر وعربدة السكر؛ الطور المادي الأكثر قدماً يزداد غموضاً وغرابة.

سيميليه كانت واحدة من أربع بنات لكادموس، ملك طيبة، كما ورد عند غرايفز[١١]. وسيميليه على الرغم من أنها من البشر عُبدت وكرمت كإلهة. كانت طقوس تمجيد الإله ديونيسوس على جزيرة ميسونوس مرتبطة بطقوس تمجيد أمه. أعاد الباحثون النظر في مسألة فناء سيميليه وقرروا أنها ربما كانت إلهة منذ البداية. كيتشنر أشار إلى أن أبولودوروس ساوى بين سميليه والأرض.

في الطور الأكثر قدماً، الطور المينوي، ديونيسوس هو ابن الإلهة العظيمة الخاضع تماماً لمشيئتها. هذه النقطة قد تكون بالغة الأهمية في كشف التناقض بين علاقتي المشاركة والسيطرة في العالم القديم. ألم يكن ديونيسوس في عربدته وجنونه وفي تشخيصه لنشوة التخدّر، صورة عن الأزمات الروحية التي أطاحت بالمثال المينوي البدائي؟ إله ذكر، لكنه ملطف بقيم العربدة في الحضارة الأرضية، إله فان، يجسد معاناة الموت في العلاقة التكافلية مع النبات والتي سوف تقضي عليها في النهاية السيطرة الذكورية والمسيحية واللغة الملفوظة، عبادة إله لا يقدر على معرفته إلاّ المبتدئين، وهؤلاء من النساء غالباً، وهو من وجهة النظر الأبوية رمز متوحش وقديم ومحتمل الخطورة.

دخل الفكر الديونيسي اليونان الرزينة من الجنوب من حضارات عاشت على الجزر وتعود إلى عشرة آلاف سنة، إلى عبادة الإلهة الأم: أتت من آسيا الصغرى، لكن الحضارة المينوية احتضنتها أربعة آلاف سنة. كانت الأسرار التي زرعت على الشواطىء الإغريقية في إيلومسيس الأعراف الأخيرة والأكثر تعقيداً وغرابة في العبادة البدائية للإلهة والماشية ونشوة التخدير بالمواد المثيرة للهلوسة.

لغز إيليوسيس

في كل سنة، في شهر أيلول/سبتمبر، وعلى امتداد ألفيّ سنة تجاوزت المرحلة الزمنية

(١٠) والتر ف. أوتو: «Dionysus Myth and Cult». بلومينغتون، India University press، ١٩٦٥، ص ٦٥.

(١١) روبرت غرايفز: «The Greek Myths». مجلدان. بالتيمور، Penguin، ١٩٥٥، ص ٥٧.

لحضارتيْ الإغريق والرومان الكلاسيكيتين، كان يقام احتفال كبير على السهل الإيليوسيني قرب أثينا. تقول الأسطورة أنه في ذلك المكان التقت الإلهة ديميتير بابنتها كور أو بيرسيفوني، التي اختطفها بلوتو سيد العالم السفليّ وحاكمه. هاتان الإلهتان، اللتان تبدوان شقيقتين أكثر من أنهما أم وابنتها، هما الشخصيتان اللتان تدور حولهما احتفالات الأسرار الإليوسينية. كان عيد الأسرار يقام في مناسبتين خلال السنة الأثينية: الأسرار الصغرى تجري طقوسها في الربيع للترحيب بعودة النباتات وهي تمهّد للأسرار العظمى التي تجري طقوسها في فترة الحصاد. وكانت الأسرار مرتبطة بشكل واضح بالديانة المينوية:

تعود البنى الدينية الأكثر قدماً إلى ما قبل المرحلة الهلّينية؛ اسم إيليوسيس يرتبط بكريت ما قبل الهلّينية، بعض الأواني الطقوسية مثل Kernoi وأباريق الإراقة هي قواسم مشتركة بين العبادتين الإيليوسينية والمينوية؛ شكل العبادة ربما يعود إلى تطور ما كان معروفاً بالمسرح المينوي؛ الأناكتورون يشبه المذابح الكريتية وما عرف بمقامات البيوت؛ طقوس الطهارة في العبادة الإيليوسينية تعود إلى كريت، حيث كانت في الأصل من ممارسات الديانة المينوية؛ جوهر الأسرار عبادة الخصب، وهي أيضاً جوهر الديانة المينوية؛ هناك ناموس قديم مزدوج يعود بالأسرار إلى كريت: ديودوروس من ناحية، وقصيدة هوميروس إلى ديميتر من ناحية ثانية... هذه الاستنتاجات تكرّست منذ حوالي عشرين سنة ومنذ ذلك الوقت بدأ دارسو تاريخ الأديان يتبنونها. صحة التفسير التي تم التوصل إليها بدون المعرفة الأكثر تعمقاً للمحتوى الأساسي للديانة المينوية التي نمتلك اليوم، تزداد قوة بنتائج الدراسات الحالية[١٢].

على الرغم من أن إيليوسيس لفت انتباه العديد من الباحثين، لكننا لا نعرف على وجه الدقة ما الذي جعل العرف السري يفرض نفسه بهذه القوة على المخيلة الهلينية حتى يعمد كل المميزين وعلى امتداد ألفي سنة إلى المشاركة بعيد الحصار الكبير الذي يحتفل به في سهل أثينا.

مؤرخ الأديان الفرنسي لوكلير دو سيبتشن كتب ما يلي في أواخر القرن التاسع عشر:

يقول شيشرون أن الناس أتوا من كل الأنحاء كي يتلقنوا هنا. «هل هناك بين الإغريق، يقول أرستيدس، أو البربر، من يمنعه جهله أو قلة ورعه عن رؤية إيليوسيس معبد العالم كله؟» ذلك المعبد شيّد في بلدة في جوار أثينا، على الأرض التي أعطت خيرات سيريز. كان مميزاً بروعة بنائه واتساعه الكبير؛ وقد أشار سترابو إلى أنه كان يستوعب عدداً كبيراً من الناس كأكبر مدرّج[١٣].

قوة الأعراف السرية الإيليوسينية تكمن في أنها لا تتضمن عقيدة، بل تشتمل على عدد من الممارسات المقدسة التي تولّد إحساساً دينياً يستطيع كل متعبّد أن يعكس عليه الإيحاء الذي يرغب فيه. الباحثون التقليديون الذين كانوا بعيدين عن استيعاب قدرة النباتات الملهوسة على

---

(١٢) برينستون، (نافذ)، ص ١٥٠.

(١٣) لوكلير دو سيتشين: «The religion of Ancient Greeks». لندن، Elliot and T. Kay، ١٧٨٨، ١٨٠.

تغيير الواقع، سقطوا ضحية موقفهم المتحامل على النشوة والذي يمثل التوجه البطريركي المتصلّب، ووقفوا حائرين أمام الأعراف السرية. وحيرتهم هذه أوصلتهم إلى تخمينات مشوّهة.

> ألفريد ديتريش افترض أن ما رُفع من الصندوق أثناء ممارسة الطقوس كان قضيباً. لكن هذه الفرضية لا تتوافق مع كون عبادة ديميتير عبادة أنثوية. لذلك لقي ألفريد كورت ترحيباً كبيراً عندما أعلن أنه بالتأكيد رمز جنسي أنثوي. وهكذا صار كل شيء واضحاً تماماً. عندما يلمس المتعبد «الرحم»، كما سمي الرمز الجنسي، يُبعث من جديد؛ وطالما أن هذا الطقس كان بمثابة الذروة في الأعراف السرية، تصوّر لودفيغ نواك أن الهيرفنت كان يعرض هذا «الرحم» للحشود أمام وهج مضيء، وأن المبتدئين عندما يرونه تتملكهم البهجة بأنهم أبناء الآلهة. من الصعب أن نذكر هذه الآراء دون أن نبتسم(١٤).

عرض العضو الجنسي الأنثوي يثير بالتأكيد غرفة مليئة بالرجال في العصر الفيكتوري الكلاسيكي، لكننا نريد أن نعتقد أن المعين الصوفي للعالم الكلاسيكي كان أكثر من مجرد صندوق فرجة.

لغز تخديري؟

لا مجال للشك في أن المشاركين في احتفال إيليوسيس كانوا يتناولون شراباً ما وأن كل مبتدىء كان يرى خلال فترة التهيؤ ما لم يكن يتوقعه، ويظل يرافقه طوال حياته. إنه لدليل لا يصدق على بلادة المجتمع المتسلط. أن أحداً لم يجرؤ على الافتراض، قبل عام ١٩٦٤، أن الطقوس ربما تضمنت استخدام نبتة مهلوسة. وكان الذي تبنى هذه المبادرة الشاعر الإنكليزي روبرت غرايفز في مقالته: «ولادتا ديونيسوس»:

> قال إن السر الذي أطلقته ديميتير عبر العالم من إيليوسيس عن طريق محميتها تريبتوليموس كان سرّ فن الخياطة وزراعة الحبوب... هناك خطأ ما. تريبتوليموس تعود إلى أواخر الألف الثاني ق.م، ونحن نعرف أن الحبوب كانت تزرع في جرش وغيرها منذ الألف السابع ق.م. لذلك فإن أخبار تريبتوليموس لن تكون أخباراً جديدة.. كان سرّ تريبتوليموس إذاً متعلقاً بالفطر المثير للهلوسة، وأنا أعتقد أن الكهنة في إيليوسيس كانوا قد اكتشفوا بديلاً أكثر توفراً من الأمانيتا موسكاريا، هذا الفطر البديل يمكن خبزه في الكعك القرباني، ويصنع على شكل الخنازير مثلاً، دون أن يفقد قوته في إثارة الهلوسة(١٥).

تلك كانت الملاحظة الأولى التي أعلنها غرايفز حول التقليد الباطني لاستخدام الفطر ما قبل

---

(١٤) بحث والتر ف. أوتو: «The Meaning Of The Eleusinian Mysteries». في كتاب جوزيف كامبل: «Eramos Yearbook Number Two: The Mysteries». نيويورك، Pantheon، ١٩٥٥، ص ٢٣.

(١٥) روبرت غرايفز: «Difficult Questions, Easy Answers». غاردن سيتي، نيويورك، Doubleday، ١٩٦٤، ص ١٠٦ - ١٠٧.

التاريخ. وقد اقترح على الزوجين واسون زيارة المكسيك للبحث عن أدلة تدعم نظريتهما حول أثر الفطر المخدر على الحضارة. يعتقد أن الوصفات التي يتناقلها قلة من الموثقين لتحضير شراب الطقوس الإيليوسينية تتضمن مواد قد يكون مجموع أحرفها الأول يتوافق مع كلمة فطر (بالإنكليزية Mushroom) ـ المادة السرية. مثل هذه الشيفرة تدعى «الأوغمية» على غرار الأسلوب الشعري المماثل الذي ورد في الأحاجي والأشعار الإيرلندية. يعلن غرايفز بصراحة للقراء «تستطيعون اعتباري مجنوناً» لكنه يواصل الدفاع عن فكرته هذه أيضاً.

ربما لن نستطيع أبداً معرفة طبيعة النباتات المثيرة للهلوسة التي كانت وراء الأعراف السرية الإيليوسينية أو التي جعلت المحتفلين بديونيسوس يعيشون نوبة تهيمن عليهم وتتملكهم وتبعث الخوف في نفوس من يراهم. غرايفز فتح طريق البحث في الحقيقة النباتية خلف السر الإيليوسيني المقدس، ثم ارتاح لرؤية صديقه واسون يخوض في هذا المجال الجديد بتصور جريء ومقنع.

نظرية البيرة الأرغوتية

فكرة واسون التي توصّل إليها بالتعاون مع زميليه ألبرت هوفمان وكارل راك، كشف عنها في مؤتمر حول الفطريات عقد في سان فرنسيسكو سنة ١٩٧٧، مفادها أن طقوس إيليوسيس تضمنت التخدير لكن الفطريات لم تكن ذات علاقة مباشرة بالأمر. كان واسون مقتنعاً بأن مصدر التخدير كان نوتاً من البيرة المخمرة لعصير فطريات أرغوتية.

كي نستطيع الحكم على هذه النظرية لا بدّ لنا من إلقاء نظرة خلفية عامة. كانت للحبوب أهميتها البالغة في عبادة إيليوسيس. عيد الأسرار كان عيداً للحصاد، واحتفالاً في الوقت نفسه بسرّ الزراعة ولغز الإلهة الأم وديونيسوس. كلافيسيبس بوربوريا Clavicepos Purpurea فطر صغير يصيب الحبوب وينتج الأرغوت، وهو مصدر قلوي فاعل قادر على إحداث الهلوسة (كما أنه يهيىء لانطلاقة العمل ويتسبب في إنقباض الأوعية الدموية). اللون الأرجواني الذي ينسب تقليدياً لثوب ديميتير قد يكون رمزاً للون السليروتيا Selerotia الأرجواني المميز، وهو أرغوت أرجواني يمثل فترة راحة غير جنسية في دورة حياة الفطر. تبزغ فيه الغصينات وتتجمع لتشكل محفوظات غشائية تتكون فيها الأبواغ والتي تشبه بالفعل الفطور الصغيرة، لكنها ليست أرجوانية بل يميل لونها إلى الأزرق الباهت. دافع واسون وزميلاه عن نظريتهم على النحو التالي:

من الواضح أن أرغوت الشعير كان المادة المخدرة في الشراب الإيليوسيني. علاقته التكافلية مع الشعير

تحمل دلالة المصادرة والتحويل في الروحية الديونيسية التي تضيع فيها الحبّة، إبنة ديميتير، في عناق زفافها إلى الأرض. الحبة والأرغوت يتحدان في علاقة لا جنسية، ويحملان منذ ضياع العذراء إمكانية رجوعها وإمكانية ولادة الابن القضيبي (الفطر) الذي سينبت من جسمها. وهناك خنثوية مشابهة في الأساطير عن المرأة المخصبة المنفّرة التي كانت بحركاتها الفاحشة تثير بهجة ديميتير الحزينة قبل تناولها الشراب[١٦].

نظرية واسون وهوفمان لا تخلو من الجرأة وحسن التعليل. وكانا في نقاشهما تحدثا عن فضيحة سنة ٤١٥ ق.م. التي طالت ألسيبياديس أحد نبلاء أثينا الذي أدين لأنه أقام الطقوس الإيليوسينية في بيته واستخدمها للترفيه عن أصدقائه، وهذا يعني بوضوح أنه مهما كان نوع المحفز للنشوة المستخدم في إيليوسيس فإنه كان محفزاً مادياً.

فكرة استخدام البيرة الأرغوتية في الطقوس الإيليوسينية تتوافق تماماً مع الفكرة القائلة بأن تلك الطقوس تمتد جذورها إلى جزيرة كريت المينوية. سنة ١٩٠٠ كان السيد آرثر إيفانز ينقّب قرب قصر كنوسوس ووجد أوعية مزينة بسنابل شعير نافرة. افترض عندئذٍ أن سكان كريت عرفوا نوعاً من البيرة قبل النبيذ. كيريني يعتقد أن صغر حجم هذه الأواني يدل على أنها كانت تحتوي على نوع خاص من شراب الشعير ـ القربان الملهم في الاحتفالات الإيليوسينية ـ وكان يستخدم في الطقوس التي «قيل أنها كانت تقام بدون سرية في كنوسوس»[١٧].

إن الباحث الذي قد يسعى إلى التأكد من صحة نظرية واسون ـ هوفمان هو الذي سيتحمل بالطبع عبء التوصّل إلى الدليل القاطع، وحتى اليوم لم يحاول أحد الخوض في هذا المجال. أي تخمير مادة مهلوسة رفيعة المستوى في حبوب أصيبت بالأرغوت. وهناك مشكلة خاصة تتطلب التوقف عندها: تقول سجلات الذين تعاطوا الحبوب المصابة بالأرغوت أن النتائج كانت غير مفرحة. الأرغوت مادة سامة. سنة ٩٩٤ أدت إصابة الحبوب بالأرغوت إلى مصرع حوالي ٤٠,٠٠٠ ألف شخص في فرنسا؛ وفي حالة أخرى لتفشّي الوباء سنة ١١٢٩ قتل حوالي ١٢٠٠ شخص. وأشارت المؤرخة ماري كيلبورن ماتوسيان مؤخراً إلى أن حالة «الذعر الكبير» سنة ١٧٨٩، التي سادت في زمن الثورة الفرنسية، تمتد جذورها إلى خبز الجاودار المصاب بالأرغوت والذي كان يشكل الغذاء الأساسي لفلاحي الأرياف في تلك المرحلة، واعتبر البعض أيضاً أن الطحين المصاب بالأرغوت كان عاملاً من عوامل انهيار

(١٦) ر. غوردن واسون، ألبرت هوفمان، كارل راك: «The Road to Eleusis». نيويورك، Harcoourt Brace Jovanovich، ١٩٧٨.

(١٧) كيريني، (نافذ)، ص ٥٣.

الامبراطورية الرومانية وإحراق الساحرات في سالم[١٨]. فيما يلي تلخيص لتأثيرات الأرغوت:

سريرياً هناك نوعان معروفان من الأرغوتية، الغنغريني والتشنجي. تبدأ الإصابة بالأرغوت الغنغريني بالإحساس بوخز في الأصابع ثم التقيؤ والإسهال، وفي غضون أيام قليلة تظهر الغنغرينة في أصابع القدمين واليدين. ثم تصاب الأطراف بكاملها بغنغرينية جافة. والنوع التشنجي يبدأ بالطريقة نفسها وتتبعه نوبات ألم في عضلات الأطراف تتطور إلى ما يشبه تشنجات داء الصرع. كثيرون من المرضى يصابون في الوقت نفسه بالهذيان الارتعاشي[١٩].

من الواضح أن تجارب كريهة قد تنتظر أولئك الذين يحاولون بأنفسهم تجريب صحة نظرية واسون ـ هوفمان حول إيليوسيس. هناك علماء متمرسون في دراسة الفطريات وآخرون جريئون في هذا المجال، لكن لا يوجد علماء متمرسون وجريئون في الوقت نفسه. إنطلاقاً من نظرية واسون حول هوية السوما نجد أن المشكلة هي الحصول على حالة تخدير يُعتمد عليها من المصدر المفترض فيه أنه مخدر. إذا كان صحيحاً أن مصدر اللغز الإيليوسيني كانت البيرة المصابة بالأرغوت، كيف كانت تستهلك إذاً عبر القرون دون أن تذكر مؤثراتها الكريهة كجانب من الأسطورة؟

قد يكون هناك ردّ على هذه الصعوبات. كلافيسيبس باسبالي الذي يصيب الشعير أكثر من الجاودار قد يحتوي على نسبة عالية من المخدر لكنه يحتوي على نسبة أقل من القلويات السمية «البسيطة» (تشبه تلك الموجودة في نجمة الصباح) ومن القلويات السمية التي تحتوي على البيبتيد. وكما أشار واسون وهوفمان في كتاب The Road To Eleusis إن نقع الحب المصاب بالأرغوت في الماء يؤدي إلى فصل القلويات المخدرة القابلة للذوبان عن القلويات القابلة للذوبان في الدهنيات.

نظرية غرايفز حول البسيلوسبين

إذا أثبتت الأبحاث المستقبلية أن الأرغوت لم يلعب دوراً في إيليوسبين عندئذٍ يجب النظر بمزيد من الجدية إلى إصرار غرايفز على الفطور التي تحتوي البسيلوسبين. ربما تكون معرفة نبتة أور، نبتة الإلهة، ستروفاريا كوبنسوس، أو أي نوع آخر من الفطور التي تحتوي على البسيلوسبين، استمرت عبر الحقبة المنيوية المسينية وحتى تدمير إيليوسين.

ومهما تكون طبيعة القربان الإيليوسيني فإنه حاز على احترام وحتى حب الكتاب

(١٨) ماري أليرتون كيلبورن ماتوسيان: «Poisons of the Past: Molds, Epidemics and History». نيوهايفن، Yale University Press، ١٩٨٩.

(١٩) أ. هوفر وهـ. أوزموند: «The Hallucinagens». نيويورك، Academic Press، ١٩٦٧، ص ٨٤.

الكلاسيكي الذي استشهدوا به، كالشاعر اليوناني بيندار الذي قال: «سعيد من شارك في تلك الطقوس وتجاوز الأرض الجوفاء؛ لأنه يعرف نهاية الحياة ويعرف بدايتها الإلهية؛ مع زوال إيليوسيس اختفى نهر المشاركة وعبادة الإلهة والنشوة التخدرية الذي استمر تدفقه أكثر من عشرة آلاف سنة، في عالم الأديان المنسية. انتصار المسيحية شكل نهاية تمجيد الطبيعة والأرض كقوتين روحيتين عاليتين. وما سمّاه إيسلر «إنتصار السيف» في النماذج الاجتماعية التسلطية التي تكرس الأبدية والبطريركية، كان انتصاراً متكاملاً في كل الأنحاء. لم يبق سوى صدى ضئيل للأساليب القديمة تعكسه بعض المجالات المتكتمة كالاهتمام بالكيمياء القديمة والسحر والقِبالة والتداوي بالأعشاب.

الحدّ التاريخي الفاصل

مع أفول كريت المينوية وأسرارها، تجاوزت البشرية حداً فاصلاً وانتقلت إلى عالم تتصاعد فيه باستمرار حدة الفراغ والسيطرة الذاتية، تندمج قواه في التوحيد والنظام الأبوي والهيمنة الذكورية. ومنذ ذلك الحين ضعفت صلات العالم القديم بالنبات وتحولت إلى «ألغاز»، ومجالات تثير اهتمام قلّة من الرحالة الأثرياء والذين تملكهم الهاجس الديني، والذين يسعون إلى السخرية والتشكيك مؤخراً.

مع تلاشي الأسرار ساعدت الحروف الصوتية على دفع نحو عالم اللغة المحلية والمكتوبة بعيداً عن عالم الوعي الصوري الكلي. هذه التطورات ساهمت في تعزيز ظهور نمط حضاري يتصف بالسيطرة واللاتصورية. وبدأ ليل الروح الكونية المعظم، الذي نسميه الحضارة الغربية.

٩ ـ الكحول وخيمياء الروح

كانت تجارب النشوة والشهوة والرؤية وزوال الحدود، الأسرار المحورية في عبادة الفطر، عوامل فاعلة ساعدت أسلافنا أن يكونوا بشراً. الإحساس العام الذي أحدثته ساهم في حفظ تماسك المجتمع. وقوة الفطر المقدسة والملهمة حكت من خلال شعراء الملاحم والمغنين. وروح الفطر التي سكنت الإنسان حركت اليد التي حفرت العظام وصبغت الحجارة. تلك الأمور كانت مألوفة في عالم الإلهة، عالم الجنة. لم تكن الحياة كما اخترنا أن نتصوّرها، على حافة البهيمية البكماء، بل أقرب لأن تكون تعبيراً عفوياً، سحرياً ولغوياً نتحسس اليوم ومضات مجتزأة منه عندما نعيش تجربة التخدر، لكن هذه التجربة كانت في الماضي واقعاً تجلى فيه حضور الإلهة العظيمة وهيمنتها.

الحنين إلى الجنة

تاريخ البشرية حكاية آلام فقدان هذا العالم الإنساني المتكامل، ومن ثم فقدانه تماماً، وإنكاره؛ ونحن بذلك ننكر وجود جزء من أنفسنا. إنها حكاية بناء علاقة مع النباتات، والاندماج معها في إطار تكافلي، وكسر ما بنيناه فيما بعد. لم نعد نرى أننا جزء من المحرك النباتي الأخضر في الطبيعة، وهذا انعكس في انسلاخنا عن كل ما يحيط بنا وينذر بمستقبل لا يحتمل.

شعلة إيليوسيس استمرت عدة قرون قبل أن تنطفيء، وانهارت معها فكرة المشاركة وعبادة الإلهة الأم والشكل الاجتماعي الذي تطور من خلالها. ثم توالت قرون عديدة من الحنين إلى الجنة وأنهار السوما السماوية فيها، حنين أخذ أشكالاً جديدة ومتنوعة طالما كان الناس يحاولون إرضاء توقهم الداخلي للتخدر.

كل المخدرات الطبيعية، والمنبهات، وعقاقير الاسترخاء، والمواد المثيرة للهلوسة، التي يعرفها علماء النبات

. والعقاقير في العصر الحديث اكتشفها الإنسان البدائي واستعملها منذ القدم. من الأمور الأولى التي فكر فيها الإنسان الأول بعقلانيته ووعيه الذاتي الآخذيْن في التطور، إيجاد طريقة لتجاوز التفكير التحليلي والسمو فوق الإدراك الاعتزالي للذات، وحتى نسيانه مؤقتاً. جرّب كل ما كان ينمو في الحقل أو الغابة، وتمسك بما بدا له أنه جيد ـ كل شيء يستطيع أن يغير مستوى الوعي، ويجعله مختلفاً، وليست نوعية الاختلاف مهمة بل الابتعاد عن مشاعر ورؤية وتفكير الحياة اليومية[1].

في الفصول التالية من هذا الكتاب سنتناول هذه المواد البديلة للفطر الأصلي الذي كان المخدر لإنسان ما قبل التاريخ. سيساعدنا بحثنا لسوء الحظ على الانتباه لمدى ابتعادنا عن التوازن الدينامي الأصلي الذي ساد مجتمع جنة المشاركة.

الكحول والعسل

تمتد جذور الكحول إلى أقدم الأطوار الحضارية البدائية. كانت الحضارات القديمة والشرق القريب منهمكة بإعداد البيرة؛ وفي وقت مبكر من تطور الحضارة البشرية، إن لم يكن قبل ذلك، لاحظ الإنسان مفعول تخدير ما تخمر من العسل وعصير الفاكهة.

العسل مادة سحرية ـ مادة طبية عرفتها كل الحضارات التقليدية. رأينا أنه كان يستعمل لحفظ الأجسام والفطور. الميد، أو العسل المخمر، كان على ما يبدو شراب الاستجمام عند القبائل الهند وأروبية. كان ذلك قاسماً حضارياً مشتركاً بينهم وبين الرعويين الذين استخدموا الفطر للتخدّر في منطقة الشرق القريب. إحدى الرسومات الجدارية المذهلة التي كشفتها أعمال الحفر والتنقيب في ساتال هويوك تشرح دورة حياة النحل وتحول تلك الحشرات (أنظر شكل ١٦).

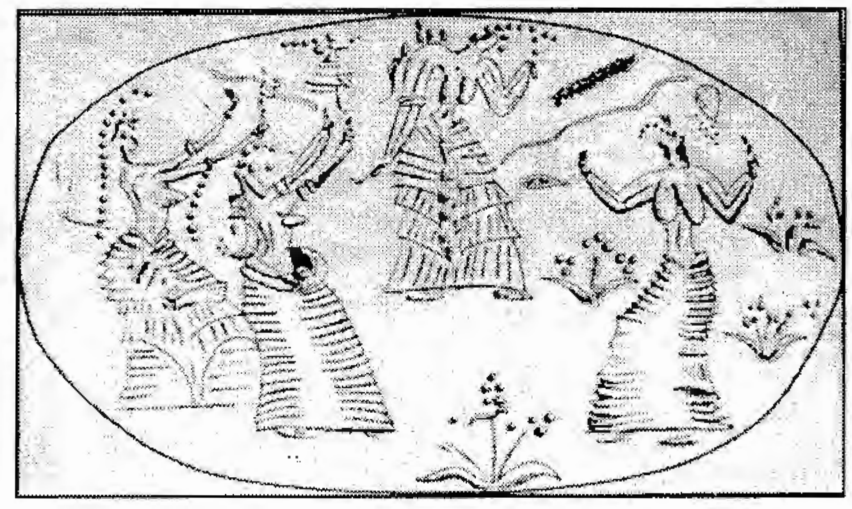
كان الاعتقاد السائد في العالم الكلاسيكي أن النحل يتكون من جثث المواشي، وهذا الاعتقاد يبدو معقولاً أكثر عندما نرى فيه محاولة ربط النحل كمصدر للعسل والميد، المخدر البديل، بالماشية وعبادة الفطر الأكثر قدماً. ربما تكون عبادة الميد وعبادة الفطر التي استخدمت العسل كمادة حافظة، تطورتا من خلال ترابطهما ببعضهما البعض.

كان العسل مرتبطاً بطقوس الإلهة العظيمة في الحضارة المينوية ويظهر دائماً في الرسومات المحيطة بديونيس (رسم ١٧). ويقول الشاعر الروماني أوفيد أن ديونيسوس هو الذي خلق العسل[2]. والأرض المقدسة التي كانت ترقص عليها وصيفاته، الميْنادات، كان يسيل عليها

(١) ألدوس هاكسلي: «Moksha: Witings on Psychedelics and the Visionary Experience». من مجموعة مايكل هورروويتز وسنيثيا بالمر، لوس أنجلس، Tarcher، ١٩٧٧، ص ٩٧.

(٢) «Fasti III»، ٧٣٦.

الحليب والخمر «ورحيق النحل». وورد أيضاً أن العسل كان يتساقط من الصولجانات التي كانت تحملها مئنادات ديونيسوس. كرينيي تحدث عن قرابين العسل في الديانة المينوية، وقال: «قربان العسل الذي يقدم إلى «سيدة المتاهة، يعود إلى فترة أكثر قدماً: إلى مرحلة كانت فيها الحضارة المينوية لا تزال على صلة بعصر العسل»[٣].



الشكل (١٧)

آلهات يرقصن لهن رؤوس نحل. نقش على خاتم ذهبي وجد في إيسوباتا بالقرب من كنوسوس. الرؤوس والأيدي هي رؤوس وأيدي حشرات. من كتاب ماريجا غيمبوتاس: «The Goddesses and Gods of Old Europe». (١٩٨٢، رسم ١٤٦، ص ١٨٥).

في كل مرة كان الإنسان يحاول إعادة التقاط التوازن التكافلي لعلاقته بالفطر في جنة عدن الأفريقية الضائعة من خلال مخدرات بديلة كان يزداد ابتعاداً عن السر الأصلي الضائع. إن انحطاط العناصر المقدسة في ديانة الشرق القريب وعصير الفاكهة حتى ظهور العنب الذي اعتبر أفضل نبيذ. ومع مرور الزمن عرفت الحضارات المختلفة تخمير الحبوب وإنتاج أنواع مختلفة من البيرة.

النبيذ والمرأة

الفاكهة الغنية بالبذور كالرمان والتين كانت منذ الأزمنة القديمة رمزاً للخصب. الكرمة وعصيرها لهما تاريخ طويل من الدلالة الدينية. مثل الهوما الزرادشتية والسوما الفيدية أُلّها وما يحدثانه من نشوة

(٣) كارل كيريني: «Dionysos: Archetypal Image of Indestructible Life, Bollingen Series LXV»، برينستون، Princeton University Press، ١٩٧٦، ص ٩٨.

وتخدير وصف بأنه من تجليات القداسة. ضمن مجموعة القرابين أو الأسرار التي سندرس... يرمز النبيذ بالذات إلى خصب المرأة وعصيره، غير المختمر غالباً، يشرب في الطقوس ليساعد على إخصاب الرحم[٤].

لعب النبيذ دوراً أساسياً في الحضارة الإغريقية المتأخر، حتى أن ديونيسوس المقلق تحول في الأزمنة الكلاسيكية إلى إله النبيذ باخوس، إله الفسق والعربدة، وبذلك حافظت تقاليد مجتمع السيطرة على السكر والمرح الصاخب. كان تخمير الحبوب والفاكهة معروفاً بشكل عام ولا مجال للبحث عمن اكتشفه أو عن موطنه الأصلي.

كانت أنواع النبيذ الإغريقي تثير دئماً حيرة الدارسين. معدل الكحول فيها لا يمكن أن يكون تجاوز ١٤ في المئة لأن عملية التخمر عندما تصل إلى هذه الكثافة يتوقف تكوّن الكحول. ومع ذلك ورد في الروايات أن النبيذ الإغريقي كان يمزج أحياناً عدة مرات بالماء حتى يصبح سلساً وقابلاً لأن يُشرب بارتياح. وهذا يعني أن النبيذ الإغريقي كان أقرب إلى العصارة المشبعة التي تستخلص من النبات، منه إلى النبيذ الذي نعرفه اليوم. وهذا يجعل النبيذ على أنواعه أكثر تعقيداً من الناحية الكيميائية وبالتالي أكثر تخديراً. إن عادة إضافة الراتينج إلى النبيذ في اليونان لصنع الرتسيا ربما تعود إلى زمن مضى حين كانت تضاف نباتات أخرى إلى النبيذ كالداتورة مثلاً.

الكحول هو المثال الأول عن الظاهرة المقلقة التي سوف نشير إليها مراراً في حديثنا عن الفروقات في التوجهات القديمة والحديثة لاستخدام المخدر وتقنية المخدر. تناول الإنسان الكحول من الحبوب المخمرة وعصير الفاكهة والميد منذ القدم. لكن المشروبات الروحية المقطرة لم تكن معروفة (مع أن بليني يشير إلى نبيذ روماني كان قوياً لدرجة أنه يشتعل عندما يصب على النار). واليوم يتصدر الكحول لائحة المخدرات التي توصف بأنها «مشروعة» و«استجمامية».

مخدرات طبيعية ومركّبة

إثارة موضوع الكحول تتيح لنا فرصة الخوض في الفرق بين المخدرات الطبيعية والمركّبة صناعياً، لأنه على الرغم من أن الكحول المقطر انتظر مئات السنين حتى ينضم إليه نموذج ثان من المخدر المعدّ كيميائياً، فإنه أول مخدر كثيف ومصفّى، أو مخدر صنعيّ. تحديد الفرق بين أنواع المخدرات يهمنا كثيراً في هذا السياق. مشكلة الإدمان على الكحول الاجتماعية والجماعية لم تكن مطروحة بوضوح قبل اكتشاف التقطير. وكما أن الإدمان على الهيروين كان الثمرة المؤذية لعادة تعاطي الأفيون غير الضارة نسبياً؛ كذلك دنّست الكحول المقطرة

(٤) إ.س. درويز: «Water into Wine». لندن، John Murray، ١٩٥٦، ص ٧.

الحرفة المقدسة لتخمير البيرة والنبيذ وحولتها إلى عملية اقتصادية تستهدف استهلاك آمال البشر.

لم يكن على سبيل الصدفة أن الكحول كانت المخدر الأول الذي خاض هذا التحول. الحصول على الكحول ممكن عن طريق تخمير أنواع عديدة من الفاكهة والحبوب والنباتات، أساليب تحضيرها كانت معروفة أكثر من أنواع المخدرات التي تحضر في أطر محلية ضيقة ومتكتمة. التخمير بالتأكيد عملية طبيعية ويصعب تلافيه أحياناً. عصارة النخيل في جنوب شرق آسيا تسكر في حالتها الطبيعية. الطيور وحيوان الراكون والأحصنة وحتى الدبابير والفراشات كلها تعرف ماذا ينتظرها عندما تأكل فاكهة مخمرة:

في البيئة البرية تحدث معظم حالات التخدير، بسبب تناول فاكهة أو حبوب أو عصارة مخمرة. قامت عدة مجموعات بدراسة عشرات الحالات من سوماترا إلى السودان، اشتملت على مخلوقات تراوحت بين النحل والفيلة. وماذا كانت النتائج؟ في المواطن الطبيعية تبحث معظم الحيوانات عن غذاء من كحول من أجل الرائحة أو النكهة أو الطاقة أو المواد المغذية التي تتوفر فيه. التخدير مفعول جانبي وليس خطيراً لدرجة أنه يمنع الاستهلاك المستقبلي.

قد يحدث التخدير غير المقصود عندما يتعرض نسغ الشجرة للحرارة المناسبة ويتخمّر. من الطيور التي تمتصّ النسغ في أميركا الشمالية نوع من نقّار الخشب يعمد إلى ثقب تجاويف في الأشجار ويتركها تمتلىء بالنسغ. وتجاويف النسغ هذه تجذب إليها الطيور التي تقتات من النسغ ومن الحشرات التي تسقط فيه. وينتقل نقار الخشب إلى أشجار أخرى تاركاً «الأبواب مفتوحة» حتى يختمر النسغ وتتخدر سائر الحيوانات وذلك قبل أن تلتئم التجاويف. وتبين من مراقبة بعض طيور الطنان والسناجب وغيرها من الحيوانات التي تقبل على امتصاص النسغ وهي لا تشك بشيء، أن تغيراً غير اعتيادي طرأ على سلوكها[٥].

قد يُقتّر الكحول باستخدام الحرارة لتبخيره فينفصل عن مصدره، بخلاف القلويات والاندولات، التي يمكن استخراجها باستخدام المواد المذيبة ويصار إلى تكثيفها بعد ذلك. وعاء مكثّف بسيط مبرّد بالمياه يستطيع أن يجمع بخار الكحول ويعيده إلى حالته السائلة ـ هذا أفسح المجال لأن يكون الكحول أول مخدر يُعزل كيميائياً (إن إعادة جمعه من حالته المتبخرة كانت السبب في وصف الكحول المقطّر بأنه «روحيّ»).

أول إشارة لدينا عن عملية تقطير الكحول وردت في كتابات الكيميائي الصيني كوهانغ التي تعود إلى القرن الرابع بعد الميلاد. كان كوهانغ بصدد شرح طريقة تحضير الزِّنْجَفْر فقال «إنه يشبه النبيذ الذي تخمر مرة واحدة؛ ولا يمكننا مقارنته بالنبيذ النقيّ الصافي الذي خمّر تسع

(٥) رونالد ك. سيغل: «Intoxication». نيويورك، E.p. Dutton، ١٩٨٩، ص ١١٩.

مرأت»[٦]. هذا الكلام يشير إلى معرفة طرق لتحضير مشروبات كحولية قوية وصافية، وربما كان ذلك بالتقاط بخار الكحول بواسطة نسيج صوفي يُعصر منه فيما بعد سائل كحولي نقي نسبياً.

الكيمياء القديمة والكحول

يُنسب اكتشاف تقطير الكحول في الغرب إلى الكيميائي ريموند لالّي، الذي لا نعرف الكثير عنه أو عن رفيقه أرنولدوز دو فيلانوفا. كان لالّي يبحث عن الإكسير الحقيقي عندما توصل إلى تحضير الأكوافيني، أول براندي. يقول واسون أن لالّي كان مأخوذاً بالإكوافيني لدرجة أنه تصور أن اكتشافه بمثابة إعلان نهاية العالم[٧]. حضّر لالّي دواء كل الأمراض بتخمير النبيذ في غلاّية مزدوجة من روث الحصان لمدة عشرين يوماً قبل تقطيره في مكثّف بسيط مبرّد بالماء (أنظر رسم ١٨). لم يخف لالّي أمر اكتشافه، بل على العكس من ذلك دعا الكيميائيين إلى محاولة صنع الإكسير بأنفسهم وأعلن أن فيلاّنوفا نجح في تحضير سائل مشابه للسائل الذي حضّره بنفسه. قال عن الكحول: «طعمه يتفوق على كل النكهات الأخرى، ورائحته تتفوق على كل الروائح». ويتابع أنه «فيه منفعة رائعة للجنود قبل خوض المعركة لأنه يزيدهم شجاعة»[٨].

اكتشف الكيميائيون في الصين وفي أوروبا العامل الكيميائي المخدر الناتج عن تخمر عصير الفاكهة والعسل والحبوب. تطورت الكيمياء القديمة ببطء وليونة، انطلاقاً من النظريات الروحية والسحرية التي تناولت أصل الإنسان وثنائية الروح والمادة. جذورها تعود إلى الماضي البعيد، إلى مصر زمن السلالات الحاكمة على الأقل، عندما كان المصريون يحفظون بعناية أسرار صباغة الأنسجة وتصنيع المعادن وتحنيط الأجسام.

على هذه الأسس القديمة ارتفع صرح من المعارف ما قبل سقراط، وما توصل إليه الفيثاغوريون الكيميائيون القدماء، وكان في النهاية يتمحور حول مهمة الكيمياء في تجميع وتوحيد وبالتالي إنقاذ «النور المقدس» الذي تشتت في عالم غريب وعدائي مع سقوط آدم. كان العالم الطبيعي في أواخر المرحلة الرومانية يُعتبر سجناً شيطانياً. هذا هو الإرث الروحي الناجم عن تدمير نموذج المشاركة على الصعيدين الذاتي والاجتماعي واستبداله بنموذج السيطرة.

(٦) جايمز ر. وير: «Alchemy, Medicine, Religion in the China of A.D. 320: The Nei Pien of Ko Hung». كامبريدج، ماساتشوسيتس، Mit Press، ص ٧٢.

(٧) ريتشارد ر. ماتيسون: «The Eternal Search: The Story of Man and His Drugs». نيويورك، G.P. Putnam's Sons، ١٩٥٨.

(٨) تشارلز هـ. لاوال: «The Curious Lore of Drugs and Medicines Through the Aages». فيلادلفيا، J.B. Lippincott، ١٩٢٧، ص ١٥٨.



الشكل (١٨)

تدابير كيميائية وتهيؤات ساذجة نجدهما معاً في عملية خيميائية في «Mutus Liber».
من مجموعة مكتبة: Fitz Hugh Ludlow.

الحنين إلى الأرض الأم كان مكتوماً لكنه غير قابل لأن يُتجاهل. لذلك عاد للظهور مع الوقت في إطار سري - في بحث الكيمياء عن المنشأ الأصلي، رحم العالم الغامض، الموجود في مكان ما بطريقة ما، وهو خفي لكنه قابل لأن يتقطر بشكل مرئي في دواء كل الأمراض الكامن في الطبيعة.

في هذا الجو من البحث المحموم والساذج استمرت الكيمياء. لم تكن الأبواب التي تتعلّق بالنفس والمادة والذات والموضوع محدّدة، ولم يكن الباحثون يعرفون كيف يميزون في أعمالهم بين ما هو خيالي أو واقعي أو متوقّع.

قد يكون مثيراً للسخرية أن اكتشاف مخدر قوي في تأثيره على العقل تحقق في هذا الإطار، وأن الروح الكامنة في الكحول، والتي تحسّسها الإنسان واستمتع بها في البيرة والنبيذ عبر العصور، صارت في مختبرات الكيمياء القديمة شيطاناً، وخلاصة عناصره قابلة للاشتعال. ومثل سائر الخلاصات التي ستليها في الظهور كالمورفين والكوكايين، كانت خلاصة العنب حين مرورها عبر الفرن ومعوّجات الكيميائي تفقد روحها الطبيعية. بغياب هذه الروح لا تعود الخلاصة تحمل خواصّ حيوية الأرض، ولا تعود صدى للفردوس المفقود ما قبل التاريخ، بل هي بالأحرى مادة خام غير مدجنة تهدد البشر.

الكحول بلاء

ليس هناك مشروب مخدر آخر كان له هذا التأثير المستمر والمؤذي على البشر. السعي لانتاج الكحول والتحكم بهذه العملية وفرض الضرائب ومحاولة امتصاص انعكاساته الاجتماعية له صلة واضحة بتطور الامبراطوريات التجارية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. صناعة الكحول وتجارة الرقيق كانتا تترافقان غالباً في الساحة الاقتصادية. في حالات عديدة كان الكحول موازياً للعبودية مع ازدهار تجارة العبيد والسكر والدم، وغيرها من ممارسات الحضارة الأوروبية التي انتشرت في أماكن مختلفة مستعبدة حضارات أخرى. صار السكر والكحول الذي قد يحضر منه هاجس الأوروبيين الذي أدّى إلى تشويه ديموغرافي حاد للمناطق الاستوائية. في جزر الهند الشرقية الدنماركية على سبيل المثال، وهي اليوم أندونيسيا، كانت سلطة الاستعمار تدفع المال للنساء كي ينجبن المزيد من الأطفال لتأمين العمال لمزارع قصب السكر. هذه السياسة أدّت اليوم لأن تصبح جافا، التي كانت في السابق مركز الجزر الدنماركية، أكثر جزيرة تعاني من التضخم السكاني في العالم. معظم السكر كان يتحوّل إلى كحول مقطر، والذي لم يكن يُصدّر منه إلى أوروبا، كان يستهلكه السكان المحليون. داخل المجتمع المركنتلي التجاري نشأت فئة دنيا من السكارى كانت ملازمة لذلك المجتمع إن كان في الوطن الأصيل أو في المستعمرات.

وماذا عن سيكولوجية الإدمان وتعاطي الكحول؟ هل توجد بنية متكاملة للكحول، وإذا كان هذا صحيحاً ما هي خصائصها؟ أشرت في السابق إلى أن الكحول هو مخدر التسلط بلا منازع. الكحول محفّز لبيبدي إذا تم تناوله باعتدال وفي الوقت نفسه تكتسب الأنا قوة وتفقد الحدود الاجتماعية شيئاً من طاقتها المعيقة. هذه المشاعر تترافق غالباً مع إحساس بسهولة التعبير يكون في الحالات الاعتيادية صعب المنال. لكن المشكلة تكمن في ما توصلت إليها الأبحاث بأن هذه التأثيرات سريعة الزوال ويتبعها عادة تقلّص في الإدراك وتناقص في القدرة على الاستجابة مع التلميحات الاجتماعية، وضعف تدريجي في الأداء الجنسيّ، وفقدان السيطرة العامة والوصول إلى ما يتبعها من خسارة الاحترام الذاتي.

يبدو الاعتدال في الشرب المسار السليم. لكن الإدمان يعتبر مشكلة اساسية تعاني منها المجتمعات كافة. أنا أعتقد أن الخلل في تعاطي الكحول ناجم عن حالة اللاتوازن والتوتر بين الرجال والنساء وبين الفرد والمجتمع. من دوافع الإدمان التعلّق بهاجس الأنا وعدم القدرة على مقاومة الاندفاع لتحقيق الإشباع المباشر. على الصعيد الاجتماعي ترافق نمط السكر مع قمع المرأة وكل ما هو أنثوي. معظم مظاهر القسوة والقلق وسوء المعاملة تنسب إلى الإدمان. لا تضرب النساء بدون الكحول كما أنه لا يوجد سيرك بدون أسود.

الكحول والأنثوية

قمع الأنثوية ترافق مع تعاطي الكحول منذ الأزمنة القديمة. ومن مظاهره أن يقتصر شرب الكحول على الرجال. يقول لوين أنه لم يكن مسموحاً للنساء في روما القديمة شرب النبيذ[٩].

عندما شربت زوجة أغناطيوس ميسينيوس النبيذ من البرميل، ضربها حتى الموت، وبُرّىء من تهمة القتل لاحقاً. وبامبليو فونوس حكم زوجته بأن تجلد حتى الموت لأنها شربت من نبيذه. وهناك سيدة أخرى من طبقة الأشراف في روما حكم عليها بالموت جوعاً فقط لأنها فتحت الخزانة التي تحفظ فيها مفاتيح قبو النبيذ.

كراهية مجتمع السيطرة للمرأة، والتأرجح والقلق على الصعيد الجنسي، وتعاطي الكحول، كل هذه العوامل تضافرت لتؤدي إلى التعاطي العصابي مع الشأن الجنسي الذي تتصف به الحضارة الأوروبية. مضى زمن مواد الهلوسة التي تذيب الحدود وتقلّص الأنا الفردية وتعزّز قيم الامتداد العائلي والقبلي.

يستجيب مجتمع السيطرة إلى الحاجة لإطلاق الضغط الجنسي في إطار تعاطي الكحول في قاعة الرقص، وبيت البغاء، والتوسّع المؤسساتي لطبقة دنيا جديدة، طبقة «النساء الساقطات».

(٩) لويس لووين: «Phantastica: Narcotic and Stimulating Drugs»، نيويورك، E.P. Dutton، ١٩٣١، ص ١٩٠.

وجود المومس يلائم مجتمع السيطرة الذي يخاف ويشمئز من النساء؛ والكحول بترتيباته الاجتماعية يخلق الإطار المناسب الذي تمارس فيه الرغبة والكراهية بدون مسؤولية.

الخوض في هذا المجال صعب للغاية. ملايين الناس يستهلكون الكحول، من الرجال والنساء، ولن أجد من يوافقني الرأي إذا قلت أن سياسة تعاطي الكحول خاطئة. كيف نستطيع أن نفسر السماح بتعاطي الكحول، الأكثر تدميراً بين المخدرات، وما يقابله من جهود حثيثة لمنع كل المخدرات الأخرى تقريباً؟ هل يحدث ذلك لأن تعاطي الكحول يسمح باستمرار نمط السيطرة القمعيّ ويجعلنا نشعر بأننا أطفال ومشاركون غير مسؤولين في عالم السيطرة الذي يتصف بتسويق الأهواء الجنسية غير المتكافئة؟

المقولبات الجنسية والكحول

إذا وجدت صعوبة في تصديق ذلك انتبه إلى أي مدى ترتبط صور الرغبة الجنسية في مجتمعنا بصور التعاطي المتكلف للكحول. كم من النساء خضن تجربتهن الجنسية الأولى في جو عابق بالكحول يؤكد أن التجارب الأساسية تتم فقط وفقاً لشروط السيطرة. أفضل حجة نقدمها لطلب تشريع أي مخدر هي أن المجتمع كان قادراً على تحمّل تشريع تعاطي الكحول. وعندما نكون قادرين على ذلك ما هو المخدر الذي سنعجز عن استيعابه في بنيتنا الاجتماعية؟

يكاد يتضح لنا أن السماح بتعاطي الكحول هو بمثابة السمة المميزة للحضارة الغربية. هذا القول ليس مرتبطاً فقط برؤية مجتمع السيطرة للسياسة الجنسية، بل هو مرتبط أيضاً بالاعتماد على السكر واللحوم الحمراء على الرغم من انتشار موضة الغذاء الطبيعي وارتفاع معدل الوعي الصحي، لايزال الغذاء النموذجي للأميركي البالغ يتألف من السكر واللحم والكحول. هذا الطعام «الاستهلاكي» ليس صحياً أو متناسباً مع البيئة؛ إنه يساعد في احتمال الإصابة بأمراض القلب، وفي تشويه الطبيعة، والإدمان السمّي والتخديري. إنه يرمز ببساطة لكل ما يحيط بنا في أخطاء، كل ما يتراكم لدينا نتيجة استمرار ممارسة عقائد حضارة السيطرة. جنينا انتصارات نمط السيطرة انتصارات في التكنولوجيا والتطور العلمي ـ لكن من خلال كبت ما هو غير ملائم وعاطفي وشعوري في وجودنا. والكحول حاضر دائماً ليساعدنا على المضي قدماً في هذا السبيل. الكحول يشجع المرء ليخوض معركة، ويهيء الرجال والنساء للحب، ويحافظ على تصور شرعي للذات والعالم. إنه مثير للقلق أن ندرك أن النسيج البالغ الدقة للاتفاقيات والمعاهدات الديبلوماسية الذي يحول بيننا وبين الهرمجدون، أو المعركة النووية الفاصلة، صُنع في جو من العاطفية المضلّلة والتبجح بالشجاعة اللذين تتصف بهما الشخصيات الكحولية في كل مكان.

١٠ . الحبّاكين الحالمين: القنّب والحضارة

لا توجد نبتة استمرت صلتها منذ القدم بحياة الإنسان كنبتة القنب. عثر في العديد من المواقع الأثرية الأوروبية الآسيوية على بذور القنّب وبقايا الحبال. موطن هذه النبتة الأصلي آسيا الوسطى، ومن هناك انتشرت في أرجاء المعمورة. وصلت إلى أفريقيا في تاريخ بالغ القدم، وعصارتها سافرت مع الدفعات الأولى من المهاجرين إلى العالم الجديد. وبسبب هذا الانتشار الواسع للنبتة وما تتميز به من قدرة على التكيّف البيئي تركت أثراً كبيراً على أنماط الحياة الاجتماعية والرموز الحضارية. يُجمع راتينج القنّب في كرات سوداء دبقة، وإذا أُكل له مفعول كالمواد المثيرة للهلوسة. هذا هو الحشيش المعروف.

يعرف القنّب بآلاف الأسماء في كافة اللغات وهذا دليل على حضوره التاريخي وسعة انتشاره، ودليل أيضاً على قدرته على تحريك طاقة الابتكار اللغوي في النفس الشاعرة في رسالة أشورية مؤرخة سنة ٦٨٥ ق.م. وردت تسميته بأنه Kunubu، وبعد مئة سنة عُرف بأنه Kannapu وهذا الجذر الإغريقي واللاتيني لكلمة Cannabis. وهو أيضاً bang وbing وbbnj (بنج)، وكذلك ganja وgangika وganga. وفي اليابانية Asa وعند الهوتنتون dagga؛ وهو Keif (كَيْف) وKeef وKerp وma.

في اللغة العامية الأميركية وحدها العديد من التسميات للقنب. قبل سنة ١٩٤٠، أي قبل أن يصبح جزءاً أساسياً من الحضارة البيضاء عرف بأنه muggles وmooter وreefer وgreefa وgriffo وMary Warner وMaryweaver وMary Jane وIndian Hay وLoco Weed وLove وWeed وJoy Smoke وGiggle Smoke وBambalacha وMohasky وmu وmoocah. هذه التعابير ترمز إلى ديانة تجريبية تمجّد إلهة خضراء تثير البهجة[1].

---

(١) أنظر روبرت ب. والترن: «Macijuana: America's New Drug Problem». فيلادلفيا، J.P. Lippincott، ١٩٣٨، ص ١٨٨ - ١٩٥.

الحشيش (القنّب الهندي)

عرف الإنسان الحشيش منذ بضعة آلاف من السنين، مع أنه يصعب تحديد الفترة التي بدأ فيها الإنسان بجمع وتكثيف راتينج الحشيش بالطريقة المعروفة. تدخين منتوجات الحشيش، وهذه الطريقة الأسرع والأكثر فاعلية للحصول على ما لها من تأثيرات، عُرف في أوروبا في وقت متأخر نسبياً. التدخين نفسه لم يكن معروفاً في أوروبا في وقت متأخر نسبياً. التدخين نفسه لم يكن معروفاً في أوروبا حتى رجوع كولومبوس من رحلته الثانية إلى العالم الجديد الذي حمل معه التبغ من هناك.

هذا أمر يثير الاهتمام: أوروبا لم تعرف هذا النمط البارز في السلوك البشري إلاّ مؤخراً. قد يتكون لدينا انطباع هنا أن الأوروبيين يميلون عموماً إلى مقاومة تطوير الاستراتيجيات المبتكرة في تعاطي المخدرات. من هذه الطرق مثلاً الحقنة الشرجية، وكانت معروفة في العالم الجديد لتعاطي خلاصة النباتات القوية عند هنود غابات الأمازون الذين استخدموا المطاط الطبيعي. وقد سمحت هذه الطريقة بتجريب النباتات التي يصعب تناولها بواسطة تأثيراتها أو نكهاتها.

لا نستطيع أن نقول متى دخن الإنسان الحشيش، ولا إذا كان التدخين جزءاً من الأرث الحضاري لشعوب العالم القديم الذين نسوه ثم أعادو اكتشافه مع اكتشاف العالم الجديد زمن التوسّع الإسباني. صحيح أن اليونان والرومان لم يعرفوا التدخين، لكن هذا لا يمنع أنه ربما كان معروفاً في العالم القديم ما قبل التاريخ. توصلت الحفريات الأثرية في نون ناك ثا في تايلاند إلى العثور على قبور تعود إلى ١٥٠٠ سنة ق.م. تحتوي على عظام حيوانات كانت توضع في تجاويفها على ما يبدو مواد نباتية تحرق مراراً. لاتزال أفضل وسيلة لتدخين الحشيش في الهند حتى اليوم الـ Chelum، وهو كناية عن أنبوب بسيط من الخشب أو السيراميك أو الحجر الصابوني يُملأ بالحشيش أو التبغ. قد لا نستطيع تحديد تاريخ استخدام هذا الأنبوب في الهند، لكن لا شك في أنه شديد الفعالية.

السكيتيون

السكيتيون شعب من برابرة آسيا الوسطى الرحّل، وصل إلى أوروبا الشرقية حوالي سنة ٧٠٠ ق.م. وحمل معه الحشيش إليها. وصف هيرودوتس طريقتهم الجديدة في التخدير الذاتي، فيما يشبه حجرة التعرّق:

> عندهم نوع من القنّب ينمو في بلادهم [سكيتيا]، يشبه الكتّان لكنه يختلف عنه في السماكة والارتفاع؛ وهو يتفوق عليه لأنه ينمو بشكل طبيعي وبواسطة الزراعة... يأخذ السيكتيون بذور هذا القنب ويرتدون ملابس حجرة التعرق ويضعون البذور على الحجارة الحمراء الحارة؛ ويتصاعد الدخان

من هذه البذور بكثافة لا يعرفها أي حمام بخار إغريقي. يتنشق السكيتيون البخار ويصرخون عالياً[٢].

ويشير هيرودوتس إلى ذلك في مكان آخر فيقول:

اكتشف السكيتيون أشجاراً أخرى لها ثمار غريبة؛ عندما يلتقي الناس في مجموعات يوقدون ناراً ويرمونها عليها ويجلسون حول النار في دائرة؟ وعندما يتنشقون دخان الثمار المحترقة يتخدرون من رائحتها كما يتخدر الإغريق بالنبيذ؛ وكلما زادت كمية الثمار يزدادون تخدراً حتى تتملكهم الرغبة في النهوض والاستغراق في الرقص والغناء[٣].

كلام هيرودوتس يوضح أن السكيتيين اكتشفوا تنشق دخان الحشيش على أنه الطريقة الأكثر فاعلية للاستمتاع به، لكنهم لم يعرفوا الغليون أو الأنبوب (Chelum). ديوسكوريدس العام اليوناني المتخصص في الأعشاب والطبيعة، وصف أيضاً الحشيش وقال إنه قبل اكتشاف وسائل التدخين لم يجد مجالاً للتسرب إلى الحضارات الأوروبية والأميركية.

الهند والصين

تنص التقاليد الصينية على أن زراعة القنّب بدأت في القرن الثامن والعشرين قبل الميلاد عندما علّم الأمبراطور سين نانغ الناس زراعة القنب من أجل صناعة النسيج. وحوالي سنة ٢٢٠ بعد الميلاد شجع الطبيب هاوثو على استخدام القنّب في النبيذ كمادة مخدرة وقال: «بعد أيام معدودة أو بعد شهر من الاستعمال يجد المريض أنه شفي دون أي إحساس بالألم أثناء العملية»[٤].

كان الحشيش معروفاً في الهند ويعتبر نبتة ذات قوة روحية هائلة قبل عدة قرون من تدخينه. والأفيون كان معروفاً أيضًا قبل عدة قرون من اكتشاف طرق التدخين الأكثر تأثيراً. لا تشير النصوص الهندية إلى وجود القنّب قبل سنة ألف ق.م.، لكنه من ذلك التاريخ كان معروفاً كدواء ويبدو من الصفات التي تنتسب إليه في المدونات الأولى عن العقاقير أن فاعليته كمنشّط واضحة تماماً. معرفة خواص الحشيش تكوّنت ببطء ولا نستطيع أن نفترض أنها صارت واسعة الانتشار حتى القرن العاشر بعد الميلاد، أي قبل الغزو الاسلامي للهند بفترة قصيرة. كان للقنب علاقة بالجانب السري أي الخفي في العبادة الهندوسية. الأسرار الروحانية وتمارين اليوغا

(٢) هيرودوتس: «Works»، ترجمة هـ. كاري. لندن، George Bill and Sons، ١٩٠١، الكتاب الرابع، الفصل ٧٤.
(٣) هيرودوتس (نافذ)، الكتاب الأول، الفصل ٢٠٢.
(٤) جوليان، مذكور في كتاب والتون. (نافذ)، ص ٣.

والتعرف إلى المبهم، كلها تشير إلى تبجيل القنب في الهند. ج. كامبل أومان، وهو باحث في طرائق التفكير والسلوك الهندية في أواخر القرن التاسع عشر، قال:

ستكون مفيدة جداً محاولة تتبع أثر هذه المخدرات القوية على عقول وأجسام النسّاك المتجولين الذين يستخدمون عادة. ربما نستطيع أن نتأكد أن مخدرات القنب المعروفة في الشرق منذ القديم قد تكون السبب في إثارة حالات التخيّل المفرطة(٥).

القنّب أسلوب حضاري

يشير أومان هنا إلى مسألة ملفتة ـ إلى أية درجة يتشرّب النمط المعيشي في حضارة ما المواقف والتصوّرات التي تتولّد لديه بفعل نبتة أو مادة مخدرتيْن. هناك ما يجدر التوقف عنده في القول أن الأنماط الهندسية والأشكال التصميمية في دلهي أو أصفهان والتي تعود إلى القرن العاشر، مستمرة أو مستوحاة من تهيؤات الحشيش. وهناك أيضاً ما يجدر التوقف عنده في القول أن الكحول شكل قنوات تطوير البنى الاجتماعية والصورة الذاتية لحضارة أوروبا الإقطاعية. الإفتراضات والأنواع الفنية هي مؤشرات لمستوى ونوعية الفهم والإدراك اللذين يقرّهما مجتمع معين. والعلاقة مع نبتة في مرحلة ما تؤدي إلى تعزيز بعض الاهتمامات وإضعاف البعض الآخر.

إن تدفق النوع والتصوّر الفني الشخصيّ غير مقبولين عادة في ذهنية الحضارة المسيطرة. في هذه الحضارة التي لا تعرف تعاطي النباتات التي تذيب الحدود الاجتماعية تعتبر مثل هذه التصورات مقصورة على النساء. الرجال الذين يهتمون بذلك يعتبرون غالباً من اللوطيين ـ أي أنهم لا يتبعون المعايير المقبولة للسلوك الذكوري داخل مجتمع السيطرة. كانت إطالة الرجال لشعورهم التي ترافقت مع موجة تعاطي الماريجوانا في الولايات في الستينات، حالة تدفق لقيم أنثوية ظاهرياً بسبب تأثير النبتة في إذابة الحد الاجتماعي. إنّ ردّة الفعل على مثل هذا التعديل السلوكي البسيط تكشف مدى القلق والإحساس بالخطر عند الأنا الذكورية في مواجهة أي عامل قد يعيد طرح أهمية المشاركة في الحياة عموماً.

في هذا السياق تجدر الإشارة إلى أن الحشيش له نوعان أنثى وذكر. والذي يهتم بزراعة النبتة لأجل قوتها التخديرية يصب كل اهتمامه على نوع الأنثى، لأنها وحدها تنتج الراتينج. النبتة الذكر لا تنتج أي مخدر، وإذا وصل غبار الطلع فيها إلى الأنثى تبدأ الأنثى بتكوين البذور وتتوقف عن إنتاج الراتينج. لذلك تبدو هناك صدفة سعيدة، أن انعكاسات مفعول تعاطي

(٥) ج. كامبل أومان: «The Mystics, Ascetics and Saints of India». لندن، T. Ficher Unwin، ١٩٠٣.

الحشيش والدقة والعناية اللتين يتطلبهما إنتاج نوع جيد من الراتينج، تتضافر معاً لتؤكد على توجه القيم بنحو تمجيد الأنثوية والمحافظة عليها.

بين كافة النباتات المخدرة على الأرض يحل الحشيش في المرتبة الثانية بعد الفطور في تعزيزه للقيم الاجتماعية ومعدلات الحس التي كانت الطابع المميز لمجتمعات المشاركة الأصلية. كيف نفسّر القمع المستمر لاستخدام الحشيش في مواجهة الدليل الواضح أن الحشيش هو الأقل خطورة بين كل المخدرات المستعملة حتى اليوم؟ نتائجه السلبية على الصعيد الاجتماعي لا تذكر بالمقارنة مع نتائج تعاطي الكحول. حضارة السيطرة تحرم الحشيش لأنه يجعل من يتعاطاه ينسلخ عن القيم المتوافق عليها. بسبب تأثيره التخديري المعتدل يهيىء الحشيش مَنْ يتعاطاه إلى إقامة صلة حدسية بأنماط سلوك ينخفض فيها معدل التوجيه والمنافسة. لهذه الأسباب ترفض بيئة العمل المكتبي الحديثة استخدام الماريجوانا، لكنها ترحب بمخدر كالقهوة يعزّز قيم الحضارة الصناعية وتشجع الموظفين على تعاطيه. اللجوء إلى الحشيش هو بالفعل بدعة تهدّد قيم السيطرة الذكورية والترتيب الاجتماعي الهرمي. لذلك يصبح تشريع تعاطي الماريجوانا أمراً معقداً، طالما أنه يعني تشريع عامل اجتماعي قد يعدّل أو يغير في معايير سيطرة الأنا.

تشريع الحشيش وفرض ضريبة على استخدامه قد يؤديان إلى تأمين مورد ضريبي يساعد على التخلّص من العجز الوطني. لكننا عوضاً عن ذلك نستمر في هدر ملايين الدولارات للتخلص من الماريجوانا، وهذه السياسة تثير الشكوك وتنشأ بسببها فئة إجرامية في تجمعات قد تكون لولا ذلك الأكثر تمسكاً بسيادة القانون في البلاد.

إن نفور المجتمع ممن يتعاطى الحشيش هو بالفعل نفور من القيم الجماعية والأنثوية. ولو لم يكن ذلك صحيحاً كيف نستطيع إذاً أن نفسر إصرار وسائل الإعلام على رفض ما شهدته الستينات من تعاطي المخدرات وخوض تجارب اجتماعية سرية؟ إنه خوف من الزهرة التي نمت داخل المؤسسة، خوف من أن تصبح مفهومة إذا حُلّلت انطلاقاً من أن الخطر الذي واجهته المؤسسة كان نزعة فكرية تقدم على أساس المشاركة اللاجنسية وعلى تناقض الإحساس بالأهمية الذاتية.

القنّب الكلاسيكي

بلميني المؤرخ الروماني (٢٣ ـ ٧٩ ق.م.) ذكر كلاماً لديمقريطس حول نبتة تدعى Thalassaegle أو Potamaigus، وأن معظم الدارسين يسمونها القنّب:

> إذا شربها المرء تحدث هذياناً، وتجلب إلى المخيلة تصوّرات في غاية الغرابة. يقول أن Theangelis ثيانجيليس تنمو على جبل لبنان وسوريا، وعلى سلسلة جبال ديكتة في كريت، وفي بابل وسوسة في

فارس. نقيعها يمنح السحرة قوة التنبؤ. وجيلوتوفيلّيس Gelotophyllis أيضاً نبتة تنمو في باكتريانا وعلى ضفاف البوريثين. عند تناولها مع المرّ والنبيذ تحدث كافة أشكال التصوّرات وتثير الضحك[٦].

ديوسكوريدس، الذي عاش في القرن الأول، أعطى وصفاً جيداً للقنّب وذكر استخدامه في صنع الحبال وأهميته على الصعيد الطبي، لكنه لا يذكر شيئاً عن خواصه التخديرية. صار القنّب في منطقة الشرق القريب والعالم العربي المخدر المفضل لدى الكثيرين لأن الظروف المناخية تساعد على نموه ولأن بعض المسلمين رأوا أنه لا يتنافى مع الدين كالكحول. عرف العرب تعاطي القنّب والحشيش قبل زمن النبي، وهذا يفسّر لماذا يحرّم الكحول للمؤمن بوضوح لكن الحشيش أثار خلافاً فقهياً. حوالي سنة ٩٥٠ كان تعاطي الحشيش منتشراً وانعكس صداه في كتابات تلك المرحلة. نستطيع أن نفهم موقف مجتمع السيطرة من الحشيش من خلال النص التالي الذي يعد من المحاولات الأولى لوصف حالة الإدمان:

كان رجل دين مسلم يخطب في الجامع محذراً من تعاطي «البنج»، وهو نبات يخدّر ويدفع إلى النوم، وكان يتحدث بانفعال فوقعت من صدره ورقة تحتوي على قطعة من المادة الممنوعة وشاهدها جميع الحضور. قال رجل الدين دون ارتباك: «هذا هو العدو، الشيطان الذي حدثتكم عنه؛ قوة كلماتي جعلته يطير، إحذروا كي لا ينقض على واحد منكم ويستحوذ عليه». ولم يجرؤ أحد على لمسه؛ وبعد الخطبة استرجع الصوفي «بنجه»[٧].

القنّب ولغة الحكاية

القنّب نبات متعدد الاستعمالات: لفت انتباه الصيادين ـ الجامعين للغذاء في البداية كمصدر لخيطان النسيج وصناعة الحبال. لكنه يختلف عن سائر النباتات التي استخدمت لهذه الغاية ـ كالكتان في آسيا الوسطى أو الشيمبيرا في الأمازون ـ بأنه مخدر في الوقت نفسه. وفي هذا السياق يهمنا أن نشير إلى أن العبارات الإنكليزية التي تدل على الكلام المحكي هي نفسها تستعمل لوصف لصناعة الحبال والحياكة. المرء «ينسج» حكاية أو «يحلّ رموزاً أو ألغازاً» حادثة، أو «يلفق» (ينسج) قصة. نتابع خيط الحكاية ونخيط مبرراً. يحاك الكذب من نسيج مكتمل، والحقيقة جديلة ذهبية لا تنتهي. هل تعكس هذه اللغة المشتركة علاقة قديمة بين القنّب المخدّر والعمليات الذهنية التي مهّدت لاكتشاف فن النسيج وحبك الحكايات؟ أعتقد أن هذا صحيح. نبات القنّب هو الأكثر قابلية لأن يحلّ محلّ فطور البسيلوسبين المقدسة عند الحضارات القديمة في الشرق القريب. ومع أن هذا التحوّل من الفطور إلى القنب يرجع إلى الماضي البعيد، لكننا

(٦) مذكور في والتون، (نافذ)، ص ٨.

(٧) ج.ف. دولاكروا: «Anecdotes Arabes et Musulmanes Depuis L'An de J.C. 614». باريس، Vincent، ١٩٧٢، ص ٥٣٤.

نلمس انعكاسه في المرحلة الحديثة بترابط القنّب مع نمط المشاركة الاجتماعية ونجد فعلاً أن تزايد بروز القنّب في المجتمع الفيدي، والمجتمع الإسلامي فيما بعد، أدى إلى تقليص حدة معايير السيطرة. وساهم بالطبع في ظهور فئات ابتداعية ـ مثل الشيفا في الهندوسية والصوفيين في الإسلام ـ وهؤلاء لم يخفوا أمر تعاطيهم للقنب كمصدر للإلهام الديني.

كان دور القنب في المجتمع الأوروبي معقداً. ماركو بولو الذي أغنى المخيلة الأوروبية باكتشافاته وشروحات أسفاره قدّم في أحد النصوص وصفاً لاستخدام الحشيش، وهو من النصوص الأولى والأوسع انتشاراً حول هذا الموضوع؛ أعاد ماركو بولو ذكر الحكاية الشعبية عن «شيخ الجبل» ابن الصباح، القائد الشهير لحركة الحشاشين. تقول الحكاية أن الشبان الراغبين في الانتماء إلى الطائفة كانوا يعطون كميات كبيرة من الحشيش ومن ثم يتركون في «جنة مصطنعة» كناية عن وادٍ معزول فيه حدائق غنّاء وينابيع متدفقة، وفتيات في سن الزواج. ويُقال لهم أن العودة إلى أرض الأحلام هذه ممكنة فقط إذا قاموا بتنفيذ جرائم سياسية. لذلك كان يشار إليهم أنهم حشاشون وقتلة. قد يكون هناك خلاف حول صحة هذه الحكاية، لكن تداولها في أوروبا أدى بلا شك إلى إضفاء تلك السمعة السيئة على القنب وما يثيره من تهيؤات.

وبعد حوالي خمسمئة سنة فشل الفرنسيون في مصر بعد حملة نابليون، في السيطرة على إنتاج وبيع مستحضرات القنب. وإثر إصدار حظر علي هذه التجارة، تمكن المهربون من اليونانيين من إدخال الحشيش سراً إلى مصر وجنوا أموالاً طائلة من ذلك.

كانت حملة نابليون على مصر فاشلة عسكرياً، لكنها نجحت كمحاولة لإحداث تلقيح حضاري متبادل. أحضر نابليون إلى مصر مكتبة هائلة، و١٧٥ عالماً وباحثاً عملوا على مراقبة وتصوير وجمع المعلومات الثقافية واللغوية. ونتج عن هذه الجهود إصدار أربعة وعشرين مجلداً (في وصف مصر) ما بين ١٨٠٩ و١٨١٣. هذه المجلدات كانت مصب إلهام لعدد كبير من مؤلفي كتب الرحلات، ومحفزاً خصباً للمخيلة الأوروبية.

الاستشراق والقنّب في أوروبا

فيما كان نابليون منهمكاً بوضع حدّ لانتشار الحشيش في مصر، بدأت تظهر في أوروبا توجهات فكرية جديدة. ترافق ظهور الرومنطيقية والاستشراق والاهتمام بعلم النفس والماورائيات، مع تزايد ولع الطبقة العليا بالأفيون وصبغة الأفيون، اللّودنوم؛ وفي هذا الجو بدأ التداول بمباهج الحشيش فتحمس ذوو النفوس الجريئة واللاتقليدية على تجريبها. كان الإطار الشرعي والفكري لتعاطي المخدرات في أوائل القرن التاسع عشر مختلفاً عما نعرفه اليوم. لم

يكن هناك حظر على مادة الأفيون والحشيش، لم يُعتبر تعاطيهما سلوكاً مخزياً. كان التبغ والبن معروفين في أوروبا منذ فترة طويلة وصارا من الضرورات الحضارية، لذلك لا يثير الاستغراب أن حكايات الرحالة حول نشوة التخدر وتصوّرات التعالي ساعدت على تزايد الرغبة بتجريب القنّب.

في بداية الأربعينات من القرن الماضي قامت مجموعة من الكتاب الفرنسيين بينهم تيوفيل غوتتيه، وبودلير، وجيرار دو نيرفال، ودوما وبلزاك، إلى جانب عدد من النحاتين والرسامين والفنانين البوهيميين، بتشكيل نادٍ عرف بـ «نادي الحشاشين». كان أعضاء النادي يعقدون اجتماعات أسبوعية في غرف علّقت فيها ستائر الدمقس وذلك في فندق لوزان في جزيرة سان لويس في باريس. في هذه الاجتماعات كان الرحالة وعالم النفس ج.ج. مورو يزوّد الحضور بنوع من الحشيش الجزائري الهلامي يعرف بالدواميسك Dawamesc، كانت اللقاءات مغلقة واقتصرت على شخصيات أدبية وفنية مرموقة. لكن بعد سنوات قليلة، وخلال الانتفاضة التي شهدتها باريس سنة ١٨٤٨، قام الطلبة الذين شاركوا في إثارة القلاقل بحمل شعارات وجابوا الشوارع مطالبين بحق الحصول على القنّب والإثير.

سنة ١٨٤٢ كان الطبيب الإنكليزي و.ب. أوشونسي أول من وصف الغانجا، أو القنّب الهندي، وقدّمه إلى إنكلترا في كتابه Bengal Pharmacopeia. وهكذا صار القنّب معروفاً في المجال الطبي وصار موجوداً في الصيدليات.

علاقة الأفيون والحشيش بتشكل المخيلة الأوروبية معقدة وتكافلية. عرف الغرب الأفيون واستخدمه قبل الحشيش بزمن طويل. كان الأطباء يعرفون الأفيون على الأقل منذ زمن الفراعنة والحضارة المينوية، وقد لعب دوراً بارزاً في المرحلة الأخيرة لتداعي الديانة المينوية. دخل الحشيش إلى أوروبا في فترة متأخرة، وكان ذلك مرتبطاً بشكل أساسي بالرغبة في الوصول إلى حالات مختلفة عن تلك التي اختبرها عشاق الأفيون.

على الرغم من انتشار استخدام القنب في الشرق منذ عدة قرون، كانت قلة من الأوروبيين فقط تعرف بوجوده قبل ظهور حكاية ماركو بولو المثيرة حوالي سنة ١٢٩٠. ومع أن الطبيب الألماني جوهانوس واير أشار إلى تعاطي الساحرات للحشيش في القرن السادس عشر، ظلت العقاقير التي تعتمد في تركيبها على القنب الهندي غير معروفة في الوسط الطبي، ولم تستقدم إلى أوروبا قبل تشجيع أوشونسي ومعاهدة الفرنسي أوبرت روش على استخدامها حوالي سنة ١٨٤٠.

سنة ١٨٤٥ أصدر ج.ج. مورو دوتور كتابه Du Hashish et de L'Alimentation Mentale

(الحشيش والمرض العقلي). دراسته التفصيلية لتأثيرات الحشيش لفتت اهتمام الأوساط الطبية والأدبية، وأطلقت موجة من التجريب. ولكن الاهتمام بالحشيش لم يتجاوز إطار الحلقات الباريسية التي كان مورو ينتمي إليها. لم يكن تعاطي الحشيش منتشراً في أوروبا في القرن التاسع عشر؛ وظل استخدامه في هذه الفترة مقتصراً على الشرق القريب والأوسط.

القنّب وأميركا في القرن التاسع عشر

ألّف الأميركيون الكتب عن الحشيش وتحدثوا عن سحره وتدافع خيالاته. وهم بذلك تتبعوا أثر الإنكليز الذين تعاطوه مثل كولريدج ودوكوينسي. كتاباتهم تأثرت كثيراً بأسلوب «السعادة والرعب» الذي شاع بسببه اسم دوكوينسي. وصف مفعول الحشيش أظهر بوضوح ما يحدثه من حالة إلهام ميتافيزيقي مرهف. في أيامنا لم يعد الحشيش يؤكل، إلاّ في نوع من الحلوى، تعاطي الحشيش اليوم يقتصر على تدخينه. في القرن التاسع عشر كان الحشيش يؤكل في نوع من الحلوى يستورد من الشرق الأوسط. هذه الطريقة لتعاطي الحشيش وما ينتج عنها من تهيؤات وحالات تخدير تؤكد تحوّل الحشيش إلى مادة فاعلة تساعد على اكتشاف الأبعاد الداخلية للمخيلة والإدراك. أول رحلة استكشافية في مجال الحشيش رواها الرحالة الأميركي بايارد تايلور في عدد من مجلة أتلانتيك الشهرية صدر عام ١٨٤٥:

> الإحساس بوجود الحدّ ـ بتقوقع أحاسيسنا داخل أطر اللحم والدم ـ سقط مباشرة. الجدران المحيطة بي تفجرت وهوت؛ وبدون أن أفكر في الشكل الذي أرتديه ـ حتى أنني لم أعد أعرف معنى الشكل ـ شعرت أنني موجود في مدىً فضائي شاسع... روح (أو شيطان؟) الحشيش تملكني. قذفني إلى دفق خيالاته التي جرفتني معها من حيث تشاء. الرعشات التي سرت في أوصالي تسارعت وازدادت قوة، ورافقتها أحاسيس ملأت كياني ببهجة أعجز عن وصفها. كنت محاطاً بفيض من النور، تلاعبت فيه ألوان الضوء الصافية والمتناغمة. فيما كنت أحاول بصعوبة نقل مشاعري إلى رفاقي الذين جلسوا حولي ينظرون إليّ مشدوهين ـ لم يكونوا قد تأثروا بعد بالمخدر ـ وجدت نفسي فجأة بجوار هرم خوفو. حجارته الكلسية الصفراء تألّقت كالذهب تحت أشعة الشمس، وارتفعت شامخة كأنها تلامس السماء. تمنيت لو أرتقيها، ورغبتي حملتني في الحال إلى قمة الهرم على ارتفاع آلاف الأقدام فوق حقول القمح وبساتين النخيل. نظرت إلى الأسفل ودهشت عندما رأيت أن الهرم لم يكن مشيداً بالحجارة الكلسية بل بأقراص ضخمة مضغوطة من التبغ. لا تستطيع الكلمات وصف حالة السخافة المضحكة التي انتابتني. تجمعت على كرسي في نوبة ضحك مفاجئة، لم تخف إلاّ مع تلاشي المشهد وذوبانه؛ ومن بين فوضى الصور غير الواضحة وأجزاء الصور تراءى لي مشهد آخر أكثر روعة.
>
> في كل مرة أحاول فيها تذكر المشهد التالي، وأسعى بحرص أكبر على استعادة ملامحه المميزة، وتفريق خيوط الأحاسيس التي تحابكت في شبكة هائلة، يزداد شعوري بانني عاجز عن الاحاطة ببهجته. كنت أعبد الصحراء، لا على ظهر الجمل، بل على متن مركب مصنوع من عرق اللؤلؤ، امتلأ

بجواهر ذات بريق متألق. كان الرمل حبيبات من الذهب، شقته عارضة المركبة الفولاذية بدون ارتجاج أو صوت. كان الجو يشع بالضوء مع أن الشمس لم تكن ظاهرة. تنشقت أطيب الروائح؛ وغمرتني أنغام، كالتي كانت على الأرجح تخطر لبيتهوفن في أحلامه دون أن يكتبها. كان الجو نفسه ضوءاً ورائحة وموسيقى؛ وكل بعد منها منفرداً أو موحداً كان أسمى من أن تستطيع الحواس الصاحية تلقّيه. امتدت أمامي ـ على بعد آلاف الفراسخ كما خُيّل إليّ ـ مشهد من أقواس قزح، ألوانها تألقت صافية كالجواهر ـ أقواس حيّة من الجمشيت والصّفير والزمرد والتوباز والياقوت. مرت بي بالآلاف ومركب اندفع بسرعة عبر ذلك الممر المقنطر؛ والمشهد ظل مترامياً أمامي. استمتعت بنعيم حسي كامل، أشبعت فيه كل أحاسيسي. وأبعد من كل ذلك غمرني إحساس لا متناهٍ بالنصر[^٨].

هذه الأوصاف توضح لنا لماذا كان«النعيم المصطنع» مغرياً إلى هذا الحد للمخيلة الرومنطقية: وكأن الواحد منهما كان مُعدّاً ليلائم الآخر. والرومنطيقيون باهتمامهم بالأمزجة الدرامية في الطبيعة وتنميتهم لأحاسيس اعتبرها النقّاد «أنثوية» حملوا كل دلائل إحياء المشاركة البدائية. هذا النص لبايارد يضعنا في مجال الكتابة الحديثة عن المخدرات وفي مجال المعايير الحديثة فيما يختص بتجربة التخدر. تايلور تأثر بجمال التجربة وعمقها المعرفيّ، ولم يخض هذا المجال طلباً للمتعة بل للمعرفة. وبالنسبة له، ولنا أيضاً، تطرح حالات التخدير أسئلة كثيرة حول نفسية الإنسان.

مواقف متغيرة من المخدر

هذا الموقف «العلمي» كان نموذجياً لدى مثقفي القرن التاسع عشر الذين تعاطوا الأفيون والحشيش. كان الباحثون يبدأون غالباً تعاطي هاتين المادتين. من أجل «إشعال المخيلة الخلاقة» أو ملامسة «وحي» غير محدد المعالم. كانت لدى كتّاب «جيل الموسيقى» أهداف مشابهة عندما لجأوا إلى الماريجوانا ومن قبلهم أيضاً فنانو الجاز وجيل الروك بعدهم. حكايات قليلة تنسج حول حضارة سرية تخلق تياراً من الإدانة، يقابله تيار يعتقد فعلاً أن القنّب يستطيع المساهمة في إحداث نمط حياتي خلاّق. لكن هناك فئة من الناس لا تزال تستخدم القنّب في هذه الطريقة.

الجانب العقاقيري للمخدر يفسّر فقط بعض تأثيراته؛ المحتوى ـ أو «الإعداد»، نسبة إلى ليدي وميتزنر ـ يوازيه أهمية. الدلالة «الاستجمامية» كما يفهمها التيار السائد في الولايات المتحدة، هي جو يتجاوز مستوى التأثير المعرفي للمادة المستخدمة. الجرعات المتدنية من معظم المخدرات التي تؤثر على الجهاز العصبي المركزي يشوبها الجسم كأنها منبه، أو طاقة فيوجه تأثيرها إلى الخارج في إطار نشاط فيزيولوجي للتعبير عن الطاقة وإخمادها في الوقت نفسه. هذا الواقع

[^٨]: (٨) بايورد تايلور: «The Land of the Saracen»، نيويورك، G.P. Putnam، ١٨٥٥، ص ١٣٧ ـ ١٣٩.

العقاقيري يكمن وراء الضعف أمام المخدر الاستجمامي إن كان شرعياً أو غير شرعي. والأجواء التي تتضافر فيها الإشارات الاجتماعية والضجيج والإلهاء البصري كالنوادي الليلية مثلاً ـ هي أجواء نموذجية لاستخدام المخدرات الاستجمامية لما لها من دلالة مشروعة حضارياً.

ينظر مجتمعنا إلى تعاطي المخدر على حدة؛ التعاطي المنعزل مرضيّ؛ وكل محاولة للاستبطان كذلك. كان استخدام البدائيين للنباتات المخدرة، بما فيها القنب، مختلفاً. الطقوس والعزلة وتجريد الأحاسيس، أساليب يلجأ إليها الشامان ليتوغل في عالم الأرواح والأسلاف. لا شك أن الذين ينظرون إلى القنّب كسلعة ويشيرون إليه كمخدر استجمامي يقللون من شأنه؛ ولا شك من ناحية ثانية أيضاً أنه عندما يستخدم أحياناً في سياق طقوس لتوقع إحداث تحوّل في الوعي، يصبح القنّب قادراً على إعطاء كل ما هو متوقع من المواد المثيرة للهلوسة.

فيتز هيوغ لودلو

بعد بايارد تايلور برز معلّق آخر على ظاهرة الحشيش هو فيتز هيوغ لودلو. هذا الكاتب المترف الذي لم يكن ذائع الصيت في القرن التاسع عشر ابتكر نمطاً من الكتابة قلّده فيما بعد ويليام بورروز وهانتر س. تومبسون. كان لودلو طالباً في صف الفريشمان في يونيون كوليدج سنة ١٨٥٥ عندما قرر أن يختبر علمياً تأثيرات الحشيش وهو حفل شاي أقامه الطلاب:

> كنت أجلس إلى طاولة الشاي عندما أصابتني الرعشة. كنت أعطيت الكوب للآنسة ميلفاين حتى تملأه لي، وكانت تهمّ بإعادته لي وأنا مترع بجرعة تبهج ولا تسكر. لن أحسب المسار القوسي الذي بدا لي أن يدها تجتازه لتصل إليّ. ازدحمت الجدران بآلهة الساطير الراقصة؛ موظفون حنينيون كانوا ينحنون بغباء في كل الزوايا؛ شعرت بضرورة مغادرة المكان قبل أن يفتضح أمري[٩].

في تقرير لودلو عن القنّب خلاصة كل ما هو تهريجي في الأسلوب الأميركي لتجاوز الوجود المادي. لودلو ابتكر شخصية أدبية على غرار الشاعر جورشايد في رواية نابوكوف Pale Fire (النار الشاحبة)، شخصية تسمح لنا بإلقاء نظرة أكثر عمقاً على حالته، أكثر مما يستطيع هو أن يفعل. لودلو بجنونه وعبقريته يحتل موقفاً وسطاً بين الكابتن أهاب وب.ت. بارنوم، يشبه مارك توين عالم الحشيش. روحيته المرحة وانفتاحه العلمي يعطيانه سحراً خاصاً وهو يخوض في تهيؤات عالم الحشيش المتبدلة:

> إلى أي مدى يستطيع الحشيش إلقاء الضوء على الأعماق السرية العقلانية مسألة ينظر إليها دوغماتياً من زاويتين مختلفتين. الرجل الذي لا يؤمن بأي شيء لا يلامس بطريقة ما جسمه سيتراجع غريزياً

(٩) فيتز هيوغ لودلاو: «The Hasheesh Eater: Being Passages from the Life a Pythagorean». نيويورك، Harper & Brother، ١٨٥٧، ص ٨٦.

ليحتمي في الحصن الذي يفترض أنه التفكير السليم ويصرخ «مجنون» من الداخل. سوف يرفض التجربة ويعطي حكمه النهائي على كل ما رافقها بأنه جنون.

وهناك رجل آخر يعترف بأهمية الأحاسيس المادية في وجوده، ويقتنع بأنها تحدث لديه تهيؤات فقط؛ هذه التصورات ليست موجودة في جوهرها وقانونها ومصنّفة بما يتناسب مع مصدرها، بل كما تؤثر فيه فقط من خلال المداخل المختلفة لجسمه. هذا الرجل يميل إلى الاعتقاد بأن العقل، في تفوقه المميز بوصفه الوجود الأوحد الذي يعي ذاته في الكون له الحق ويتمتع بالقدرة لأن يلتفت إلى الداخل إلى ذاته من أجل الإجابة على الألغاز المميزة في الدنيا...

هذا الرجل، وإن كان خيالياً، سوف يعترف باحتمال أن يكتشف في إطار العقل، في بعض حالات اليقظة الاستثنائية، حقيقة، أو مجموعة حقائق لا تتكشف هل في ظروف الحياة الاعتيادية اليومية[١٠].

القنّب في القرن العشرين

تاريخ القنّب في الولايات المتحدة بعد لودلو كان تاريخاً مريحاً. لم يكن القنب موصوفاً ولا مبسّطاً في عيون الناس. هذا الوضع استمر حتى أوائل الثلاثينات عندما أحدث المفوّض المسؤول عن المخدرات هاري ج. أنسلينغر حالة هستيرية عامة. أنسلينغر خاض حملته على ما يبدو وبتوصية من الشركات الأميركية الكيميائية والبتروكيميائية التي أرادت التخلص من القنّب. كمنافس في مجالات تصنيع الزيوت والغذاء ومواد البلاستيك والنسيج الليفي[١٠].

أنسلينغر وصحافة الفضائح وصفا القنّب بأنه «عشبة الموت». ويليام راندولف هيرست أشاع اسم «المارجوانا» في نية واضحة لربطه بفئة متدنية من ذوي البشرة الداكنة غير الموثوق بهم. لكن كان من الصعب جداً على العلم أن يحدد بوضوح ما هي الاعتراضات على التعوّد على القنّب. لكن إنفاق الحكومة على الأبحاث يدل بالتأكيد على أن «قيصر لا يسمع إلاّ ما يعجب قيصر».

على الرغم من كل الضغوطات تزايد استخدام القنّب حتى صار اليوم أكبر محصول زراعي في الولايات المتحدة. هذا أحد الجوانب الأكثر بروزاً في النقلة الجذرية التي سميتها الإحياء البدائي. إنه دليل على أن الدافع الداخلي لاستعادة التوازن النفسي، السمة المميزة لمجتمع المشاركة، عندما يجد وسيلة مناسبة لا يمكن ردعه بسهولة. كل ما يتعلّق بالقنب ويجعله مرفوضاً بالنسبة للمعايير البورجوازية الحالية، يفتح أمامه آفاق الإحياء البدائي. إنه يضعف قوة الأنا، ويخفف هذه المنافسة ويدفع المرء إلى طرح مسألة السلطة ويعزّز فكرة الأهمية النسبية فقط للقيم الاجتماعية.

---

(١٠) المصدر نفسه: ص ٢٨٨ - ٢٨٩.

لا يوجد مخدر آخر يستطيع منافسة القنّب في قابليته لإرضاء النزوع الداخلي لإذابة الحدود ومحافظته في الوقت نفسه على تماسك البنى الاجتماعية. لو أن كل من يتعاطى الكحول يتحكم في رغبة وكل مدخن لا يدخن إلا الحشيش. ستتغير الانعكامات الاجتماعية لمشكلة المخدرات. لكننا كمجتمع لسنا بعد مستعدين لمناقشة احتمال الإدمان الذي يخضع للتحكم الذاتي، واحتمال أن نختار بذكاء النباتات التي نريد أن نكون على صلة بها. مع الوقت، وربما مع الإحساس باليأس، سوف نصل إلى ذلك.

III

الجحيم

١١ ـ السكر والقهوة والشاي والشوكولاته

تعلّم أجدادنا الأوائل في الماضي البعيد، بدافع تناقص الموارد وتغيّر المناخ، أن يختبروا المنتوجات الطبيعية في البيئة كمصادر للغذاء. الحيوانات الرئيسة الحديثة مثل قرد الرباح لاتزال تقوم بهذه المهمة. عند رؤية مصدر غير معتاد للغذاء كان الإنسان يقترب منه ويفحصه بعناية من حيث مظهره ورائحته، ومن ثم يضعه في فمه ويتركه هناك دون أن يبتلعه، وبعد عدة دقائق يقرر ما إذا كان يبتلعه أو يبصقه. هذه العملية تكررت باستمرار عبر أزمنة طويلة حاول فيها البشر تحديد أنواع غذائهم.

من الواضح أنه كان هناك توازن بين استبعاد الأطعمة التي تتسبب بالأذى لصحة الفرد واحتمال التكاثر وإضافة أكبر قدر ممكن من الموارد الغذائية. يقول منطق التطور إنه في مواجهة قلّة الغذاء تكون الحيوانات القادرة والراغبة بتحمل العديد من الأطعمة الهامشية أكثر نجاحاً على الصعيد التطوري من تلك التي تستطيع أن تتقبل فقط عدداً محدوداً من المواد في غذائها. أي بكلام آخر، يصبح الحيوان مضطراً لتوسيع تعريفه لما يعتبره أطعمة مقبولة وذلك بتوسيع حاسة التذوق عنده.

توسيع حاسة التذوق

توسيع حاسة التذوق أو اكتساب ذوق ما عملية تُتعلّم؛ إنها عملية ذات بعدين،سيكولوجي وبيوكيميائي، وهي معقدة للغاية. إنها من ناحية أولى تتطلب التغلب على جمود العادات الراسخة، تلك العادات التي ترفض الغذاء الجديد المحتمل فتراه أنه غريب أو غير مألوف أو سام أو تربطه بالأعداء أو المنبوذين في المجتمع. ومن ناحية ثانية تتضمن التأقلم مع طعام غريب كيميائياً. هذه العملية تحفّز الأجهزة غير الإرادية مثل جهاز المناعة؛ وتتضمن أيضاً تحريكاً سيكولوجياً، كأن تكون هناك رغبة في تقبل المادة الغذائية الجديدة لأسباب ربما تكون اجتماعية

بقدر ما هي غذائية. في حالة النباتات المهلوسة تكون التغيرات التي تلي غالباً تقبلها على صعيدي الصورة الذاتية والدور الاجتماعي سريعة وقوية. لكن يجب أن نذكر أن المواد المهلوسة توجد عند نهاية هذا السلّم.

وماذا عن النباتات التي لا تُحصى والتي لها مذاق طيب لكنها ليست ذات قيمة غذائية تذكر أو ذات قدرة تخديرية ملحوظة؟ هذه أيضاً صارت أطعمة اعتاد الإنسان على تناولها. وهي في الواقع تراوحت بين كونها مواد غذائية مترفة تتمتع بها فئة مرفهة في العصور الرومانية الى كونها بضائع يتاجر فيها وجّهت الجهود الأوروبية الهائلة للاستكشاف والاستعمار وحركت عجلة المركَنتلية والبناء الامبراطوري اللذين حلاً محلّ التوجّه الداخلي الذي تسبب بحالة الركود التي عانت منها أوروبا المسيحية في القرون الوسطى.

«التنوّع تابل الحياة» قول نعرفه جميعاً. لكننا عندما نبحث في تأثير النباتات ومنتوجات النباتات على تاريخ البشر يبدو القول أكثر صحة إذا كان: «التابل هو تنوّع الحياة». القرون الوسطى، ونهايتها، حالة نتوقف عندها في هذا السياق.

لم تكن حضارة السيطرة أكثر قوة ورسوخاً في أوروبا المسيحية مما كانت عليه بعد انهيار الامبراطورية الرومانية. ونستطيع القول أن الناس لم يعيشوا من قبل فترة طويلة إلى هذا الحدّ تميزت بندرة المخدرات وفقدان الحافز الكيميائي. كانت الرغبة في التنوع، التي تساعد على التعلّم وتخفف وطأة الملل، مقموعة في أوروبا منذ فترة طويلة.

أوروبا القرون الوسطى كانت من أكثر المجتمعات التي عرفتها البشرية تصلباً وعصبية وكراهية للمرأة. كانت مجتمعاً يتوق إلى الهرب من نفسه، مجتمعاً مهووساً بالإستقامة الأخلاقية والكبت الجنسي.مجتمع مربوط إلى الأرض، حكمه رجال يأكلون لحم العجل ويصابون بالنقرس، يلبسون ثياب النساء ويقمعون المرأة. هل نستغرب بعد ذلك أن ينتشر الولع بالأصباغ والتوابل، التي بالكاد تشكل مادة للثورات الاجتماعية؟ كان ولع الأوروبيين، الشبيه بالإدمان، قوياً لدرجة أنه كان الدافع لتنشيط وتطوير بناء السفن ووسائل الإبحار، والصيرفة والمؤسسات التجارية عموماً.التوابل أعطت الغذاء وبالتالي الحياة، وهذا تنوع لم يعرف من قبل. والأصباغ، ووسائل الصباغة الجديدة والأقمشة الدخيلة أحدثت ثورة في الأزياء.

الحياة بدون توابل

من الصعب على الذين يعيشون في مجتمع الوفرة والإشباع الحسّي والتلفزيون أن يتصوروا الملل المحبط في معظم مجتمعات الماضي. كانت «عظمة» المجتمعات الكبرى في الماضي تعود

في الأساس إلى عرض للتنوّع ـ تنوّع في الألوان والأنسجة والمواد والأشكال المرئية. عرض التنوع هذا كان حكراً على الحاكم وبلاطه.. جدّة الثياب والأثاث في البلاط لها دلالة مباشرة على مقدار قوته. وهكذا كانت الحال عندما بدأت الطبقة البرجوازية الناشئة في أواخر القرون الوسطى استيراد الأصباغ والتوابل والحرير والأغراض المرهفة الصنع إلى أوروبا.

إنني أوافق على أن اللون والتنوّع لهما أثر قوي على المخيلة. فترات العزلة الطويلة التي عشتها في منطقة الأمازون العليا أثناء القيام بتجاربي الميدانية علّمتني كيف ينسى المرء بسرعة التنوّع المحيّر في الحياة المتحضرة، ومن ثم يتعطّش إليه كمحاولة الامتناع عن مخدر قوي. بعد أسابيع في الأدغال، بدأت أفكر في المطاعم التي سأقصدها عند عودتي إلى المدينة، والموسيقى التي سأسمعها، والأفلام التي سأشاهدها. بعد أيام أمضيتها في غابة المطر، قصدت مرة قرية لأطلب الإذن بجمع أنواع من النباتات في تلك المنطقة. كان المظهر المتمدن الوحيد الدخيل على الجو البدائي الذي رأيته عبارة عن روزنامة عليها صورة فطيرة جبن جلبت من مطعم إيكيتوس وعُلّقت على الجدار المكسو بالقش وراء زعيم القرية. كنت أتكلم معه وعيناه تحدقان بالروزنامة وقد جذبتهما ألوانها. الأرجواني والأزرق الداكن والمشمشي ـ الانجذاب القوي والمهيمن نحو التنوّع يتملّك الإنسان كإغراء المخدر!

أصباغ وتوابل العالم الإسلامي الأكثر تقدماً في المجال التقني ورهافة الحس الفني، دخلت مجرى الحياة الأوروبية الكئيبة كمخدر قوي. القرفة وكبش القرنفل وجوزة الطيب وحب الهال، وعشرات الأنواع الأخرى من التوابل والنكهات والأصباغ، وصلت لتنعّم الذوق وتتألق الملابس في حضارة لم تعرف سوى ثياب الصوف والبيرة والخبز. حضارتنا اليوم شهدت في الآونة الأخيرة نزوعاً مشابهاً وإن كان أكثر سطحية في تزايد الولع بالمطاعم الجديدة والدخيلة التي قد تكون ذات طابع عرقي معين أو تتميز بالإكثار من الأعشاب.

تعلّمنا في المدرسة أن تجارة التوابل أنهت مرحلة القرون الوسطى وأنها كانت بمثابة القاعدة التي انطلقت منها التجارة الحديثة. وما لا نتعلمه هو أن أوروبا المسيحية في القرون الوسطى إنهارت بسبب الهوس بالغريب والجديد والمثير للبهجة ـ أي باختصار بسبب المواد التي توسع أفق الوعي. مخدرات كالقهوة والإفسنتين والأفيون، إلى جانب الأصباغ والحرائر والأخشاب النادرة والأحجار الكريمة وحتى البشر، كل تلك البضائع حُملت إلى أوروبا واستعرضت كأنها غنائم من حضارة كوكب آخر. كل ما له صلة بروعة الشرق ـ الترف والانغماس في الشهوانية والتصاميم الغريبة ـ لم يساهم بتغيير القناعات الجمالية فحسب بل غير أيضاً قواعد السلوك الاجتماعي والصورة الفردية. بعض المدن على طريق الحرير مثل سمرقند واكبتانا، صارت معالم

لترف ورفاهية لم ينسبا في السابق إلاّ إلى الجنة. ذابت الحدود الاجتماعية، والمشكلات القديمة نُظر إليها من منطلق جديد؛ ونشأت فئات علمانية تحدّت سيطرة البابوات والملوك.

باختصار كان هناك تسارع مفاجىء في ظهور البدع والأشكال الاجتماعية الجديدة وهي دلالات لحدوث قفزة توسعية في طاقة المخيلة الأوروبية. مرة أخرى كان البحث عن النباتات وما تحدثه من تحفيز عقلاني دافعاً لمجموعات بشرية لتخوض مجال تجريب أشكال اجتماعية جديدة، وتقنيات جديدة، وتعرف رحابة مفاجئة في اللغة والمخيلة. دافع التوسّع في تجارة التوابل أعاد الاهتمام بفنون الملاحة وبناء السفن والديبلوماسية وفن الحرب والجغرافيا والتخطيط الاقتصادي. مرة أخرى كان السعي للمحاكاة والاستعادة الجزئية للعلاقة التكافلية المفقودة مع عالم النبات، يلعب دور المحفّز للتجريب الغذائي والبحث الدؤوب عن نباتات جديدة وعلاقات جديدة مع النبات، بما في ذلك أنواع جديدة من التخدير.

السكّر

عندما خمد التعطّش إلى التنوّع بتواصل عمليات استيراد التوابل والأصباغ والمنكهات، بدأت البنية التحتية التي تشكلت بتوجيه اهتمامها لإشباع نزعات أخرى ـ خصوصاً إنتاج وشحن السكر والشوكولاته والشاي والقهوة والكحول المقتّر، هذه كلها مخدرات. تأسس نظامنا التجاري العالمي من أجل إشباع رغبات الناس بالتنوع والإثارة وانطلق في توجهه هذا بإصرار لا يطيق أي تدخل من الكنيسة أو الدولة. لم تكن المعايير الأخلاقية أو الحواجز المادية تستطيع الوقوف في طريقه. قد يبدو لنا اليوم أننا حققنا نجاحاً في هذا الإطار ـ أي «تابل» أو مخدر اليوم، مهما كان نطاق استخدامه التقليدي محصوراً، يمكن التعرّف إليه وإنتاجه أو تركيبه من أجل تصديره بسرعة إلى أسواق تتوق للحصول عليه في كافة أنحاء الكرة الأرضية.

صار تعاطي هذه المواد متفشياً في العالم بأسره. نذكر في هذا الإطار على سبيل المثال استيراد التبغ وتعريف الأوروبيين إلى التدخين في القرن السادس وتلاه انتشار تعاطي الأفيون بضغط من البريطانيين، مروراً بالإقبال الجنوني على الأفيون في إنكلترا في القرن الثامن عشر، وحتى الإستهلاك المؤذي للمشروبات الكحولية المقتّرة عند قبائل الهنود في أميركا الشمالية.

من بين السلع الكثيرة التي دخلت الأسواق الأوروبية خلال فترة انهيار المعايير التي تمسكت بها القرون الوسطى، هناك مادة اعتبرت أنها التابل الجديد أو المخدر المميز. وهي سكر القصب. كان السكر معروفاً قبل ذلك بعدة قرون كمادة طبية نادرة. عرفه الرومان بأنه يستخرج من نبتة تشبه الخيزران. لكن الشروط المناخية الاستوائية التي تتطلبها زراعة قصب السكر ساهمت في صعوبة الحصول على السكر الذي لم يتوفر في الأسواق إلاّ في بكميات قليلة. في القرن التاسع

عشر وبتشجيع من نابليون الأول جرى تطوير زراعة الشمندر السكري واعتبر بديلاً عن قصب السكر.

من المعروف عن قصب السكر أنه ينمو في البرية بكثافة في مناطق آسيا الاستوائية، وهناك خمسة أنواع منه على الأقل في الهند. قصب السكر، Saccharum Officinarum عرف تاريخاً طويلاً من التدجين. الملك الفارسي كسرى الأول (٥٣١ - ٥٧٨) الذي شيّد قصره قرب جوندي - شابور أرسل مبعوثيه إلى الهند ليتحققوا من الشائعات التي راجت هناك عن مخدرات غريبة:

بين هذه (المخدرات) التي حملت إلى جوندي - شابور من الهند السكر (المعروف بالفارسية باسم Shakar، وفي السنسكريتية باسم Sarkara) الذي لم يكن يعرفه هيرودوتس أو كيتسياس، لكن عرفه نيدخوس و أونيسكروتوس بأنه عسل القصب. تقول الحكايات أن كسرى اكتشف مخزناً وكان من الكنوز التي استولى عليها سنة ٥٢٧ عند استيلائه على مدينة واستيغريد. حوالي سنة ٣٠٠ بعد الميلاد عرفت الهند استخراج السكر من عصير القصب، وبدأت زراعة القصب تنتشر في جوار جوندي - شابور وشيدت طواحين السكر هناك. في تلك الفترة وحتى فترة طويلة فيما بعد كان استخدام السكر يقتصر على تحلية العقاقير الطبية المرة غالباً، ولم يصبح البديل عن العسل في تحلية الأطعمة بالطرق المعروفة إلاّ بعد زمن طويل[1].

وصل السكر إلى بريطانيا حوالي سنة ١٣١٩ وصار معروفاً في السويد حوالي سنة ١٣٩٠. كان مستحضراً غريباً غالي الثمن. دخل تركيبة العقاقير الطبية وحسّن مذاقها. قبل اكتشاف المضادات الحيوية كان السكر يستخدم لتكميد الجراح ومفعوله المجفف كان على الأرجح يساهم في شفائها.

زرع الإسبان قصب السكر في مستعمراتهم في الكاريبي، إليهم يعود الفضل المريب بإحضار العبيد إلى العالم الجديد من أجل العمل في مزارع القصب:

حتى عام ١٥٥٠ كانت كمية السكر المستوردة من نصف الكرة الغربي لا تتجاوز بضع كتل كانت تجلب عادة كدليل على إمكانية إنتاج هذه المادة أو بدافع الفضول. وزراعة القصب في جزر الأطلسي الغربية والعالم الجديد لم يكن لها تأثير يذكر على إنتاج السكر وتوزيعه وأسعاره حتى أواخر النصف الثاني في القرن السادس عشر، ولم تصبح واسعة الانتشار قبل حوالي ١٦٥٠[2].

---

(١) دولاسي أوليري: «How Greek Science Passed to the Arabs». لندن، Routledge & Kegan Paul، ١٩٤٩، ص ٧١.

(٢) هنري هوبهاوس: «Seeds of Change: Five Plants That Transformed Mankind»، نيويورك، Harper & Row، ١٩٨٥، ص ٤٦.

الإدمان على السكّر

هل نبالغ إذا طرحنا مسألة السكّر في تاريخ استخدام البشر للمخدرات؟ لا أعتقد ذلك. الإسراف في تناول السكّر أمر يكاد لا يطرح للمناقشة على الرغم من أنه من أكثر حالات الإدمان إنتشاراً. يصل الإدمان على السكّر إلى وضع خطير كما يحدث في حالة الشره المرضيّ على سبيل المثال؛ يعمد المصابون بالشره إلى إرضاء رغباتهم بتناول كميات من الأطعمة المشبعة بالسكّر ثم يتقيأون أو يستخدمون مادة مسهّلة كي يتمكنوا من تناول المزيد من السكّر. لو كان الإدمان على الهيروين مشابهاً لذلك، كم يبدو عندئذٍ تعاطي الهيروين كريهاً! كما يحدث مع المنبهات كلها، يتبع تناول السكّر الإحساس بالنشاط والاندفاع لفترة قصيرة، ويلي ذلك الشعور بالإحباط والذنب. نادراً ما يظهر الإدمان على السكّر كحالة منفردة؟ الإدمان المتعدّد ـ السكّر والكافيين مثلاً ـ هو الأكثر شيوعاً.

هناك وسائل أخرى مؤذية ترافق الإسراف في تناول السكّر. بعض المدمنين يلجأون إلى أقراص التنحيف لتساعدهم على الحد من زيادة الوزن، وإلى المهدئات بعد ذلك لتهدئة النرفزة الشديدة التي تسببها أقراص التنحيف. والإدمان على السكّر يؤدي في الغالب إلى الإسراف المؤذي في تناول الكحول؛ لقد أثبتت الدراسات وجود علاقة مباشرة بين ارتفاع معدل استهلاك السكّر وتناول الكحول بكمية كبيرة بين الوجبات. بعد الكحول والتبغ يعتبر السكّر من المواد الأكثر تسبباً للأذى عند البشر. واستخدامه بدون مراقبة قد ينتج عنه اتكال كيميائي.

قال جانيس ك. فيلبس في وصفه لمدمني السكّر:

> الأشخاص الذين أصفهم هم من المدمنين الذين تعوّدوا على السكّر المكرّر ـ ويعتبر من المواد الأكثر تأثيراً على الإنسان. إدمانهم على السكّر مشكلة صحية فعلية ومؤذية وبالغة الأهمية، وتتسبب في إضعافهم كالإدمان على أية مادة أخرى. كما يحدث في حالات الإدمان عادة، عندما يتناقص معدل المادة الكيميائية التي تعودّ الانسان عليها، يعاني المدمن من اعراض الانقطاع المؤملة؛ عملية إشباع النهم الفيزيولوجي بواسطة مادة كيميائية مضرة للجسم كأية حالة إدمان اخرى. وكما يحدث غالباً في حالات الادمان قد يصل المدمن إلى مرحلة يصبح فيها التزود بالمادة الكيميائية مؤلماً كالانقطاع عنها. دوره الاتكال الكيميائي تترسخ أكثر ويزداد الإحساس بعدم تحملها في آن[٣].

---

(٣) جانيس كيلّر فيليبس، وألان إ. نورس: «The Hidden Addiction and How to Get Free». بوسطن، Little, Brown، ١٩٨٦، ص ٧٥.

السكّر والاستعباد

تشويه حياة البشر ومؤسساتهم وتجريدهما من إنسانيتهما بسبب الإقبال على الكوكايين اليوم، ليس أخطر مما تسببت به رغبة الأوروبيين في الحصول على السكّر في القرنين السابع عشر والثامن عشر. قد يقول البعض إن مراحل إنتاج الكوكايين الأولى ترافقت مع ما يشبه ظروف العمل الاستعبادي، لكن الفرق أن استعباده لم يجزه الباباوات ولم يحظ بالتأييد العلني للحكومات الشرعية الفاسدة. وهناك فرق آخر يجب أن نشير إليه: إن تجارة المخدرات الحديثة ليس فيها ما يشبه عمليات الاختطاف الجماعي والترحيل وقتل الأعداد الكبيرة من الناس، كما حدث لأجل تطوير إنتاج السكّر.

صحيح أن جذور الاستعباد في أوروبا تعود إلى الماضي البعيد. أثينا البيريكليسية في عصرها الذهبي، كان ثلثا سكانها من العبيد. وازداد وضع العبيد صعوبة في ظل الامبراطورية الرومانية: كانوا محرومين من الحقوق المدنية وكانت المحاكم تبيح اللجوء إلى التعذيب للحصول على شهاداتهم. في حال موت مالك رقيق بشكل مفاجىء أو في ظروف غامضة كان يحكم على جميع العبيد الذين يمتلكهم بالموت الفوري بغض النظر عما إذا كانوا أبرياء أو مذنبين. وجدير بالإشارة هنا أن اعتماد الامبراطورية على الاسترقاق يجب أن يمحوا أي إعجاب قد نشعر به أمام «عظمة روما». عظمة روما كانت في الواقع «عظمة» زريبة خنازير متنكرة بشكل ماخور عسكري.

تراجع معدل الاسترقاق مع انهيار الامبراطورية، كما تلاشت كل المؤسسات الاجتماعية في بوتقة القرون الوسطى. إستبدلت الإقطاعية الاسترقاق بالقنانة. والقنانة أفضل إلى حد ما من الاسترقاق: يستطيع القنّ على الأقل أن يعيش في بيت ويتزوج ويرعى الأرض ويشارك في حياة المجموعة. وربما يكون الأهم من كل ذلك أن القن لم يكن يُعد أو يرحّل عن الأرض التي يعمل عليها. عندما كانت الأرض تباع كان الأقنان في معظم الحالات يباعون معها أيضاً.

سنة ١٤٣٢، الأمير هندي البحار البرتغالي، الذي كان إدارياً ومقاولاً أكثر منه مكتشفاً، أسس أول مزرعة قصب سكّر لانتاج السكّر والمتاجرة فيه، في ماديرا. كانت زراعة القصب بدأت في سائر المستعمرات البرتغالية في الأطلسي قبل أكثر من ستين سنة من الوصول إلى العالم الجديد. أكثر من ألف شخص - من المديونين والمحكوم عليهم في قضايا مختلفة واليهود الذين لم يتحولوا إلى المسيحية - نقلوا من أوروبا للعمل في إنتاج السكّر. ظروف حياتهم كانت شاقة - تشبه إلى حد ما ظروف حياة المحكومين بالأعمال الشاقة في مستوطنات العقوبة الجزائية والخدم المستقلّين الذين عاشوا في أوستراليا وبعض المستعمرات الأميركية في أواسط الأطلسي.

كان قصب السكّر النتاج الأول للزراعة التجارية في العالم الجديد. ويقال إنه بحلول عام ١٥٣٠، بعد أقل من أربعين سنة على وصول الأوروبيين في المرة الأولى، كان هناك أكثر من عشر مزارع للقصب في جزر الهند الغربية.

هنري هو بهاوس في كتابه «Seeds of Change» (بذور التغيير) كتب حول بدايات الاستعباد في أفريقيا. سنة ١٤٤٣ حمل أحد القادة التابعين للأمير هنري أخباراً عن الاستيلاء في البحر على حمولة سفينة من العرب والمسلمين ذوي البشرة السوداء:

> هؤلاء الرجال الذين كانوا من المسلمين من أصل عربي زنجي، قالوا إنهم أبناء سلالة عريقة لا تليق بها العبودية. وأكدوا بحدّة أن المناطق النائية في أفريقيا فيها العديد من الزنوج الوثنيين، أبناء حام، وهؤلاء يصلحون كعبيد أقوياء، وأنهم مستعدون لإحضارهم إلينا مقابل حريتهم. وهكذا بدأت تجارة العبيد الحديثة ـ لا التجارة العابرة للأطلسي بل التي سبقتها، التجارة بين أفريقيا وجنوب أوروبا[٤].

ويصف هوبهاوس عبودية السكّر في العالم الجديد:

> عبودية السكّر كانت ذات طابع مختلف. كانت المرة الأولى منذ عصر العزب الرومانية الكبيرة التي تستخدم فيها أعداد من العبيد لزراعة محصول من أجل التجارة على نطاق واسع. وكانت المرة الأولى في التاريخ التي يقع الاختيار فيها على عرق واحد لكي يستعبد. كانت أسبانيا والبرتغلال شجعتا شحن أبناء جزر الهند الشرقية أو الصين للعمل كعبيد في الأميركيتين[٥].

تجارة العبيد نفسها كانت نوعاً من الإدمان. استورد العالم الجديد عبيد أفريقيا في البداية لأجل النهوض باقتصاد زراعي قوامه السكّر. كان جنون الرغبة في الحصول على السكر عارماً لدرجة أن ألف سنة من التعاليم الأخلاقية المسيحية لم تعد تعني شيئاً. تفجرت قسوة الناس ووحشيتهم إلى مستويات لا تصدق وقد تقبلت ذلك بهدوء مؤسسات المجتمع المهذب.

دعونا نتكلم بوضوح، السكّر مادة غير ضرورية على الإطلاق في غذاء البشر؛ قبل تصنيع سكّر القصب والشمندر كان البشر يتدبرون أمر غذائهم جيداً بدون السكّر المكرّر، الذي يكاد يتكون من السكروز الصافي. ما يساهم به السكّر في الغذاء ليس صعب الحصول من مصادر أخرى. إنه مجرد «هزة ابتهاج» وليس أكثر. لكن الحضارة الأوروبية كانت مستعدة لأجل هذه الهزة المثيرة للبهجة أن تدوس على قيم مرحلة التنوير وتتعاون مع تجار العبيد. مع حلول عام ١٨٠٠ كان كل طن من السكّر تستورده بريطانيا من إنتاج عمل العبيد المضني. إن قدرة حضارة السيطرة الأنانية على طمس هذه الحقائق مثيرة للدهشة.

---

(٤) هوبهاوس، (نافذ)، ص ٥٤.

(٥) هوبهاوس، (نافذ)، ص ٦٣.

إذ كان هناك مزيداً من التنفيس عن الغضب من التعوّد على السكّر فهذا مردّه إلى أن الإدمان على السكّر يجسد على ما يدو كافة المواقف العنيدة التي نتشبث بها عندما نفكر بالمخدرات.

السكّر ونمط السيطرة

مع تزايد المسافة المؤقتة التي تفصلنا عن جنة المشاركة الأصلية، وتراجع الصلة مع الرحم الأنثوي النباتي للحياة على الأرض، يتزايد ضغط العُصاب الحضاري وتجليات الأنا غير المنضبطة وتتكاثر نظريات السيطرة في التنظيم الاجتماعي. العبودية التي كانت غير معروفة تقريباً في مرحلة القرون الوسطى، عندما كانت مجموعة قليلة تحتكر ملكية كل شيء، عادت للظهور تلبية للحاجة إلى طاقة العمل البشري في زراعة القصب المزدهرة في المستعمرات. رؤية توماس هوبز، إن المجتمع البشري يميل لا محالة إلى استعباد القوي للضعيف، وفكرة جيرمي بنثام عن القاعدة الاقتصادية النهائية لكل القيم الاجتماعية، تدلان على أن المعايير التي تهدف إلى رعاية الأرض والمشاركة معها في حياة تتصف بالتوازن العاطفي الطبيعي، تراجعت أمام جشع الأنانية الفاوستية. روح الكوكب الذي قلّصه التوحيد المسيحي حتى حدود الإنسان، تلاشى كلياً عند ورثة العقلانية الديكارتية.

هذا كله مهّد لتغيير صورة الإنسان الذاتية وتجريدها كلياً من روحانياتها وتركها تنجرف في كون ميّت لا غاية له وبدون بوصلة أخلاقية. الطبيعة العضوية تعتبر حرباً، والمعنى يتوقف على «السياق»، والكون يفقد معناه. عملية تعميق الاضطراب الحضاري العصبي (الهوس بالأنا والمال والتخدر المزدوج بالسكر والكحول) وصلت إلى ذروتها في أواسط القرن العشرين مع تأكيد سارتر المروّع أن «الطبيعة بكماء».

الطبيعة ليست بكماء، بل الإنسان الحديث أطرش ـ وقد اكتسب الطرش لأنه لا يرغب في سماع رسالة الاهتمام والتوازن والتعاون، رسالة الطبيعة إليه. حالة الرفض التي نعيشها تجعلنا نعتقد أن الطبيعة بكماء ـ كيف نستطيع بدون ذلك أن نتحاشى مواجهة الجرائم الفظيعة التي ارتكبناها على امتداد قرون طويلة ضد الطبيعة وضد بعضنا البعض. النازيون قالوا إن اليهود ليسوا بشراً حقيقيين وبالتالي فإن قتلهم الجماعي لهم ليس أمراً مهماً. بعض الصناعيين والسياسيين يلجأون إلى حجة مشابهة بإنكارها للجانب الروحي ويحاولون تبرير تدمير الكوكب، الرحم الأمومي الضروري لاستمرار الحياة.

إن الإدمان على التعلق بالأنا وأنماط السيطرة الوحشية أدى إلى تبلور مثل هذه البيئة العقلانية الجماعية التي تسمح بالتعبير عن هذه الطروحات. يقف السكر عند الحد الفاصل في مثل هذه

الأمور، لأن السكر والكافيين الذي انتشر معه يعززان ويساندان تأكيد التحضّر الصناعي على أهمية الفاعلية على حساب القيم الإنسانية البدائية.

مخدرات الطبقة الارستقراطية

في مطلع قصيدته الرائعة «صباح الأحد» يقدم ولاس ستيفنز صورة عن التخطي المشرق والمألوف والاعتيادي تليق بسيزان:

راحة البنوار قهوة

متأخرة وبرتقالات في كرسي تعمره أشعة الشمس،

وحرية الكُكَتوه الخضراء

تمتزج على بساط لتبدّد

سكون القربان القديم المقدس(٦).

أبيات ستيفنز تصف جو الإشباع الذي يحدث بتناول الكافيين. قصيدة «صباح الأحد» تذكرنا أن تفكيرنا المقولب حول ما يفترض أنه مخدرات يضطرب عندما يطلب منا اعتبار المكمّلات المرهفة للحساسية البورجوازية كالشاي والقهوة والكاكاو أنها تنتمي إلى فئة الهيروين والكوكايين. لكن هذه المواد كلها مخدرات بالفعل؛ توقُنا اللاّواعي لإيجاد سبيل يعيدنا إلى النُّسب الحسية البدائية دفعنا لتطوير بدائل لا تُحصى تعكس تقديرنا للتخدير النباتي. المنبهات المعتدلة، التي ليس لها تأثير مؤذٍ أو إتكالي، كانت تشكل جزءاً من غذاء الحيوانات الرئيسة قبل زمن طويل من ظهور الإنسان الأول. مادة الكافيين العلوية نجدها في تركيبة معظم النباتات المنبهة التي تناولها الإنسان. والكافيين منبّه قوي أدنى من السّمية؛ نجده في الشاي والقهوة ونباتات كثيرة غيرهما، كنبتة إيلكس باراغوايـنسيس Ilex Paraguayensis، مصدر الماتّي أو بولينيا يوكو paullinia Yoco، وهي نبتة متعرّشة تنمو في الأمازون وهي معروفة بأنها تخفف الشهية، وكلاهما له طرق استخدام طقوسية قديمة جداً لاتزال تطبق محلياً.

الكافيين مرّ، واكتشاف أنه يصبح أفضل مذاقاً بإضافة العسل أو السكر وهذا مهّد لظهور فاعلية تعاونية قوية ولكنها قليلاً ما تثير الاهتمام وذلك بين السكر وكافة المشروبات التي تحتوي على الكافيين. قابلية السكر لإحداث الإدمان تصبح أقوى إذا كان السكر يستخدم كمساعد على استهلاك مادة قلوية منبّهة كالكافيين وجعلها أطيب مذاقاً.

نحن نعتبر السكر غذاء. هذا التعريف يرفض أن يكون السكر مخدراً يحدث الإدمان، لكن

(٦) والاس ستيفنز: «The Collected Poems of Wallace Stevens»، نيويورك، Alfred A. Knopf، ١٩٨١.

الدلائل على ذلك واضحة في محيطنا. معظم الأطفال والذي يعانون من الشراهة يعيشون في بيئة تحريضية تتحكم بها بالدرجة الأولى تقلبات في المزاج ناتجة عن الحاجة الماسة إلى السكر.

القهوة والشاي: بديلان جديدان للكحول

من الناحية العملية نستطيع القول أن مواد الشاي والقهوة والكاكاو دخلت على نحو متزامن إلى إنكلترا في الخمسينات من القرن السابع عشر. أوروبا المسيحية عرفت للمرة الأولى في تاريخها شراباً بديلاً عن الكحول. هذه المواد من المنبهات؛ وكانت تمزج بالماء الساخن بعد غليه وذلك للتأكد من أنها خالية من تلوّث المياه الذي كان مشكلة في تلك الفترة؛ ويضاف إليها مقدار من السكر. الرغبة في التهام السكر زادت في الإقبال على القهوة والشاي والشوكولاته، التي بدورها زادت استهلاك السكر. هذه المنبهات الجديدة كانت تنمو في المستعمرات نفسها التي ازدهر فيها انتاج السكر. زراعة الشاي والبن والكاكاو أكدت إمكانية تنويع المحصول في المستعمرات وساهمت بالتالي في المزيد من الاستقرار الاقتصادي في المستعمرة والوطن الأم.

مع حلول عام ١٨٢٠ كانت آلاف الأطنان من الشاي تصل إلى أوروبا كل سنة، منها حوالي ٣٠ مليون باوند كانت تستهلك في المملكة المتحدة وحدها. شاي السوق الأوروبية أتى من مدينة كانتون الساحلية في جنوب الصين، من أواسط القرن السابع عشر وحتى أوائل القرن التاسع عشر. لم يكن مسموحاً لتجار الشاي بالتوغل إلى داخل البلاد، أو الإطلاع عن أية تفاصيل حول زراعة نبتة الشاي والعناية لها. يقول هوبهاوس في هذا المجال: «من المفارقات التاريخية المضحكة على امتداد حوالي قرنين من الزمن كانت أوروبا تستورد سلعة في النصف الثاني من العام، وأن دعامة اقتصادية كبيرة تأسست شملت ما يوازي خمسة في المئة من الانتاج المحلي الإجمالي في إنلكترا وحدها، ومع ذلك لم يكن أحد يعرف شيئاً عن زراعة نبتة الشاي أو تحضيرها أو مزجها»(٧).

هذا الجهل لم يكن عائقاً لإزدهار تجارة الشاي؛ لكن استيلاء الأتراك على القسطنطينية عام ١٤٥٣ كان بالتأكيد كذلك. عندما صارت الطرق التجارية في شرق البحر الأبيض المتوسط خاضعة لنفوذ الأتراك، ازداد الاهتمام بتطوير علم الإبحار وبناء السفن من أجل إيجاد طريق بحري بديل إلى الشرق عبر الرأس الإفريقي. والطريق اكتشفه عام ١٤٩٨ فاسكو دي غاما.

عندما وصل البحارة الدنماركيون والرتغاليون إلى جزر مولوكاس في شرق إندونيسيا، التي كانت معروفة باسم جزر التوابل، تدنت أسعار التوابل في أوروبا وبدأ التنافس بين كافة

(٧) هوبهاوس، (نافذ)، ص ٩٦ - ٩٧.

الأطراف للفوز بالاحتكارات المختلفة. وكان أفضل شكل تنظيمي للحصول على حق الاحتكار الشركة التجارية وهي كناية عن مجموعة من التجار يعملون معاً من أجل تخفيض المخاطر التي قد تطرأ على رأس المال بسبب المنافسة. سفن شركات الهند الشرقية الضخمة والمزوّدة بكل التجهيزات اللاّزمة طوت صفحة عصر التاجر ـ القبطان المستقلّ وكانت شركة الهند الشرقية البريطانية التي تأسست عام ١٦٠٠ تصبح الأكثر أهمية بين الشركات التجارية المتنافسة.

منذ ذلك التاريخ وحتى عام ١٨٣٤، عندما فتح المنادون بحرية التجارة مجال المتاجرة بالشاي أمام كل الراغبين في خوض هذا المجال، استطاعت الشركة جني المزيد من الفائدة لتحكمها بتلك التجارة:

> كانت شركة الهند الشرقية البريطانية تضيف على الأقل معدل الثلث إلى سعر الشاي، وتقاضت بالتالي مئة باوند على كل طن من ٣٧٥٠٠٠ طن تمّ تصديرها خلال القرن الثامن عشر، وعلى هذا الأساس ارتفع معدل حصة الشركة من مبلغ يوازي ١٧ مليون باوند في بداية القرن إلى مبلغ سنوي يوازي ٨٠٠ مليون في ١٨٠٠، كانت الشركة واسعة النفوذ، وكانت موضع كراهية المهربين والمستهلكين على حد سواء، واعتبرت نموذجاً على الاحتكار الجشع والفاسد(٨).

الشاي يحدث ثورة

في نهاية القرن الثامن عشر مرّت تجارة الشاي في أزمة، وحكومة اللورد نورث اتخذت عدة قرارات متسرعة لم تؤد فقط إلى القضاء على تجارة الشاي بل إضافة إلى ذلك أيضاً خسرت انكلترا مستعمراتها في أميركا الشمالية. كانت خطة نورث أن يبيع الشاي بأسعار متدنية في تلك المستعمرات، وبذلك يخفض معدل الفائض ويضع حداً للمهربين المنافسين. وحاول أيضاً أن يفرض ضريبة صغيرة، تصوّر أنها غير هامة، على الشاي الذي يصل إلى المستعمرات وذلك ليجبر السكان العنيدين على الرضوخ للسلطة الإمبراطورية. وكما هو معروف كانت تلك الضريبة بمثابة الشعرة التي قصمت ظهر البعير، وذلك في إطار الاضطراب السياسي التي كانت تشهده المستعمرات الأميركية في ذلك الحين. في ١٦ كانون الأول عام ١٧٧٣ هاجم بعض السكان الراديكاليين في بوسطن سفن صاحب الجلالة وأتلفوا حمولتها. وتأججت نيران الثورة في تلك الليلة. وكانت هناك «حفلات شاي» أخرى في نيويورك وتشارلستون وسفانا وفيلادلفيا. وكانت القضية ستنتهي على الأرجح في غضون أسابيع لولا ردة فعل البريطانيين. بإغلاق مرفأ بوسطن التي كانت الدافع للإعلان عن الاستقلال.

منذ بداية القرن التاسع عشر بدأت تجارة الشاي تمر بفترات صعبة. في القارة الأوروبية

(٨) هوبهاوس، (نافذ)، ص ١٠٨.

كانت حروب نابليون أرهقت الخزائن. ونتيجة لذلك جرى طبع أوراق مالية بدون ضمانة الذهب، وهذا أدى إلى حالة تضخم خطيرة: إرتفعت الأسعار، ولم ترتفع قيمة السلع نفسها ونتج عن ذلك حالة بؤس إقتصادي. وكان دواء هذه المعضلة الاقتصادية الأفيون.

دورات الاستغلال

تجارة الأفيون قامت على ممارسة البريطانيين للإرهاب ضد أهالي الصين إلى أن تراجعت الحكومة الصينية كلياً عن قوانين الحظر التي كانت تفرضها على تجارة الأفيون. في هذه الأحداث نمط تكرر في القرن الحالي. عندما بدأ تجار الشاي يتوجهون نحو الأفيون بعد تقلّص سوق الشاي، كذلك قامت وكالات المخابرات الغربية مثل CIA (وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية) ووكالة الاستخبارات الفرنسية، بتحويل أنظارها إلى استيراد الكوكايين في الثمانينات بعد ما خسرت ما يشبه الاحتكار في تجارة الهيروين بسبب الثورة الإيرانية. التاريخ التعاوني في تجارة المخدرات ـ أي الطريقة التي كان يطرح فيها مخدر ويشجع على استهلاكه لدعم إنتاج مخدرات أخرى ـ لم يكن خلال الخمسمئة سنة الماضية مشرقاً. قد يكون ذلك على الأرجح هو السبب في تجنب طرح هذا الموضوع.

بدأت الدورات بالسكر. وأشرنا إلى أن الطلب على السكر، الذي اعتمد إنتاجه على تجارة العبيد، تزايد خلال القرن السادس عشر. وتعرّف الناس في القرن السابع عشر إلى القهوة والشوكولاته رفع معدل الحاجة إلى السكر. ومن خلال استخدامه في المشروبات التي تحتوي على الكافيين والكحول المقتر، لعب السكر دوراً أساسياً غير مباشر في تعزيز قمع حضارة السيطرة للطبقة الدنيا وللنساء من كل الطبقات. «عبودية المخدر» استعارة مبتذلة لكنها في حالة السكر تحولت إلى واقع مرعب.

مع تداعي سوق الشاي تحول نظام التوزيع الذي رسخت أسسه وامتلكته شركة الهند الشرقية البريطانية، إلى إنتاج وبيع الأفيون واستغلال أهالي الصين الذين كانوا خارج إطار النظام الاستعماري. اكتشاف المورفين سنة ١٨٠٣ ومن بعد الهيروين سنة ١٨٧٣ يصل بنا إلى عتبة القرن العشرين. المصلحون الاجتماعيون الذين تنبهوا للخطر وحاولوا ضبط انتشار المخدرات بسنّ القوانين لم ينجحوا إلاّ بإحاطتها بالسرية. وهي اليوم لاتخضع لسيطرة النقابات التي تعمل في ظل الحصانة العامة، بل للإتحادات الإجرامية الدولية التي تظهر غالباً كوكالات استخبارات. يصف ويليام بوررزو ما يحدث بأنه «ليس صورة جميلة».

منذ عصر الاستكشاف ازدادت أهمية المخدرات والمنتوجات النباتية كعناصر فاعلة في معدلات الديبلوماسية الدولية. لم تعد مناطق وشعوب العالم الاستوائي بعيدة عن تدخل الرجل

الأبيض؛ صارت تلك المناطق إنتاجية وسكانها قوة تستخدم في العمل الإلزامي، ويتوقع منها تأمين المواد الخام وفي الوقت نفسه سوقاً لاستيعاب البضائع الجاهزة. ومثل الميناداتِ اللواتي فقدن عقولهن من ولعهن بديونيسوس، كذلك اقتصاد السيطرة في أوروبا المخدرة بالسكر دفعها إلى ابتلاع أبنائها.

القهوة

ابن سيناء، الطبيب والفيلسوف الفارسي توفي سنة ١٠٣٧ بسبب جرعة زائدة من الأفيون، وتلك كانت أول حالة وفاة سجّلها التاريخ لهذا السبب؛ وكان ابن سينا أول من كتب عن القهوة مع أنها كانت معروفة منذ مدة في أثيوبيا وشبه الجزيرة العربية؛ حيث كانت نبتة البن تنمو في البرية. في شبه الجزيرة العربية كان الناس منذ القدم ينسبون إلى البن خواص مدهشة. وبسبب هذه العلاقة الطويلة الأمد مع العرب، قام العالم الطبيعي الدنماركي لينّايوس واضع التصنيف العلمي الحديث للنباتات بتسميته النبتة Coffea Arabica.

عندما وصل البن إلى أوروبا استخدمه الناس في البداية كطعام أو كدواء؛ حباته الغنية بالزيت كانت تطحن وتمزج بالدهن. وفيما بعد كان البنّ المطحون يضاف إلى النبيذ ويطبخ المزيج فيتحول على الأرجح إلى مادة منبّهة ومنعشة. لم يكن البن يستخدم كشراب قبل حوالي سنة ١١٠٠ في أوروبا، ومع حلول القرن الثالث عشر بدأ في سوريا تحميص حبات البن كما هو معروف اليوم.

على الرغم من أن البن نبتة نمت في العالم القديم واستخدمتها المجموعات البشرية قبل الشاي بزمن طويل، لكن الفضل يعود إلى الشاي في ازدياد الإقبال على القهوة. بسبب خصائصهما المنبّهة التي تعود إلى الكافيين في القهوة والثيوبرومين في الشاي، صارا المشروبين المفضلين في فترة الثورة الصناعية: كانا يساعدان على رفع معدل الطاقة عند العمال وهذا يساعدهم على الاستمرار في القيام بأعمالهم المتكرّرة، التي تتطلب التركيز. فرصة تناول المخدر الذي لم ينتقده أولئك المستفيدين من نمو الدولة الصناعية الحديثة. لكن من المعروف أن القهوة تحدث الإدمان وتتسبب في قرحة المعدة وقد تضاعف حدة أمراض القلب وربما تكون مصدراً للحساسية والأرق وإذا أخذت بجرعات كبيرة قد تؤدي إلى الارتعاش والتشنّج.

ضدّ القهوة

كان هناك باستمرار مَنْ حارب القهوة، لكن هؤلاء ظلوا أقلية. نُسب إلى القهوة أنها تسببت بموت الوزير الفرنسي كولبير الذي مات من سرطان المعدة. وغوته ألقى اللوم على مشروب القهوة بالحليب الذي اعتاد تناوله كل يوم بأنه السبب في نوبات القلق الذي كان يعاني منها

إضافة إلى حالة الكآبة المرضية. ونُسب إلى القهوة أيضاً أنها تحدث ما وصفه لُوين بأنه «حالة مفرطة من التهيّج الدماغي التي تتجلّى في ثرثرة ملفتة تترافق أحياناً مع تسارع في الربط بين الأفكار. ومن الملفت في القهوة أيضاً أن رجال السياسة الذين يتناولون الكوب تلو الآخر من القهوة الصِرف يتوصلون إلى التعمق في التفكير في كافة الأحداث»(٩).

إن الميل للإفراط في شرب القهوة كان على الأرجح دافعاً لإصدار عدة مراسيم تشجب هذا المشروب في أوروبا سنة ١٥١١. الأمير والديك كان أول من انتبه لأهمية الوشاية، التي تلجأ إليها السلطات اليوم للحدّ من انتشار المخدرات، وذلك حين أعلن عن جائزة من عشرين طالر لكل من يبلّغ السلطات عمّن يروّج البنّ. حتى الخدم كانوا يكافؤون إذا أفشوا بمعلومات تطال أصحاب العمل الذين باعوهم البنّ. لكن مع حلول عام ١٧٧٧ أقرّت السلطات الأوروبية أن القهوة مشروب مناسب لأعمدة مجتمع السيطرة رجال الدين والأرستقراطيون. وعقوبة تعاطي القهوة من قبل أبناء الطبقات الأدنى كانت في الغالب الضرب بالعصا والغرامة.

وبالطبع اتهمت القهوة بأنها تتسبب في العجز الجنسي:

> ورد مراراً أن شرب القهوة يضعف الاهتياج الجنسي ويؤدي إلى العقم. ومع أن هذا كلام ملفّق لكن الناس صدقوه في الماضي. يقول أوليديوس في روايته لأسفاره أن الفارسيين يشربون «القهوة السوداء الساخنة» التي تتصف بأنها «تحدث العقم وتؤدي إلى كبت الرغبات الجنسية». وهناك سلطان أقبل على شرب القهوة لدرجة أنه شعر بالملل من زوجته. وأن زوجته رأت ذات يوم عملية إخصاء فحل فقالت إنه من الأفضل أن يعض قهوة يشربها وعندئذٍ سيصبح في حالة زوجها. الأميرة بالاتين إليزابت شارلوت، أميرة أورليانز، وهي والدة الوصي على العرش فيليب الثاني، كتبت إلى أختها تقول: «القهوة ليست ضرورية للوزراء البروتستانت بقدر ما هي ضرورية لرجال الدين الكاثوليك الذين لا يسمح لهم بالزواج ويجب أن يحافظوا على طهارتهم... إنني أستغرب من إعجاب الكثيرين بالقهوة، لأنها ذات طعم مرّ ومزعج. أعتقد أن طعمها يشبه رائحة النفس الكريهة»(١٠).

الطبيب والرحالة رووُلف أوف أوغزبيرغ، الذي صار فيما بعد مكتشف أول مادة مهدئة، مادة الراوولفيا المستخرجة من النبات، وجد أن البن معروف منذ فترة طويلة في آسيا الصغرى وبلاد فارس حين زار المنطقة في أواسط السبعينات في القرن السادس عشر. كتابات روولف وغيره من الرحالة جعلت من تناول القهوة موضة. وصلت شحنات البن الأولى إلى باريس سنة ١٦٤٣، وبعد ثلاثين سنة انتشر في المدينة ٢٥٠ مقهى. وفي السنوات القليلة التي سبقت

---

(٩) لويس لوين: «Phantastica: Narcotic and Stimulating Drugs». نيويورك، E.P. Dutton، ١٩٣١، ص ٢٥٦ - ٢٥٧.

(١٠) المصدر نفسه، ص ٢٥٧ - ٢٥٨.

الثورة الفرنسية كان في باريس ٢٠٠٠ مؤسسة عاملة في هذا المجال. إذا كان الكلام المتطرف أم الثورة، تصبح القهوة والمقاهي بالتأكيد قابلتهما.

الشوكولاته

ليس وصول الشوكولاته إلى أوروبا سوى المقطع الختامي للولع بالكافيين الذي بدأ مع الثورة الصناعية. صنعت الشوكولاته من الحبوب المطحونة لشجرة ثيوبروما كاكاو التي تنمو في الأمازون، وهي تحتوي على كميات قليلة من الكافيين لكنها غنية بمادة شبيهة به هي الثيوبرومين. كلاهما مادة كيميائية لها أقارب تظهر باطنياً في عمليات الأيض الطبيعية عند البشر. الثيوبرومين مادة منبهة مثل الكافيين، وإمكانية الإدمان على الشوكولاته محتملة(١١).

وصلت أشجار الكاكاو إلى أواسط المكسيك من المناطق الاستوائية في أميركا الجنوبية قبل قرون من وصول المستعمرين الإسبان. وكان لها دورها الطقوسي في ديانة المايا والأزتيك. واستعمل شعب المايا حبوب الكاكاو أيضاً على أنها نقود. وقد ورد في الحكات أن الحكم الأزتيكي مونتزوما كان مدمناً على حبوب الكاكاو المطحونة؛ كانت الحبوب تنقع في الماء البارد والحاكم يشرب الشوكولاته بدون مادة محليّة. وفي مناسبة الاحتفال بتتويج مونتزوما الثاني سنة ١٥٠٢ قُدّم للضيوف مزيج من حبوب الكاكاو المطحونة وفطور تحتوي على البسيلوسبين(١٢).

عشيقة كورتيز هي التي أخبرته عن وجود الكاكاو، وكانت من السكان المحليين وتدعى دونا ماريا، وقد قدمت له من بين تسع عشرة صبية كنّ هدية من مونتزوما تعبيراً عن ولائه. أكدت له دونا مارينا أن الكاكاو مثير فعّال للشهوة الجنسية، فتحمس كورتيز للبدء بزراعة النبتة؛ وكتب إلى الأمبراطور شارلز الخامس يقول: «في مزرعة واحدة زرعنا ألفيْ شجرة؛ ثمارها تشبه اللوز وهي تباع بعد طحنها»(١٣).

بعد ذلك بفترة غير طويلة حملت الشوكولاته إلى أسبانيا حيث لاقت إقبالاً. لكن إنتشار الشوكولاته كان بطيئاً ربما بسبب وجود العديد من المنبهات الجديدة التي استحوذت على اهتمام الأوروبيين. لم تصل الشوكولاته إلى إيطاليا أو البلدان المنخفضة حتى عام ١٦٠٦؛

---

(١١) جوناثان أوت: «The Cacahuatl Eater: Ruminations of an Unabashed Chocolate Eater». فاشون، واشنطن، Natural Products co.، ١٩٨٥، ص ١٢ - ٢٢.

(١٢) أ.ت. أوس و أ.ن. أوريك: «Psilocybin: The Magic Mushroom Ggower's Guide». بيركلي، Lux Natura Press، ١٩٨٦، ص ٧٣.

(١٣) لوين، (نافذ)، ص ٢٨٣.

ووصلت إلى فرنسا وإنكلترا في الخمسينات من القرن السابع عشر. وباستثناء فترة قصيرة خلال حكم فريدريك الثاني كانت فيها الشوكولاته الوسيلة المفضلة لاستخدام السموم، لدى بعض المحترفين، أخذت شعبية الشوكولاته تتزايد ويرتفع بالتالي معدل إنتاجها.

خلال فترة قصيرة نسبياً من مئتي سنة برزت أربعة منبهات السكر والشاي والبن والشوكولاته من مواطنها المحلية وأصبحت قاعدة لازدهار الامبراطورية المركنتلية، وكانت في حماية أهم القوى العسكرية المعروفة في ذلك الزمن، وتدعمها عجلة الاستعباد التي بدأت تدور مجدداً. تلك هي قوة «الكوب الذي يهيج ولا يُسكر».

١٢ . الدخان يملأ العيون: الأفيون والتبغ

لا يوجد من أصناف النبات ما يوازي الخشخاش والتبغ في علاقتهما المعقدة والمتشابكة مع البشر. إن تعاطي أية نبتة منهما يؤدي إلى سلوك إدماني حاد يقصّر الحياة ويرهق كاهل المجتمع بأعباء مالية وطبية. لكن الموقف العام من هاتين النبتتين مختلف للغاية. مناطق زراعة الخشخاش تخضع لمراقبة دائمة من الأقمار الصناعية، الأوساط الدولية تدرس بعناية التقديرات السنوية لمعدل إنتاج الأفيون في العالم لمساعدة الحكومات على اقتطاع جزء من موازناتها لتخصصه لمعالجة المدمنين، دعم الجهود على الصعيدين الخارجي والداخلي لمنع انتشار منتوجات الأفيون كالمورفين والهيروين.

التبغ من ناحية ثانية هو على الأرجح المستحضر النباتي الأكثر استهلاكاً على الأرض. لم تصدر أية دولة قانوناً يعتبر تدخين التبغ لا شرعياً، ولو حاولت بالفعل أية دولة القيام بذلك ستجد نفسها في مواجهة واحد من أهم وأقوى اتحادات المخدرات الموجودة. ومع ذلك ليس هناك شك في أن التدخين يتسبب بالموت المبكر لملايين البشر، وقد يؤدي أيضاً إلى الإصابة بسرطان الرئة وانتفاخ الرئة وأمراض القلب. والتبغ ليس دافعاً أقل للإدمان من الهيروين الذي يفترض أنه أقوى مخدر على الإطلاق عندما أعلن الطبيب الجراح الأميركي س. إيفريت كوب هذه الحقيقة، مارعت شركات إنتاج التبغ الأميركي الكبرى وأتباعها من المستهلكين المدمنين إلى طمسها بإطلاق عاصفة من التعليقات الساخرة.

مواقف متناقضة

ماالذي نتعلمه من المقارنة بين هاتين النبتتين؟ عرفهما الإنسان منذ زمن بعيد، وهما تؤديان إلى الإدمان وتسببان بالأذى، ومع ذلك نجد أن إحداهما استطاعت أن تعرض نفسها على حياتنا وهي تباع لنا بما تثيره من معاني الذكورية والتكلف والسرور، فيما تعتبر الثانية لا شرعية

وتمنع بحدة وتُهاجم بعنف بوصفها إنتحارية ويُنظر إليها برعب تجلّى عند الأجيال الماضية في نظرتها للبولشفيين والذين طالبوا بحق الاقتراع للمرأة وممارسة الجنس الفمي.

هذا الوضع يشكل نموذجاً آخر على نفاق حضارة السيطرة التي تنتقي وتختار من بين الحقائق والوقائع ما تجده مناسباً لها. والواقع أن أفضل السبل لتعاطي الهيرويين، الذي يدفع بقوة إلى الإدمان، هي الحقن في الأوردة، وهذا يفتح مجالات انتشار أوبئة خطيرة؛ لكنه ليس أقلّ خطورة من التبغ منافسه الشرعي الحائز على الرضا. «مجلدات من الأبحاث العلمية... توصلت إلى الاستنتاج بأنه ليس هناك أذى عضوي يتسبب به الهيرويين! إنه غير ضار من الناحية الجسدية، لكنه مثير قوي الإدمان»[1].

إن الاختلاف الكبير الذي يحدث بنظر المجتمع لهذين المخدرين المنتشرين عالمياً لا يمكن أن يكون ناتجاً عن التفكير المنطقي بتأثيراتهما المؤذية على الصعيد الاجماعي. لو كان ذلك صحيحاً تكون عندئذٍ وجهات النظر حيال النبتتين متشابهة. لكن على ما يبدو يجب أن ننظر إلى التأثيرات غير المرتبطة وصبغة الإدمان المشتركة لكي نفهم ما الذي جعل مجتمع السيطرة يقمع واحدة ويمجّد الأخرى.

وصول التدخين إلى أوروبا

كان التبغ ينمو في العالم الجديد حيث انتشرت عادة تدخين النبتة للحصول على تأثيراتها المخدرة. ربما كان التدخين معروفاً في العالم القديم خلال العصر الحجري الحديث؛ تختلف الآراء في هذا المجال. ليس هناك دليل على أن تدخين التبغ كان معروفاً لدى الحضارات التاريخية في العالم القديم حتى حمله كولومبوس معه بعد رحلته الثانية إلى الأميركيتين. وبعد أقل من مئة سنة وجدت علب صغيرة من التبغ في قبور شامان لابلاند! هذا يعطينا فكرة عن السرعة التي استطاع فيها التبغ أن يفرض وجوده على النمط الاستهلاكي السائد في مجتمع كان يجهله كلياً. التبغ ـ الذي يمضع ويتنشق ويدخن ـ يستمر في رفقتنا منذ ذلك الحين. ومع حلول القرن التاسع عشر صار استخدام التبغ يعتبر في أوروبا «ميزة للرجل». كان ينظر إلى الرجال الناجحين انطلاقاً من كمية ونوعية السيجار الذي يدخنونه. وأضيف التبغ إلى اللائحة الطويلة من المميزات التي احتكرها الرجل والتي تتضمن معظم أنواع المشروبات الكحولية (ما عدا البراندي الذي يحق للسيدات تناوله) والسيطرة على الاقتصاد والتمتع بالمومسات والتحكم بالسلطة السياسية (تذكرون تلك «الغرف العابقة بالدخان»).

---

(١) أرنولد س. ترباخ: «The Great Drug War». نيويورك، Macmillan، ١٩٨٧، ص ٢٩١.

حتى في الجو الواعي للمخدرات السائد اليوم، لا يبدو هناك تناقض بين الدعوات الملحة لحظر تعاطي الرياضيين المحترفين للمخدرات وبين صورة اللاعب الذي يمضغ التبغ وهو يلعب البايسبول. هل المقصود بإبعاد المخدرات من مجال الرياضة القضاء على تلك الصورة المحببة؟ أشك في ذلك.

وفيما كان التبغ آخذاً في إحراز موقفه الحالي، كان الأفيون بدوره يتحول إلى موضعه وإن لم يكن ذلك على المستوى الذي وصل إليه التبغ. اللودنوم، صبغة الأفيون مع الكحول، استخدم كعلاج للمغص عند الأولاد ومنشط للبشرة، وعلاج للديزنطاريا، والأهم من ذلك كان استخدام الكتاب والرحالة والبوهميين له كمنبه للمخيلة الخلاّقة. المورفين الذي يؤخذ بواسطة الحقنة كان أول مادة قلوية يتم تركيبها، هذا الحدث سنة ١٨٠٥ ألقى ظلاً أسود على عالم اللودنوم السعيد ـ لأنه مهما كان التعويض الفني الذي حصل عليه كوليريدج ودوكوينسي في تعلقهما «بشيطان الأفيون»، إن إدمانهما، على الرغم من جديّته، عندما يقاس على ضوء التجربة الحديثة مع عنصر الكوكايين الصرف وأشكال تركيبة أخرى من الهيروين، يكاد يبدو أقل منها أهمية.

إغراء الأفيون

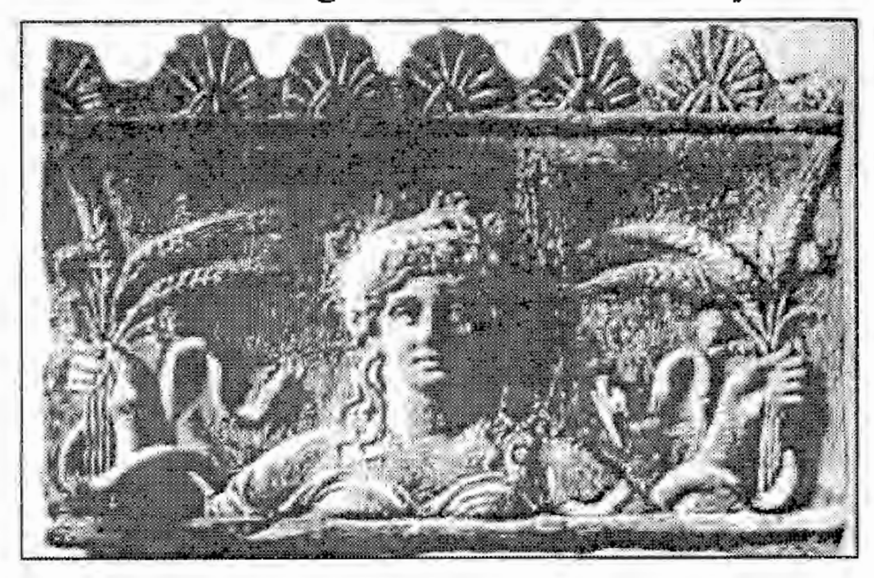
بذور الأفيون طيبة المذاق وغير مخدرة، وهذا يعرفه جيداً كل الذين يحبون الأرغفة التي تحتوي عليها. لكن عندما يجرح غلاف البذور بسكين أو بظفر يخرج منه سائل حليب يتجمع ويجف ويتحول لونه إلى البني الداكن. هذه المادة هي الأفيون الخام. مثل فطر البسيلوسبين بعلاقته مع الماشية، والأرغوت والجاودار، كذلك فإن نبتة الأفيون المخدرة تحوّلت في ظل وجود مورد غذائي للبشر. بالنسبة لهذه النبتة تختلف مواصفات أجزائها في كونها مخدرة أو ذات قيمة غذائية.

كان الأفيون في أشكاله المختلفة سلاحاً للطبّ منذ سنة ١٦٠٠ ق.م. على الأقل هناك وصفة طبية مصرية من تلك المرحلة توصي باستخدام الأفيون لتهدئة صراخ الأطفال؛ وفي العصر الفيكتوري كانت المربيات يعطين الأطفال جرعات من شراب غودفري المنكّه بمستحضر أفيوني لإسكاتهم.

لم يكن الأفيون يدخن في البداية، بل كان الراتينج الأسود اللزج يذوّب في النبيذ ويشرب، أو يكوّر كحبوب صغيرة ويبتلع. كان الأفيون معروفاً في أوروبا الآسيوية كعلاج للألم وكمنشط وكمثير للرغبة الجنسية منذ بضعة آلاف من السنين.

خلال فترة ضعف الحضارة المينوية، التي دامت ألف سنة، ودياناتها البدائية التي ترتكز إلى

عبادة الأم العظيمة، جرى استبدال الوسيلة الأصلية للارتباط بإلهة الطبيعة النباتية بتخدير الأفيون. ورد في النصوص المينوية القديمة أن الأفيون كان يزرع بكميات كبيرة في كريت وبيبلوس خلال المرحلة المينوية الأخيرة؛ في هذه النصوص يظهر رأس الأفيون كرمز في سجلات المحاصيل. ويبدو من هذه السجلات أن معدل إنتاج النبتة كان عالياً لدرجة أن الأرقام تشير على الأرجح إلى البذور وليس إلى الأفيون. الخلط بين البذور والنبتة سهل لأن ديمتير كانت ربة الاثنين. (أنظر الرسم ١٩). في الواقع يصعب تحديد مقدار الأفيون الذي كان يستعمل في الطقوس السرية لتمجيد الإلهة ديمتير في اليونان، خصوصاً بسبب عدم الوضوح في رسم رمز زهرة الأفيون أو الرمان، وهذه النبتة الأخيرة لها أيضاً صلة بالطقوس السرية. كيرنيين يشير إلى ما ورد في شعر ثيوكريدس من (الكتاب السابع صفحة ١٥٧).



الشكل (١٩)

ديمتير مع الشعير والأفيون والأفاع. مع الشكر لمكتبة Fitz Hugh Ludlow.

بالنسبة للإغريق كانت ديمتير دوماً إلهة الخشخاش تحمل حزم الخشخاش في يديها[٢].

وفي كتاب إيريك نيومان «الأم العظيمة» هناك رسم رائع تظهر فيه الإلهة مع خلية نحل وهي تحمل نبات الخشخاش وأكوازه في يدها اليسرى وتضع يدها اليمنى على أحد الأعمدة غير المزينة التي كانت قوام الديانة المينوية المرتبطة بالأرض (أنظر رسم ٢٠). نادراً ما تجتمع هذه

(٢) كارل كيرنيي: «Dionysos: Archetypal Image of Inestructible Life, Bollingen Series LXV». برينستون، Princeton University Press، ١٩٧٦، ص ٢٣.

العناصر المتعددة لفن النشوة البدائية بمثل هذا الوضوح. يبدو الرسم كأنه قصة رمزية عن تحول الروحانية الشامانية في الديانة المينوية في عهدها الأخير. جذور فطورها تمثلت في العمود غير المزين؛ إنها وسيلة الاختبار للإلهة التي تتطلّع إلى وعد الخشخاش والبذور التي نما عليها الأرغوت. خلية النحل تشير إلى العسل الرمز الأصلي للنشوة، والخصوبة الأنثوية، ووسيلة حفظ الخواص النباتية المتغيرة للذخائر.

عرف المصريون القدماء الخشخاش والأفيون الصمغيّ وهما يظهران في رسوماتهم الجنائزية وفي الوصفات الطبية المدوّنة على أوراق البردى. والفرس عرفوا منتوجات الخشخاش المختلفة. في اليونان وأنحاء أخرى كان الناس يعتبرون أن الخشخاش «يقضي على الحزن»:

ثيوفراستوس اعتبره مادة تثير الرغبة في النوم وذلك سنة ٣٠٠ ق.م.؛ وملاحظاته أعادها بليني في القرن الأول بعد الميلاد مضيفاً إليها تصوّرات حول سُمّية الأفيون. نسب اليونان الخشخاش إلى نيكس، إلهة الليل، ومورفيوس إبن هيبنوس وهو إله الأحلام، وثاناتوس إله الموت. وكانوا يلخصون كل صفاته في الآلهة التي يقدمونه لها وانتشر الأفيون في العالم الإسلامي بعد القرن السابع. كان بالتأكيد يستخدم كعلاج للديزنطاريا وللمرضى الذين يعانون من وطأة الإحساس بالحزن والقلق[٣].

على الرغم من أن هرقليدس، من ثارنتوم، في القرن الثالث ق.م. أشار إلى أن تعاطي الأفيون يصبح عادة مكتسبة، لكن الأطباء بشكل عام لم يكونوا على بيّنة من هذا الأمر إلاّ بعد حوالي ألفيْ سنة من ذلك التاريخ. نحن الذين نشأنا على اعتقاد أن الإدمان مرض قد نجد صعوبة في تصديق أن الاتكالية الكيميائية التي تظهر عند متعاطي الأفيون لم تلاحظها أو تصفها السلطات الطبية حتى بداية القرن السابع عشر. ساموئيل بورشاس كتب سنة ١٦١٣ عن هذا الموضوع وقال أن الأفيون: «بعد تعاطيه مرة واحدة، يجب أن تتكرر العملية كل يوم تحت طائلة الموت، والبعض قد يجدون مهرباً باللجوء إلى النبيذ كبديل عنه». ويعلق أليثيا هايتر بدوره: «لم يكن معروفاً فيما مضى أن الأفيون يسبب الإدمان»[٤].

كان الأفيون بالنسبة للعالم القديم إذاً مادة تجلب النعاس وتريح من الألم. كان الأطباء يصفون الأفيون للمرضى، وأحياناً بجرعات كبيرة نسبياً، في أواخر الأمبراطورية الرومانية. ثم كاد استخدام الأفيون يتوقف لقرون عديدة في أوروبا؛ أشار أطباء الأعشاب الأوائل في أنكلترا

(٣) ويليام إميودين: «Narcotic Plants». نيويورك، Macmillan، ١٩٧٩، ص ٢٧ ـ ٢٨.

(٤) أليثيا هايتر: «Opium and the Romantic Imagination». بيركلي، University of California Press، ١٩٦٨، ص ٢٢.



الشكل (٢٠)

إلهة مع الحزم والقفير. من كتاب إريك نومان: «The Great Mother».
(نيويورك: Pantheon، ١٩٥٥، ص ٢٦٣).

السكسونية إلى أن العصارة التي تستخرج من الأكواز تصلح كعلاج لألم الرأس والأرق، لكن من الواضح أن دور الأفيون ظل ثانوياً في هذا المجال في أوروبا في القرون الوسطى(٥). في كتابه Alchemical Lexicon الصادر سنة ١٦١٢ يشير مارتن رولاند فقط إلى كلمة «Osoror» كمرادف لكلمة أفيون ولا يقدم أية شروحات.

الأفيون في الكيمياء القديمة

يعود الفضل بإحياء الاهتمام بالأفيون إلى باراسيلوس المعروف مؤسّس العلاج الكميائي؛ هذا الكيميائي السويسري في القرن السادس عشر استخدم الآفيون بسخاء. وفي هذا المجال أيضًا، كما رأينا في عملية تقطير الكحول، نجد أن كيميائيًا، كان يبحث عن الروح التي يُفترض أنها حبيسة المادة، هو الذي اكتشف كيف يطلق الطاقة الحبيسة داخل نبتة بسيطة. وباراسيلسوس، مثل لالّي الذي سبقه، تصوّر أنه توصل إلى الدواء الذي يشفي كلّ العلل: «لديّ علاج سري سميته لودانوم أفضل من كلّ الأدوية المعروفة»(٦).

وبعد فترة قصرة من بدء باراسيلسوس إعلان فضائل الأفيون، كان فيزيائيون من أتباع مذهبه الفكري يعدّون عقاقير ترتكز فاعليتها الأساسية إلى كمية الأفيون التي تحتويها. ومن هؤلاء المتحمسين فان هيلمونت الذي عُرف أيضًا بالدكتور أوبياتوس، وكان أول دكتور مخدرات.

التبغ

فيما كان الأطباء ـ الكيميائيون من أتباع باراسيلسوس يسعفون دائرة إنتشار الأفيون في أوروبا، كان زائر غريب جديد يشق طريقه بهدوء إلى المسرح الأوروبي. كان التبغ الغنيمة الأول والمباشرة لاكتشاف العالم الجديد. في الثاني من تشرين الثاني عام ١٤٩٢ بعد أقل من شهر من وصوله إلى العالم الجديد، نزل كولومبوس على الشاطيء الشمالي لكوبا. هناك أرسل أميرال محيط البحر إثنين من أفراد طاقمه محّملين بالهدايا إلى داخل الجزيرة،إعتقاداً منه إن ملك القرى الساحلية كان يقيم هناك. كان الأميرال على الأرجح يمنّي نفسه بأن يعود الرجلان بمعلومات حول وجود الذهب والأحجار الكريمة والأخشاب الثمينة والتوابل ـ ثروة الجزر الهندية. لكن الرجلين رجعا بأخبار عن رجال ونساء يضعون في مناخيرهم لفافات تحترق من أوراق النبات. تلك اللفافات كانت من نبات التبغ المجفف الذي يعاد لفه في ورقة تبغ كبيرة

(٥) فريد غينيغ: «Dictionary of Occult, Hermetic and Alchemical Sigils»، لندن، Routledge & Kegn Paul. لا يحتوي على إشارات خاصة للأفيون مع وجود مثل هذه الإشارات لمئات المواد الأخرى.

(٦) مذكور في كتاب لوين، ص ٣٨.

جافة. كانت اللفافة تشعل من ناحية والناس «يمتصّونها ويشربون الدخان من الناحية الثانية» أو يتنشقونه، وتلك العملية كانت غير معروفة في أوروبا.

دولاس كابس، أسقف شياباس، الذي دوّن ما رواه كولومبس، وهذا الوصف من ضمنه، أضاف هذه الملاحظة:

> أعرف بعض الإسبان الذين يقلدون هذه العادة، وعندما كنت أتحدث إليهم عن هذا التصرّف الهمجيّ، كانوا يجيبون بأنه ليس من السهل عليهم الإقلاع عن هذا السلوك. على الرغم من أن الإسبان كانوا في البداية يستغربون هذه العادة الغريبة، لكنهم عندما يجربونها بأنفسهم كانوا يشعرون بلذة تدفعهم إلى الاستمرار في محاكاة النموذج الهمجي(٧).

في ختام رحلته الثانية إلى العالم الجديد ترك كولومبس في جزيرة هاييتي الناسك رومانوا باني، الذي وصف في مذكراته التقليد المحلّي لتنشق دخان التبغ بواسطة عظمة طائر تدخل في فتحة الأنف وذلك فوق أوراق تبغ توضع على فحم مشتعل. نتائج هذه الملاحظة البسيطة لا تزال موجودة حتى اليوم. لقد عرفت الأوروبيين إلى أكثر الطرق فاعلية في تعاطي المخدرات ـ بما فيها المخدرات الخطرة وفتحت المجال أمام انتشار تدخين التبغ في مختلف أنحاء العالم. وكانت طريقة سهلة وسريعة لتنشق دخان الأفيون والحشيش. إنها أيضاً تتيح الوصول إلى أعمق حالات النشوة التي تستحثها المواد المهلوسة! تلك النشوة النادرة التي لا مثيل لها التي يعرفها مدخن الديمثيلتريباجين.

تبغ الشامان

تدخين التبغ انتشر في أميركا الشمالية مع تزايد الصلة بالأوروبيين. ومع أن عادة تعاطي السعوط الذي يحتوي على مادة الـ DMT المثيرة للهلوسة كانت معروفة في الكاريبي، لكن ليس هناك إشارة إلى استخدام مواد أخرى غير التبغ للتدخين.

شعبُ المايا الذي سادت حضارته حتى أواسط القرن التاسع في أميركا الوسطى، كانت له علاقة قديمة وراسخة مع التبغ وعادة تدخينه. كان نوع التبغ التقليدي عند المايا هو المعروف باسم نيكوتيانا روستكا، والذي لا تزال مجموعات السكان الأصليين تستخدمه في أميركا اللاتينية حتى اليوم. هذا النوع يتميز بأنه أكثر قوة، وله تركيبة كيميائية معقّدة تجعله يتفوق في إثارة الهلوسة على الأنواع التجارية في نيكوتيانا تاباكوم المتوفرة اليوم في الأسواق. هناك فارق

---

(٧) لويس: «Phantastica: Narcotic and Stimulating Drugs»، نيويورك، E.P. Dutton، ١٩٣١، ص ٢٨٨.

كبير بين هذا التبغ والتبغ الموجود في السيجارة. هذا التبغ البري كان يعالج ويحوّل إلى لفائف كي يدخن. وتنتاب المرء عند تدخينه حالة مشابهة للغشية كانت في صميم طقوس شامان المايا، وذلك يعود جزئياً إلى وجود مركبات تحتوي على موانع MAO. أضاف العلماء فيما بعد مواد مضادة للإنهيار العصبي لبعض العقاقير وهي بتركيبتها المصطنعة تشبه هذه الموانع الطبيعية. فرانسيس روبيتشيك كتب حول تعلّق المايا بالتبغ وتعقيده الكيميائي:

تجدر الإشارة أيضاً إلى أن النيكوتين ليس بأي حال المادة الوحيدة الفاعلة إحيائياً في ورقة التبغ. تمكن الباحثون مؤخراً من عزل مواد قلوية من فئة الهارمالا، والهارمان، والنورهارمان، من التبغ التجاري المُعالَج ودخانه.إنها تشكل مجموعة من مواد البيتا كاربولين الكيميائية التي تحتوي على هارمين وهارملين وتيتراهايدوهامين، و٦ ميتدكسي هارمين، وكلها لها خصائص مهلوسة. وعلى الرغم من أن مكوّنات أنواع التبغ المحلية لم تخضع للدراسة بعد، لكن من المنطقي أن نفترض أن تركيبتها قد تختلف وذلك تبعاً لنوعيتها وطريقة نموها، وأن بعض هذه الأنواع المحلية قد يحتوي على نسبة تركيز عالية من هذه المواد(٨).

كان التبغ ولايزال النبات المساعد الأكثر فاعلية للحصول على التهيؤات، لكنه في أميركا يستخدم بطريقة تقليدية وشامانية.

ابتكر سكان العالم الجديد الحقن الشرجية واستخدموها لتعاطي التبغ. بيتر فاوست بحث في دور الحقن الشرجية في الممارسة الطبية والطقوس الشامانية في أميركا الوسطى:

عرف الباحثون مؤخراً أن شعب المايا القديم كشعب البيرو القديم، استخدموا الحقن الشرجية. الحقن الشرجية، أو حقن المخدرات، والطقوس المتعلقة بها، كشفتها رسوم.المايا، التي نذكر منها على سبيل المثال مزهرية كبيرة تعود إلى ما بين ٦٠٠ و٨٠٠ بعد الميلاد وقد رسم عليها رجل يحمل حقنة شرجية، وآخر يحقن نفسه بها و تظهر في رسم ثالث امرأة تحقنه بها. ونتيجة لاكتشاف هذا المشهد تمكن عالم الآثار م.د. كو من التعرف إلى غرض غريب يمسكه إله على هيئة اليغور مرسوم على إناء آخر يعود إلى المايا، وتبين له أنه حقنة شرجية. وإذا كانت المواد التي استخدمها المايا في هذه الحقن مشابهة لتلك التي عرفها هنود البيرو، أي أنها مخدرة أو مثيرة للهلوسة، فهي على الأرجح تتكون من الـ Balché المخمر (ميد العسل). شراب الـ Balché مقدس وربما كان يضاف إليه التبغ أو نقيع بذور الصباح ليزداد قوة. وربما يكون الناس تناولوا نقيع الداتورة وحتى الفطور المثيرة للهلوسة بهذه الطريقة. وبالطبع كانوا يستطيعون تناول نقيع التبغ وحده(٩).

---

(٨) فرنسيس روبيتشك: «The Smoking Gods: Tobaco in Maya Art, History and Religion». نورمان، University of Okalahoma Press، ١٩٧٨، ص ٤٦.

(٩) بيتر فيرست: «Hallucinogens and Culture». سان فرنسيسكو: Chandler & Sharp، ١٩٧٨، ص ٢٨.

التبغ والشعوذة

كل مادة مخدّرة كانت تطرح للاستخدام محاطة بعدد من النظريات الطبية والإدعاءات العلاجية.سبق انتشار الكوكايين، كما سنبيّن فيما بعد، موجة إقبال على منشط عُرف بنبيذ مارياني، والهيروين وُصف بأنه علاج للادمان على المورفين. وفي إطار حديثنا عن طقوس الحقن عند المايا نشير إلى أن الطبيب الداناركي توماس بارتولين أوصى مرضاه سنة ١٦٦١ بتعاطي حقن عصارة التبغ وحتى حقن دخان التبغ:

أولئك الذين ابتلعوا التبغ بالصدفة يستطيعون التأكيد على خواصه المطهّرة. ويمكننا الافادة من ذلك بواسطة حقنة التبغ. زميلي العزيز إيرازموس شرح لي الطريقة. يُصار إلى نفخ الدخان من غليونين (مليئين بالتبغ) إلى داخل الأمعاء ـ هناك آلة مناسبة لذلك ابتكرها الانكليز ببراعتهم[١٠].

وتأكيداً على هذه البراعة الانكليزية نشير إلى أن طبيباً فرنسياً شاباً يدعى بوكوز نصح باستخدام «نفخ دخان التبغ داخل المهبل لعلاج الهستيريا».

بعيداً عن هذه الطرق الشاذة والغريبة لاستخدام التبغ، وعلى الرغم من استياء رجال الدين، انتشرت عادة التدخين بسرعة في أنحاء أوروبا. كل مادة مخدرة كانت تُطرح للاستخدام في وسط حضاري جديد باعتبارها «عقار للحب»، هذا الوصف كان على ما يبدو الأكثر فاعلية لترويجها؛ الهيروين والكوكايين و إل إس دي و إم دي إم آي، وصفت جميعاً بأنها تعزّز الحميمية الجنسية أو النفسية. والتبغ لم يكن مختلفاً عنها؛ فقد كان من أسباب انتشاره السريع ما رواه البحارة عن خواصه الرائعة في تقوية الشهوة الجنسية:

روى الجارة حكايات عن نساء نيكاراغوا اللواتي كن يدخن هذه النبتة ويبدين حرارة لا توصف. هذه الحكايات زادت على ما يبدو من إقبال نساء أوروبا على التدخين. وربما تكون أيضاً السبب الذي أدى إلى نجاح أندريه تيفيت الذي تخلّى عن كونه راهباً فرنسيسكياً، في ترويج التبغ في البلاط الفرنسي سنة ١٥٧٩[١١].

أراد تيفيت أن يجعل من تدخين التبغ وسيلة للاستجمام. وقبل ذلك كان المبعوث الفرنسي إلى البرتغال جان نيكوت يجرب استعمال التبغ بطرق مختلفة، ومنها أنه كان يسحق الأوراق ليحوّلها إلى سعوط يساعد على علاج وجع الرأس. سنة ١٥٦٠ أرسل نيكوت كمية من هذا السعوط إلى كاترين دو مديشي، التي كانت تعاني من نوبات صداع مزمنة. أعجبت الملكة بفاعلية النبتة التي صار اسمها«عشبة مديشيا» أو «عشبة كاترينا».

---

(١٠) توماس بارتولين: «Historiarum anatomicarum et medicarum rariorum». كوبنهاغن، ١٦٦١.

(١١) إيبودين، (نافذ)، ص ٣٨.

صنع نيكوت سعوطه من نيكوتيانا روستيكا، تبغ شامان المايا الأكثر تخديراً. تبغ تيفيت، نيكوتيانا تاباكوم، اجتاح أوروبا بشكل السيكارة، وكان المنطلق لتلك الحركة الاقتصادية الهائلة التي نمت في مستعمرات العالم الجديد.

ضدّ التبغ.

لم يرحّب كل الناس بالتبغ. البابا أوربان الثالث أعلن في كنائس إسبانيا عقوبة الحرم الكنسي لكل من يدخن أو يستخدم السعوط. وفي ١٦٥٠ أعلن إنيوسينت العاشر من كنيسة القديس بطرس تحريم تعاطي السعوط تحت طائلة الحرم الكنسي. والبروتستانت بدورهم رفضوا هذه العادة الجديدة، وخاضوا حملة ضدها، ونشير في هذا السياق إلى ما ورد في بيان أصدره الملك جايمز الأول، ملك انكلترا، سنة ١٦٠٤، هدف إلى اقناع الناس بالامتناع عن التبغ:

> والآن أيها المواطن العزيز، دعنا(من فضلك) نفكر أي شرف أو غاية، يدفعاننا إلى تقليد الهنود الحقيرين، خصوصاً تلك العادة المؤذية والكريهة الرائحة... إنني أقول بصراحة لماذا ندفع أنفسنا إلى تقليد هؤلاء الوحوش، عبيد الإسبان، المنبوذين في العالم، والبعيدين عن عهد الله المقدس؟ لماذا لا نقوم بتقليدهم أيضاً في التجول عراة كما يفعلون؟ ... أجل ولم لا تنكر وجود الله ونعبد الشيطان، كما يفعلون..[١٢].

وبعد إصدار هذا البيان التحريضي على الرفض حوّل الملك اهتمامه إلى أمور أخرى. بعد حوالي ثماني سنوات ذكر أحد التقارير أنه كان في مدينة لندن وحدها مالا يقل عن سبعة آلاف مدخن، وعدد كبير من بيوت التدخين! انتشر التدخين والسعوط بسرعة كأية موضة حديثة.

انتصار التبغ.

من الناحية الاقتصادية لم يحتل التبغ مكانة بارزة إلاّ بعد نهاية حرب الثلاثين عاماً سنة ١٦٤٨. في ذلك التاريخ كانت المستعمرات الأميركية قابلة للمشاركة في الاقتصاد المركنتلي الآخذ في النمو. وهذا الاقتصاد استند في الواقع بجزء كبير منه إلى تبغ مستعمرات أميركا الشمالية والكحول المقطّر والسكّر الخام من المراكز الاستوائية. عصر التنوير تأسس في ظل اقتصاد ارتكز إلى المواد المخدرة.

طرح التبغ في أسواق أوروبا في إطار التأكيد على أنه من نوع نيكوتيانا تاباكوم الذي يزرع بكميات كبيرة ويستخدم للاستجمام، ويتميز بأنه أقل تخديراً من النوع الثاني، وبذلك لم يعد

---

(١٢) رويتشيك، (نافذ)، ص ٨.

تلك النبتة التي يستخدمها الشامان لقدرتها على إثارة الهلوسة. إن التبغ المحلي الذي جربته بنفسي أثناء زيارتي للأمازون كان شديد الفاعلية والتخدير، وقادراً بالتأكيد على تغيير حالة الوعي. عادة تعاطي التبغ التي انتشرت في أوروبا كانت استجمامية وبعيدة عن الطقوسية ولذلك فإن أنواع التبغ ذات التأثير المعتدل كانت الأكثر نجاحاً على الصعيد التجاري.

كلّ مخدر جديد يخضع تعاطيه لعملية تخفيف قبل التوصّل إلى إجماع عام حول أفضل مستوى مرغوب فيه من الفاعلية. تعاطي الحشيش والأفيون تحوّل مثلاً من أكل هاتين المادتين إلى تدخينهما وكذلك تراجع تعاطي جرعات كبيرة من إل إس دي كما كان رائجاً في الستينات إلى الخط المعروف اليوم من تعاطي جرعات صغيرة من المخدر لأغراض استجمامية. وهذا التغيير الأخير ربما نتج عن تعرّض نسبة من الأشخاص إلى نوبات عصبية حارة بعد تناول جرعات كبيرة من إل إس دي فكرة التوصل إلى الجرعة«الصحيحة» أمر يتغير ويتبلور مع الوقت.(لكن هناك بالطبع أمثلة مناقضة لذلك؛ إن التوجّه من تنشق بودرة الكوكايين إلى تدخين الكوكايين مثلاً يشكل إنتقالاً نحو تعاطي جرعات أكبر وأكثر خطورة).

حروب الأفيون

كان قرار الإمبراطور الأخير من ملالة مينغ في الصين (١٦٢٨ ـ ١٦٤٤) بمنع التدخين دافعاً للمدمنين على التبغ لتجريب تدخين الأفيون. قبل ذلك التاريخ لم يكن تدخين الأفيون معروفاً. وبذلك يكون حظر نوع من المخدر هو الذي أدّى حتماً إلى التورط بالتعلّق بمخدر آخر. ومع حلول سنة ١٧٩٣ كان تدخين الأفيون والتبغ رائجاً في كل أنحاء الصين.

في البداية منعت السلطات الصينية سنة ١٧٢٩ استيراد الأفيون وبيعه. وعلى الرغم من ذلك استمر تهريب الافيون الى البلاد عن طريق البرتغاليين الذين حملوه من مزارع غوا، واستمر معدل الاستهلاك بالارتفاع حتى وصل عام ١٨٣٠ مثلاً إلى أكثر من ألفين وخمسمئة صندوق من الأفيون. شعر الإنكليز بأن قرار الحظر يهدّد مصالحهم الاقتصادية لذلك عمدوا إلى محاولة تغيير الأوضاع من خلال ما سمي بحروب الأفيون ١٨٣٨ ـ ١٨٤٢.

> شركة الهند الشرقية والحكومة البريطانية سوّغتا تجارة الأفيون بنوع من الرياء المطلق جعل المؤسسة الإنكليزية تصبح نموذجاً يحتذى خلال ثلاثة قرون. لم تكن هناك صلة مباشرة بين تجارة الأفيون وشركة الهند الشرقية التي احتكرت بالطبع تجارة الشاي في بريطانيا حتى ١٨٣٤... كان الأفيون يباع بالمزاد العلني في كالكوتا. وبعد ذلك كانت الشركة ترفض أية مسؤولية عن المخدر[١٣].

(١٣) هنري هوبهاوس: «Seeds of Change: Five Plants that Tranformed Mankind». نيويورك، Harper & Row، ١٩٨٥، ص ١١٧.

كانت الحادثة التي تسببت بإطلاق شرارة الإرهاب الرأسمالي وتوسّع نطاق الاستعباد على مستوى جماعي هي إتلاف عشرين ألف صندوق من الأفيون على أيدي السلطات الصينية. سنة ١٨٣٨ أرسل الأمبراطور تاو كوانغ مندوباً رسمياً يدعى لين إلى كانتون لوضع حدّ لتجارة الأفيون غير المشروعة. صدرت أوامر رسمية من البريطانيين والصينيين إلى تجار المخدر برفع بضائعهم لكن هؤلاء تجاهلوا الأوامر. عمد المبعوث الصيني لين عندئذٍ إلى إحراق المخازن على الأرض، وكذلك السفن البريطانية التي تنتظر دورها لإفراغ حمولتها في المرفأ. ضاع ما يزيد على مؤونة سنة كاملة من الأفيون وانتشر الدخان في كل مكان؛ ويذكر المؤرخون الذين شهدوا الحادثة أن الرائحة التي عبقت بها أجواء المكان كانت لا تضاهى[١٤].

استمر الخلاف لفترة حتى أعلنت الحرب سنة ١٨٤٠. أخذ البريطانيون هذه المبادرة وكانوا مطمئنين إلى تفوقهم بوجود قطع البحرية الملكية. غلب الصينيون على أمرهم وكانت الحرب قصيرة وحاسمة. سنة ١٨٤٠ سقطت شوسان وفي السنة التالية قصف البريطانيون حصوناً على نهر كانتون ودمروها. وافق الحاكم الصيني كي تشي، الذي خلف المبعوث لين، على التخلي عن هونغ كونغ ودفع غرامة مقدارها ستة ملايين دولار صيني فضي، أي ما يعادل ثلاثمئة ألف جينيها استرليني. عندما وصلت أخبار الاتفاق إلى بكين لم يجد الامبراطور حلاً آخر. وبذلك عانى الصينيون من خسائر كبيرة في الأموال والممتلكات[١٥].

بعد خمس عشرة سنة اندلعت حرب ثانية، وجرّت بدورها الويلات على الصين. وبعد فترة قصيرة نظّمت معاهدة تيان تسي تجارة الأفيون.

هذه الأحداث كانت نموذجاً لغزوات أخرى في مجال ترويج المخدرات على الصعيد الدولي خاضتها حكومات القرن العشرين. إنها تظهر بوضوح أن عملية تسويق المخدرات تفرض نفسها على القوي المؤسساتية التي ترفض، أو تدعي بأنها ترفض، هذه السلع. تكرر النمط الذي رسّخته الديبلوماسية الإنكليزية في تجارة الأفيون. في القرن التاسع عشر، ولو يكن مع بعض التغييرات، وذلك من تواطؤ وكالة الاستخبارات المركزية في تجارة الهيروين والكوكايين في عصرنا.

---

(١٤) آرثر وايلي: «The Opium War Though Chinese Eyes». ستانفورد، Stanford University Press، ١٩٥٨، ص ١١ - ١٥٧.

(١٥) بيتر وارد فاي: «The Opium War». نيويورك، W.W. Norton، ١٩٧٥، ص ٢٤٩ - ٢٦٠.
أنظر أيضاً جاك بيتشينغ: «The Chinise Opium War». نيويورك، Harcourt Brace Jovanovich، ١٩٧٥.

الأفيون والنمط الحضاري: دوكوينسي

في أوائل القرن التاسع عشر كان للأفيون نفوذاً أقوى من سياسة الامبراطوريات المركنتلية في الشرق الأقصى؛ وكان له تأثير غير متوقع أيضاً على الاتجاهات الفنية والفكرية في أوروبا. كان المجتمع الأوروبي بمعنى ما يستيقظ من هيمنة النرجسية في كلاسيكية النهضة، ووجد نفسه متفرجاً في الوليمة المغرية بميتافيزيقيتها وجماليتها، والتي يتحكّم فيها الأتراك العثمانيون ـ وليمة كان الأفيون الفاتح الأول للشهية فيها.

في هذا السياق يجب أن نشير إلى ما أورده توماس كوينسي في وصفه لتهيؤات الأفيون. دوكوينسي كان، مثل تيموثي ليري في الستينات من القرن العشرين، قادراً على وصف الطاقة الملهمة التي أختبرها. بالنسبة له كانت الطاقة حبيسة داخل متاهة الأفيون. استطاع أن ينقل رؤية الأفيون بقوة وزخرفة الكآبة الرومنطيقية؛ وتمكن في كتابه Confessions of English Opium Eater من تجسيد الصورة الحضارية (روح العصر) لتجربة التخدر بالأفيون والبعد الميتافيزيقي للأفيون. ابتكر أسلوب «الاعتراف» في الكتابة عن المخدرات، وكانت أوصافه عن عالم الأفيون لا مثيل لها:

> عندما كنت، منذ سنوات، أتفرّج على أعمال بيرانزي عن روما القديمة، وصف لي السيد كولريدج، الذي كان واقفاً بجانبي، مجموعة من الصفائح تركها الفنان وسماها «أحلام»، والتي سجّل عليها مشاهد رؤاه خلال فترة إصابته بالحمّى. بعضها (وأنا أصفه من الذاكرة فقط استناداً لما رواه لي السيد كوليريدج) رسمت عليه قاعات قوطية كبيرة، على أرضها كل أنواع الآلات والمعدات من العجلات والكبول والبكرات والرافعات والقاذفات وغيرها. وهي تمثل القوة الهائلة والمقاومة المهزومة. وعلى جانب الجدار يظهر سلم، يصعد عليه بيرانزي نفسه. والسلم الذي ليس له درابزين يتوقف فجأة ولا يترك مجالاً لمن يريد التقدم إلاّ السقوط في هاوية عميقة. وأنت تتساءل ماذا سيحلّ بالمسكين بيرانزي يا ترى؟ سعيه يجب أن ينتهي بطريقة ما عند هذه النقطة. لكنك إذا رفعت بصرك ترى سلماً جديداً أعلى من الأول؛ ويظهر على درجاته بيرانزي ثانية، وهو في هذه المرة يقف عند حافة الهاوية. وإذا رفعت بصرك أيضاً تجد سلماً آخر، وبيرانزي ما زال أيضاً مستغرقاً في سعيه للوصول؛ وهكذا يتكرّر الرسم إلى أن تضيع السلالم ومعها بيرانزي في ظلام القاعة العلوي. بهذا الزخم من التنامي اللانهائي والتطور الذاتي شُيّدت أحلامي[١٦].

الأفيون ينعش الروح ويحدث اندفاعاً لامتناهياً عن التفكير والتأمل. في السنوات الخمسين التي تلت «اعترافات» دوكوينسي ترسخت صورة تأثير الأفيون على طاقة الإبداع خصوصاً الإبداع الأدبي. دوكوينسي كان رائداً في هذا المجال؛ كان أول كاتب تقصّد درس تجربته

---

(١٦) توماس دوكوينسي: «Confessions of an English Opiun-Eater». لندن، MacDonald، ١٨٢٢، ص ١١٧.

الشخصية وكيفية تكوّن أحلامه وتهيؤاته، ومساعدة الأفيون في تشكيلها وتقويتها، وكيف يعاد خلقها لتوظيفها في الفن الواعي ـ الذي كان بالنسبة له «الكتابة النثرية»، لكن هذه العملية قد تطبق أيضاً في الشعر. تعلّم جزئياً تقنيته ككاتب في مراقبته لكيفية عمل العقل في الأحلام والخيالات تحت تأثير الأفيون.

كان مقتنعاً أن الأحلام وخيالات الأفيون هي بحد ذاتها عملية خلاّقة مرادفة للإبداع الأدبي وتؤدي إليه. لم يستخدم الأحلام في كتابته كوسيلة للزخرفة أو الرمز أو لخلق جو معين أو كدلالة لما سيحدث، ولا حتى بوصفها إيحاءات من حقيقة أعلى (على الرغم من أنه كان يؤمن بأنها كذلك)، بل لأنها بحد ذاتها تشكل نمطاً فنياً فريداً. إن دراسته لنشاط المخيلة أثناء النوم لابتكار الأحلام تشبه سعي بعض معاصريه لتحريك المخيلة الواعية لإبداع الشعر(١٧).

بداية الأدوية النفسية

إن اهتمام أمثال دوكوينسي وعالم النفس ج.ج. مورو دو تور بالدراسة التحليلية والسيكولوجية ومحاولتهما معرفة طبيعة المواد التي حاولا اكتشافها، يشير إلى بداية الجهود العلمية التي ما زالت حتى اليوم تسعى للتوصل إلى تفاهم مع هذه المواد. كانت الأبحاث في تلك الفترة تفترض ضمناً أن حالة التخدير تشبه الجنون، وأن الجنون وهو الأصعب بين الأمراض العقلية يعود إلى أسباب فيزيولوجية. وقد ساد الاهتمام بحلم الأفيون الناجم عن يقظة المخيلة؛ والدهشة التي أثارتها الأحلام عموماً مهدت الطريق لظهور طريق التحليل النفسي عند فرويد ويونغ؛ هذه الدهشة نجدها في أدب القرن التاسع عشر ـ عند غوته وبودلير ومالارميه وهويسمان وهاين. إنها أنشودة حوريات اللاوعي التي ظلت صامتة منذ تدمير إيليوسيس وانعكست في الرومنطيقية وما قبل الرفايلية بحماس وثني، وكانت مدفوعة بالتعلّق بالأفيون. مومسات حريم بيردسلي بأجفانهن الثقيلة أو التهيؤات الأكثر سوداوية وتعقيداً عند أوديلون أو دانتي غابريال روستي تشكل صورة مصغرة عن هذا التوجه الجمالي.

وكما أن للتوجه جانباً قاتماً، كذلك بدأت الأبحاث الكيميائية على الأفيون تعطي مشتقات أكثر قابلية للإستهلاك والإدمان. اكتشف إبرة الحقن تحت الجلد سنة ١٨٥٣، ومنذ ذلك التاريخ اعتمد الذين يتعاطون الأفيون على نموذج الإدمان الحاد بإدخال المورفين في الأوردة، وطبقوه إرضاء لرغباتهم. (أنظر الرسم ٢١).

(١٧) هايتر، (نافذ)، ص ١٠٣.



الشكل (٢١)
رسم المدمنة على المورفين لأوجين غراسيت، مع الشكر لمكتبة Fitz Hugh Ludlow، ١٨٩٣

شهد القرن التاسع عشر محاولة ترتيب للأنواع الكثيرة من المخدرات والمنبهات التي جلبتها إلى البلاد حملات الاستكشاف والاستغلال للمناطق البعيدة. استخدام التبغ في مختلف أشكاله انتشر بين الفئات الاجتماعية كافة، وخصوصاً عند الرجال. والأفيون عرفته مجموعات أقل عدداً لكنها بدورها كانت تنتمي إلى كافة الطبقات. والكحول المقطّر توسّع نطاق إنتاجه واستهلاكه أكثر من أي وقت مضى. في هذه الأجواء ظهرت أيضاً تنظيمات تدعو إلى الاعتدال، وبدأت المواقف الحديثة من مشكلة المخدرات تتبلور. لكن المشكلة العقلية في انتشار تعاطي المخدرات الاصطناعية كانت لا تزال بعيدة ولم تطرح قبل القرن العشرين.

١٣ ـ المخدرات المصنّعة: الهيرويين، والتلفزيون

سنة ١٨٠٥ تمكّن الكيميائي الألماني الشاب فريدريك سيرتورنر من عزل مادة المورفين، واعتبره روح نبتة الأفيون الأكثر نقاوة؛ سماه مورفيوس على اسم إله الأحلام عند اليونان. كان نجاح عملية عزل روح الأفيون حافزاً للعديد من الكيميائيين لمحاولة عزل الخلاصة النقية من مواد ثبتت فاعليتها الطبية. من روح نبتة قفاز الثعلب صنعت أدوية لأمراض القلب. واستخرج الكينين في شجرة الكينا، واستخدم بعد تنقيته لمساعدة التوسّع الاستعماري في المناطق التي تسيطر عليها الملاريا. ومن أوراق شجرة من أميركا الجنوبية استخرج مخدّر جديد وواعد ـ الكوكايين.

. كان استخدام المورفين محظوراً حتى منتصف القرن التاسع عشر. استعمل في البداية كوسيلة للإنتحار. لكن هذه المرحلة لم تطل وسريعاً ما ترسّخ كمخدر جديد ومختلف. سنة ١٨٥٣ ابتكر ألكسندر وود المحقنة تحت الجلدية. قبل ذلك كان الأطباء يلجأون إلى سويقات نبتة الليلك المجوفة لإدخال العقاقير إلى الجسم. جاء ابتكار المحقنة في الوقت المناسب لكي تستخدم في إعطاء المورفين للجنود المصابين في الحرب الأهلية الأميركية والحرب الفرنسية البروسية. هذا الاستعمال للمورفين شكّل ظاهرة ستتكرر في تاريخ تعاطي هذه المادة ـ ظاهرة الحرب كقوة موجهة نحو الإدمان.

مع حلول سنة ١٨٩٠ كان هناك في أوروبا وأميركا أعداد كبيرة من المدمنين الذين حقنوا بالمورفين في ساحات القتال. عودة الجنود المصابين إلى بيوتهم وقد تعودوا على حقن المورفين صارت ظاهرة جعلت الصحافة تتحدث عن إدمان المورفين بأنه «مرض الجنود».

المخدرات القوية

الكحول المقطّر والسكر الأبيض سبقا المورفين كنوعين من المركبات ذات النسبة العالية من

النقاوة والإدمانية، لكن المورفين هو الذي مهّد لظهور «المخدرات القوية» أي المخدرات التي تحقن وتُسبب الإدمان. تلك المخدرات كانت في البداية تستخرج من الأفيون، لكن سرعان ما انضم الكوكايين إلى اللائحة. وعند ظهور الهيرويين، الذي اعتبر في البداية علاجاً للإدمان على المورفين، حلّ بسرعة مكان المورفين. بوصفه الأفيون المصنّع المفضل عند المدمنين. وحافظ الهيرويين على هذا الموقع في القرن العشرين.

واحتل الهيرويين بسرعة أيضاً مكان الصدارة في لائحة المخدرات ونسب إليه التخوّف العام كافة مساوىء الإدمان. وحتى يومنا هذا، مع أن الدراسات الإحصائية تظهر أن الكحول يقتل عشرة أضعاف أكثر من الهيرويين، لايزال الإدمان على الهيرويين يعتبر أسوأ أنواع الانحراف، هناك سببان لهذه النظرة.

السبب الأول قوة الهيرويين الإدمانية، الحاجة الماسّة إلى الهيرويين وما يرافقها أحياناً من أعمال غير مشروعة أو عنيفة للحصول عليه، أعطت المورفين صورة المخدر الذي يدفع المدمن إلى القتل في سبيله. مدمنو التبغ قد يقتلون أيضاً للحصول على التبغ لو كانوا مضطرين لذلك، لكنهم يستطيعون شراء سجائرهم بكل بساطة.

السبب الثاني للنفور من إدمان الهيرويين يعود إلى صفات حالة التخدير. بعد الحصول على الجرعة مباشرة تنتاب المدمن حالة فرح وحماسة. لكن ردّة الفعل الناشطة هذه سرعان ما تتحول إلى نعاس لا إرادي، والمدمن يهدف إلى الوصول إلى هذه الحالة من الانعتاق والغوص في الخدر التي تطلق عنان الأحلام التي تتوالى في مخيلته. في هذه الحالة لا يوجد ألم أو ندم أو حيرة أو خوف. الهيرويين مخدر مفضل عند الذين عانوا من فقدان ثقتهم بأنفسهم أو أثارت رعبهم الأحداث التاريخية. إنه مخدر ساحات القتال، ومخيمات التعذيب، وأجنحة السرطان، والسجون، ومناطق «الغيتو». إنه مخدر للمستسلم والمذعن والذي يواجه موتاً حتمياً والضحايا غير الراغبين بردّ الضربة أو غير القادرين على ذلك:

> الهيرويين أفضل مادة... أفضل بضاعة. بيع الهيرويين لا يحتاج إلى تفاوض. الزبون يتوسل للحصول عليه... تاجر الهيرويين لا يبيع البضاعة إلى المستهلك بل يبيع المستهلك إلى بضاعته. إنه لا يحسّن بضاعته ولا يبسّطها، بل يحطّ من شأن الزبون.
>
> الهيرويين يحمل تركيبة «فيروس الشر» «كيمياء الحاجة». «الشر» هو دائماً «الحاجة الكلية». المدمن الشرير هو من يكون بحاجة كلية للمخدر. في مستوى معين لا تعود للحاجة حدود ولا يعود هناك مجال للتحكم بها. عندما تتحكم الحاجة بالمرء تجعله قادراً على الكذب والغش وإفشاء المعلومات عن أصدقائه والسرقة، والقيام بأي عمل إرضاء لتلك الحاجة. لأن المرء يكون في حالة مرض كلي، واستلاب كلي، ولا يكون في وسعه التصرّف بطريقة مختلفة. المدمنون الأشرار هم مرضى لا

يستطيعون اختيار طرق أخرى للسلوك. الكلب المسعور ليس في وسعه سوى أن يعضّ[١].

الكوكايين: رعب المادة البيضاء

الكوكايين مثل الهيروين مخدر حديث بالغ النقاوة يستخرج من نبتة لها تاريخها الطويل عند شعوب غابات المطر في أميركا الجنوبية. منذ آلاف السنين كانت شعوب تلك المناطق تحتفظ بقيم حضارية عزّزت موقع الكوكة الطعام/المنبه في الطقوس الدينية.

السكان المحليون الذين عاشوا في أماكن تواجد نبتة الكوكة يقولون: «Coca no es un droga, es comidia» الكعكة ليس مخدراً، إنها طعام. وهذا يبدو صحيحاً بالفعل. إن الجرعة الفردية من غبار الكوكة المطحونة تحتوي على نسبة عالية من المعدل المطلوب يومياً من الفيتامينات والمعادن[٢]. والكوكة أيضاً تساعد على كبت الشهية. أهمية هذه الوقائع لا يمكن رؤيتها إلاّ من خلال فهم مقدار توفر البروتين في غابات الأمازون وأنديان ألتيبانو. قد يتصور البعض أن خصوبة الأدغال الاستوائية تعني توفر الفاكهة والبذور والجذور الصالحة للأكل. لكن واقع الحال يختلف عن ذلك. هناك تنافس حاد بين آلاف الأجناس الحية للحصول على موارد البروتين المتوفرة. دخول الإنسان إلى هذه البيئة تطلب مساعدة نبتة تكتم الشهية.

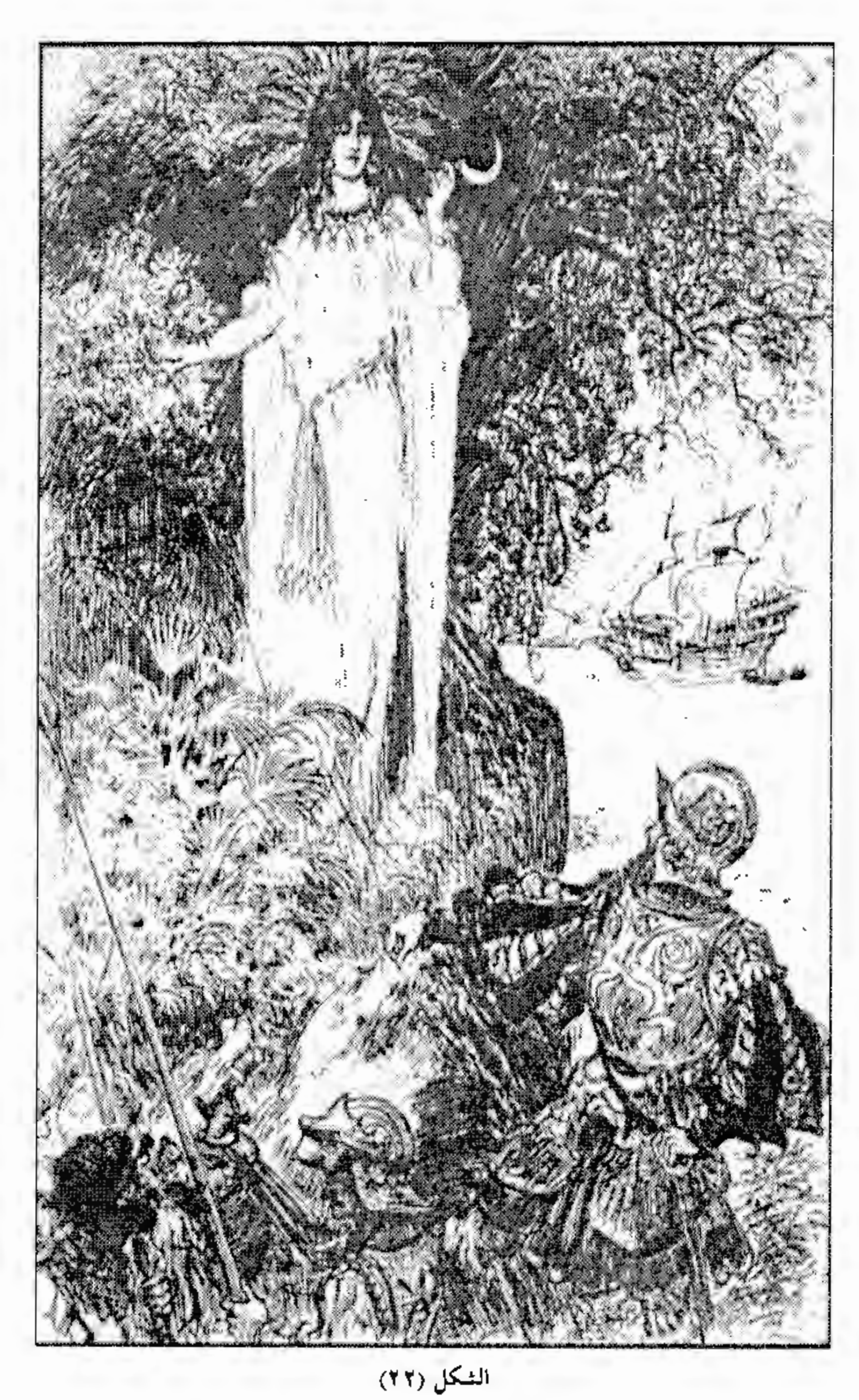
كبت الشهية ليس سوى صفة من صفات استخدام الكوكة؛ وقد يكون التنبيه أهمها. غابة المطر مكان يصعب العيش فيه. جمع الطعام وبناء المأوى يتطلب عادة حمل أمتعة كثيرة لمسافات طويلة، وغالباً ما يكون المنجل هو الآلة الوحية القادرة على مواجهة الغابة.

في حضارة الإنكا القديمة في البيرو، وعند السكان المحليين وأبناء الجيل الهجين فيما بعد، كانت الكوكة إلهة، صدى من العالم الجديد لإلهة غرايف البيضاء، لوكوثيا. صورة الإلهة «الأم الكوكة» على هيئة فتاة شابة تقدم بحضن الكوكة للمستعمر الإمباني احتلت الصفحة الأولى من مؤلف و. غولدن مورتيمر المعروف: History of the Coca: The Divine Plant of the Incas «تاريخ الكوكة: نبتة الإنكا المقدسة» (أنظر الرسم ٢٢).

سنة ١٨٥٩ عزل الكوكايين للمرة الأولى كانت صناعة الأدوية تمر في فترة إزدهار، واستمرت بحماس الأبحاث حول الكوكايين عدة سنوات. في هذا الإطار يبدو أنه من غير

(١) ويليام بورور: «Naked Lunsh». نيويورك، Grove Press، ١٩٥٩، ص viii.

(٢) جايمز أ. ديوك، دايفيد أوليك، تيموثي بلاومان: «Nutritional Value of Coca». في Botanical Museum Leaflets of Harvard University 24:6، ١٩٧٥.



الشكل (٢٢)

لأم كوك، إلهة العالم الجديد التي ترحب بالإسبان عند وصولهم. من كتاب ر.ج. مورتيمور: «History of Coca: The Divine Plant of the Incas» (سان فرنسيسكو منشورات And/or، ١٩٧٤) مع الشكر لمكتبة Fitz Hugh Ludlow.

الضروري القول أن الكوكايين اعتبر في البداية علاجاً للإدمان على المورفين! من الباحثين الذين اهتموا بالمخدر الجديد الشاب سيغموند فرويد:

تحظ بالقبول في حال الإطلاع عليها. كارل كولّر، أحد زملاء فرويد في الدراسة في فيينا، قام بالخطوة التالية في استخدام الكوكايين في المجال الطبي، واكتشف فاعليته كمخدر موضعي. وبين عشية وضحاها أحدث اكتشاف كولّر ثورة في مجال الجراحة؛ ومع حلول عام ١٨٨٥ ساد الاعتراف بالكوكايين كتقدم طبي هائل. لكن فيما كانت دائرة استخدامه تتوسع، كان البعض يلجأوون إليه كمادة منبهة. كان الكوكايين وراء المخدر الذي لا يذكر اسمه في رواية روبرت لويس ستيفنسون «قضية الدكتور جيكل والسيد هايد الغريبة»، والذي تسبب بإحداث تغيرات مفاجئة في الشخصية والسلوك ـ مما أضاف إلى سمعة الكوكايين التي كانت موضع تداول باستمرار، بأنه عيب جديد فاسد من عيوب الأثرياء والفاسقين.

تأييد الكوكايين

لم تكن صورة الكوكايين دائماً بهذه الفظاعة. سنة ١٨٨٨ كتب الطبيب البريطاني سير آرثر كونان دويل رواية قصيرة صارت شهيرة اليوم عنوانها: «إشارة الأربعة»، وأورد في سياقها تعليقاً لمفتشه شيرلوك هولمز على استخدامه للكوكايين: «أعتقد أن تأثيره سيىء على الجسم. لكنني مع ذلك أراه يدفع للتعالي وتنقية العقل لدرجة أن مفعوله الآخر يصبح ثانوياً»[٤].

انضمت الكوكة إلى لائحة البن والشاي والشوكولاتة، أي أنها لفتت بسرعة انتباه التجار. ومن بين أولئك الذين رأوا إمكانيات الكوكة التجارية رجل فرنسي يدعى م. أنجلو مارياني. سنة ١٨٨٨ ظهر في الأسواق «نبيذ مارياني» (أنظر الرسم ٢٣). وتلته في فترة قصيرة أنواع أخرى من النبيذ والإكسير والعقاقير المنشطة، التي ترتكز في تركيبها إلى الكوكة:

> كان مارياني من أهم المروّجين لفضائل الكوكة، ومن أكثر المتحمسين لتقاليدها. أحاط نفسه بمصنوعات الإنكا وزرع نبتة الكوكة في حديقة منزله، وأشرف على تنظيم تسويقها خصوصاً في نبيذه المنشّط. كان عبقرياً في إدارة حملته الدعائية لدرجة أنه كاد «يقلب الدنيا» أكثر من أي رجل آخر. الملكة فيكتوريا والبابا ليو الثامن وساره برناردت وتوماس إديسون ومئات المشاهير والأطباء أدلوا بشهادات علنية عن المزايا المنشّطة لمنتوجاته، وُزعت في اثني عشر مجلداً أصدرتها شركته[٥].

---

(٣) زيغموند فرويد: «The Cocaine Papers»، فيينا، Dunquin Press، ١٩٦٣، ص ١٤.

(٤) آرثر كونان دويل: «The Sign of Four» in «The Complete Sherlock Holmes». نيويورك، Doubleday، ١٩٠٥.

(٥) مقدمة مايكل هوروويتز لكتاب و. غولدن مارتيمور: «History of Coca: The Divine Plant of the Incas». سان فرنسيسكو، Fitz Hugh Ludlow Library، ١٩٧٤.



الشكل (٢٣)
دعاية لنبيذ مارياني. مع الشكر لمكتبة Fitz Hugh Ludlow.

الهيستيريا الحديثة المعادية للمخدرات

في بداية هذا القرن انتشرت في الولايات المتحدة الأميركية إشاعات أثارت رعباً هيستيرياً تقول أن السود الجنوبيين الذين يتعاطون الكوكة أصيبوا بالجنون وقد يبدأون بمهاجمة البيض والتعدّي عليهم. سنة ١٩٠٦ صدر مرسوم عن الأغذية والمخدرات؛ وأعلن المرسوم لا شرعية الكوكايين والهيروين وهيأ الأجواء لحظر المركبات الصنعية والتي تسبب الإدمان، التي يستخرج من الأفيون والكوكة. وعلى عكس مواد التبغ والشاي والبن التي كادت تمنع في البداية ثم

صارت مشروعة، فإن مواد المورفين والهيروين والكوكايين طُرحت في البداية كمواد مشروعة، وعندما تبيّن مفعولها الإدماني بدأت محاولات حظرها. لكن لماذا طال حظر هذه المخدرات دون سواها؟ هل كان الإدمان عليها أشد خطورة؟ هل كان اللجوء إلى الحقن تحت الجلد كريهاً إلى حدٍ ما؟ أم أن الاختلاف في التأثير الاجتماعي والسيكولوجي لهذه المخدرات جعلها تدفع ثمن الأذى الذي يتسبب به الكحول والتبغ؟ هذه أسئلة صعبة ولا نستطيع الإجابة عليها ببساطة. لكننا إذا أردنا فهم الأجواء المختلفة لتسويق المخدرات واستخدامها في القرن العشرين لا بدّ لنا من محاولة الإجابة على هذه الأسئلة.

قد يكمن جزء من الإجابة في أنه مع بداية القرن العشرين كانت مئة سنة تقريباً مضت على معرفة وتجريب النتائج الاجتماعية للمخدرات الإدمانية؛ وما يرافق الإعلان عن أي عقار جديد من فرح وتهليل وترحيب بوصفه دواء كل العلل، كان قد زال تماماً. وما تجاهله القرنان الثامن عشر والتاسع عشر أو تركاه دون تعليق، لم يعد بإمكانه أن يبقى خفياً في القرن العشرين. شبكات النقل والإعلام الآخذ بالتوسع باستمرار، نشرت المعلومات حول العقاقير والمواد المخدرة التي تحتويها (أنظر الرسم ٢٤).



الشكل (٢٤)

مدمنة على الكوكايين، لجون بويس. مع الشكر لمكتبة Fitz Hugh Ludlow.

ساعد التطور التقني على ظهور اتحادات إجرامية منظّمة، وذات فاعلية واسعة النطاق. ولكن نشوء مثل هذه الاتحادات وترسيخ أساليب حديثة في إنتاج المخدرات وتوزيعها يتطلب تغاضياً من جانب الحكومات. الإدمان المؤذي أعطى لتجارة المخدرات سمعتها السيئة. تلك الحكومات التي وقفت عاجزة في مواجهة المخدرات طيلة قرون من الزمن وجدت نفسها فجأة في إطار الدعوات الجديدة للاعتدال والإصلاح الاجتماعي، مضطرة لانتزاع هذه التجارة المثمرة من إطار التبادل التجاري العادي ووصفها بأنها نشاط غير مشروع. وهكذا صارت الحكومات تجني مواردها من المخدرات بواسطة ردود الفعل العنيفة وفي بعض الحالات يدفع لها «حتى تنظر إلى الجهة الثانية».

الحكومات والمخدرات

لم تعد الحكومات تتورط مباشرة في تجارة المخدرات أو تتولّى المسؤولية عنها، وأخذت تبتز الأموال بحجة الحماية بدلاً من الجني المباشر، مما أدى إلى ارتفاع جنوني في الأسعار. تنظيم تسعيرة المخدرات الجديدة يتيح المجال للحصول على موارد ضخمة تكفي كل الأطراف ـ الحكومات والاتحادات الإجرامية على حد سواء.

وفي الواقع ارتكز الحلّ الحديث بأن تعمل اتحادات المخدرات كوكلاء عن الحكومات فيما يتعلق بتأمين المخدرات الإدمانية. لم تعد الحكومات تستطيع أن تلعب دوراً واضحاً في عالم تجارة المخدرات وتتمسك بشرعيتها في الوقت نفسه. الحكومات المنبوذة فقط تستطيع أن تعمل دون واجهات. تفضل الحكومات الشرعية أن تترك وكالات استخباراتها لعقد الاتفاقات السرية مع مافيا المخدرات فيما يكون التوجّه الديبلوماسي الرسمي متحمساً لحل «مشكلة المخدرات». وهذه المشكلة يُعبّر عنها دائماً بأسلوب يقنع أي إنسان عاقل بأنها مستحيلة الحلّ. وتجدر الملاحظة أن أهم المناطق لانتاج المخدرات هي مناطق قبلية. الإمبرياليون الحديثون يريدوننا أن نصدق، ويبذلون جهداً كبيراً في هذا المجال، بأنهم لم يتمكنوا من السيطرة على هذه المناطق، في باكستان وبورما على سبيل المثال، حيث يزدهر إنتاج الأفيون. ويحملون المسؤولية دائماً لزعماء قبائل لا وجود لهم، ويطلقون عليهم أسماء يصعب لفظها، ويغيّرونهم باستمرار.

منذ ١٩١٤ وحتى الحرب العالمية الثانية صار توزيع المخدرات بشكل أساسي بين أيدي رجال العصابات الذين تولوا في الوقت نفسه إدارة عمليات أخرى غير مشروعة مثل البغاء وقرض المال بالفائدة وغيرها من أساليب الابتزاز. وقرار حظر الكحول في الولايات المتحدة فتح مجالاً واسعاً لانتشار المخدرات، وسمح أيضاً بالحصول على مكاسب سهلة من تصنيع الكحول بصورة غير مشروعة وبيعه بدون دفع ضرائب.

تدخّل الحكومات في أسواق المخدرات كان موجوداً في أماكن أخرى أيضاً. خلال الحرب العالمية الثانية قام اليابانيون الذين احتلوا مانشوريا بانتاج كميات كبيرة من الأفيون والهيرويين لتوزيعها داخل الصين. ولم يفعلوا ذلك بدافع الربح، كما فعل البريطانيون من قبل، بل بدافع زيادة عدد المدمنين بحيث تضعف إرادة الشعب الصيني لمقاومة الاحتلال. وخلال الستينات عمدت وكالة الاستخبارات المركزية إلى الطريقة نفسها لقمع المعارضة السياسية في تجمعات الأميركيين السود وسوّقت الأبيض الصيني رقم ٤ ـ هيرويين فائق النقاوة(٦).

المخدرات والاستخبارات الدولية

سريعاً ما لفت الإدمان المرضيّ على المخدرات الصنعية مثل الهيرويين والكوكايين اهتمام ورثة تجارة العبيد وحروب الأفيون ـ وكالات الاستخبارات الدولية وتنظيمات الشرطة السرية. هذه المجموعات الشبحية تحتاج إلى أموال غامضة المصدر لتمويل جيوشها الخاصة وخلاياها الإرهابية، وانقلاباتها، وجماعاتها المجابهة، وهذا مجال عملها. وقد تبين أن مجموعات مثل وكالة الاستخبارات المركزية وأنوبوس داي وجهاز المخابرات الفرنسية لم تستطع مقاومة التورط في عالم تجارة المخدرات والسيطرة عليه:

> يعود ارتباط مافيا الحكومة الأميركية بالمخدرات كما هو معروف إلى الحرب العالمية الثانية.إدارة الخدمات الاستراتيجية OSS واستخبارات البحرية الأميركية ONI أقامتا صلات (عن طريق لوكي لوسيانو) بالمافيا الصقلية وعصابة المخدرات تو يوهشنغ في شانغهاي (عن طريق تاي لي). وهاتان العلاقتان استمرتا حتى ما بعد الحرب العالمية(٧).

ويبقى تورط المؤسسات الشرعية على حاله مع بعض التغيرات. في أواخر السبعينات انتقل الاهتمام في أوساط المخدرات الأميركية من الهيرويين إلى الكوكايين. هذا التغيير كان في جزء منه نتيجة منطقية لهزيمة الأميركيين العسكرية في فيتنام وانسحابهم من جنوب شرقي آسيا. وتعزّز هذا التغيير مع إعلان ريغان لبرنامجه الرافض للدعم ولإرهاب المخدرات مما فتح آفاقاً جديدة للعمليات السرية.

لكن أحداً لم يفكر مسبقاً من مقدار أذى وباء الكوكايين أو انعكاسه على المجتمع. وعلى الأرجح لم يطرح أبداً السؤال التالي: ماذا ستكون نتائج تعلّق الأميركيين بالكوكايين؟ وربما كان أيضاً غير متوقع إنتاج مادة الكوكايين التي تدخن وتتميز بأنها أكثرُ فاعلية وتسبباً في

---

(٦) ألفريد و. ماك كوي: «The Politics of Heroin in Southeast Asia». نيويورك، Harper Colophon Books، ١٩٧٢.

(٧) هنريك كروغر: «The Great Heroin Coup: Drugs, Intelligence an International Fascism». بوسطن، South End Press، ١٩٨٠، ص ١٤.

الإدمان. من المحتمل أن تكون ظاهرة هذه المادة بنتيجة لحظة تقنية وصل إليها المهتمون بأبحاث الكوكايين بالصدفة. في الثمانينات صار الكوكايين أشد خطورة مما يستطيع أن يتصوره أي واحد من ضحاياه السابقين أو من الذين حاولوا التقليل من شأنه.

هذا نمط جديد ومثير للقلق في تطور التفاعل بين البشر والمخدر ـ نمط لا يمكن تجاهله. إذا كنا اليوم نواجه نوعاً من الكوكايين فائق الإدمانية، ما الذي يضمن لنا أننا لن نكون غداً في مواجهة نوع مماثل من الهيروين؟ علماً أن هذه الأنواع من الهيروين موجودة بالفعل، لكنها لحسن الحظ لا تُصنّع بسهولة مثل كراك كوكايين. أي نوع يُدخن من الميثامفيتامين يتسبب بدرجة عالية من الإدمان ظهر في أسواق المخدرات السرية؛ وستكون هناك في المستقبل مخدرات أخرى أشد أذى وخطورة من أي مخدر معروف اليوم. كيف سيتعاطى القانون والمجتمع مع هذه المسألة؟ نرجو أن لا يكون ذلك من منطلق أننا أقْوَم أخلاقاً من الآخرين ونعتبر بالتالي المدمنين مصابين بسلوك مُعيِد.

من وجهة نظر تاريخية يجب رؤية حصر توفّر المواد المخدرة كمثال معاكس لفكر السيطرة الكالفنيّ ـ نظام يُعاقب فيه المذنب في هذا العالم بتحويله إلى مستهلك مُستغَلّ، قليل الحظ، وذلك من قبل التركيبة الحكومية الإجرامية التي تؤمن المواد الإدمانية وتعاقب المدمن بتخليصه مما لديه من مال. هذه صورة تفوق فظاعة صورة الثعبان الذي يأكل نفسه ـ وهي انعكاس آخر للصورة الديونيسية، صورة المرأة التي تلتهم أولادها، صورة بيت منقسم على نفسه.

مخدرات إلكترونية

ك.ديل فيليب في روايته من الخيال العلمي: The Man in the High Castle تصوّر عالماً مختلفاً تنتهي فيه الحرب العالمية الثانية بانتصار اليابانيين والرايخ الثالث[8]. في عالم ديل الخيالي تقوم سلطات الاحتلال اليابانية بترويج الماريجوانا كخطوة أولى في سبيل تهدئة أهالي كاليفورنيا. هذا الوضع ليس أكثر غرابة مما يشير إليه العقل التقليدي بأنه «الواقع». في «هذا العالم» أيضاً طرح المتصرفون عقاراً كليّ الهيمنة وكلّي القدرة في تأثيره على البيئة الاجتماعية. هذا العقار كان الأول بين مجموعة متناهية من العقاقير ذات التقنية العالية والتي تدفع من يستخدمها إلى واقع بديل بتأثيرها المباشر على مركز الاحتساسات هي دماغه بدون إدخال مواد كيميائية إلى الجهاز العصبي. إنه التلفزيون؛ الذي لا يضاهيه أبداً أي جنون وبائي أو إدماني أو هستيرياً دينية في سرعة انتشاره أو قدرته على هداية المزيد من الناس في وقت قصير.

أقرب حالة تشبه التلفزيون في إدمانيته وتحويله للقيم في حياة المستخدم المنكب عليه، هي

(٨) فيليب ك. ديك: «The Man in the High Castle». لندن، Penguin، ١٩٦٥.

حالة تعاطي الهيروين. الهيروين يسطّح الصورة؛ من خلاله لا تعود الأشياء ساخنة أو باردة؛ ينظر المخدّر إلى العالم واثقاً من أنه مهما تكون الأحوال فهي لا تعنيه. وهم المعرفة والسيطرة الذي يوحي به الهيروين يشبه الافتراض اللاوعي لدى مستهلك التلفزيون بأن مايراه هو «واقع» في مكان ما في العالم. لكن ما يُشاهد في الحقيقة لس أكثر من الأوجه المجمّلة للمنتوجات. التلفزيون لا يقل أذى وإدمانية عن أي مخدر آخر:

على نحو مماثل للمخدرات والمشروبات الكحولية، يدفع التلفزيون المشاهد إلى إخفاء العالم الحقيقي والدخول في حالة ذهنية مفرحة وسلبية. هموم ومشكلات الواقع تتأجل عند الاهتمام بمتابعة برنامج تلفزيوني كما تتأجل عند تعاطي نوع من المخدرات أو الكحول والابتعاد عن الواقع. وكما أن المدمنين على الكحول لا يعون إدمانهم، بل يشعرون أنهم يتحكمون بإقبالهم على الشرب أكثر بكثير من واقع الحال... كذلك يبدو أن الناس يميلون إلى التباهي أكثر مما ينبغي بقدرتهم على التحكّم برغبتهم في مشاهدة التفلزيون... وأخيراً إن اهتمام أعداد كبيرة من الناس بمتابعة التلفزيون يجعله حالة إدمانية جدية. إن التعوّد على التلفزيون يشوه الإحساس بالزمن؛ ويحمل المشاهد على الظن بأن سائر تجاربه تتصف بالغموض واللاّواقعية فيما يعكس التلفزيون بالنسبة له الواقع الفعلي. كما أن التعوّد على التلفزيون يساهم في إضعاف العلاقات بين الناس لأنه يقلّل من فرص تبادل الأحاديث بصورة طبيعية وقد يلغيها أحياناً[٩].

الدافع الخفيّ

والأكثر إثارة للاهتمام من كل ما ذكرناه هو أن التلفزيون ليس مجرد صورة مرئية بل دفق من المعطيات المصنّعة قد يستخدم «لحماية» أو لفرض قيم حضارية. وبذلك نجد أننا في مواجهة مخدر إدماني كلّي التملّك يدفعنا إلى ممارسة تجربة لها رسالة مُعدّة سلفاً. هل يوجد مجال أكثر خصوبة لتعزيز الفاشية والدكتاتورية في هذا المجال؟ في الولايات المتحدة يفوق عدد أجهزة التلفزيون عدد المنازل، وهي تدار حوالي ست ساعات في اليوم، ومعدل مشاهدة الفرد لها تتجاوز خمس ساعات يومياً أي حوالي ثلث وقت يقظته. ومع أننا ندرك جميعاً هذه الأمور لكننا نبدو غير قادرين على استيعاب مقدار سلبيتها. لم تبدأ الدراسة الجدية لتأثيرات التلفزيون على الصحة والمجتمع إلاّ في وقت متأخر، على الرغم من أن الإنسان لم يعرف على مرّ التاريخ مخدراً أكثر سرعة وفاعلية من التلفزيون في عزل من يتعاطاه عن الصلة بالواقع. ولم يتمكن أي مخدر آخر أيضاً من تحقيق هذا النجاح الكلي في إعادة تشكيل القيم الحضارية التي أفسدها.

التلفزيون بطبيعته هو مخدر نظام السيطرة بلا منازع. القدرة على التحكم بالمحتوى وتماثله

(٩) ماري وين: «The Plug in Drug». نيويورك، Penguin، ١٩٧٧، ص ٢٤ - ٢٥.

وتكراره تجعل من التلفزيون أداة تفرض نفسها في غسل الدماغ والتلاعب بالأفكار. يحدث التلفزيون لدى المشاهد حالة غشية هي شرط مسبق ضروري لإنجاح عملية غسل الدماغ. وكما هي حالة سائر المخدرات والمنتوجات التكنولوجية فإن الطابع الأساسي للتفلزيون غير قابل للتغيير؛ كما أن التكنولوجيا التي تنتج البنادق الأوتوماتيكية لم تعد قابلة للتغيير.

نخبة نظام السيطرة ترى أن التلفزيون ظهر في الوقت المناسب تماماً. بعد حوالي مئة وخمسين سنة على انتشار المخدرات المصنّعة التي بدأت تظهر سنة ١٨٠٦ ساد الاشمئزاز من التدهور الروحاني الذي تسبب به تسويق المخدرات المنظم. وكالعبودية التي بدت فظيعة بالنسبة للمؤسسات التي ابتكرتها في الأساس عندما لم تعد تجدها مفيدة، كذلك أدى الانغماس في تعاطي المخدرات إلى الحطّ من شأن هذا النوع بالذات من القرصنة الرأسمالية. وهذا أدى إلى حظر المخدرات الإدمانية. لكن الأسواق السرية لترويجها ازدهرت بالطبع. حروب الأفيون لم تتوقف وسوف تعمد الحكومات إلى الضغط على حكومات وشعوب أخرى لانتاج أو بيع المخدرات ـ لكن هذه الحروب ستكون في المستقبل قذرة وسرية، ستكون «مقنعة».

فيما كانت وكالات الاستخبارات تستجمع قواها بعد الحرب العالمية الثانية لتأخذ مواقعها «السرية» بوصفها العقول المنظمة لاتحادات المخدرات الدولية، كان تفكير عامة الناس يوجّه نحو التلفزيون. قام التلفزيون بدوره من خلال التسطيح والتأليف والتبسيط وابتدع حالة حضارية في أميركا ما بعد الحرب على نسق كين وباربي. أبناء كين وباربي تخلصوا من فترة وجيزة من تخدير التلفزيون في أواسط الستينات باللجوء إلى المواد المثيرة للهلوسة. ردّ الفعل هذا أثار دهشة القيمين على نظام السيطرة الذين سارعوا في حظر المواد المخدرة وكل الأبحاث التي كانت تجري في ذلك المجال. وصفت للهيبين المنحرفين جرعة مزدوجة من التلفزيون والكوكايين وهؤلاء سرعان ما تعافوا واسترجعوا قابليتهم للتوجه الاستهلاكي. قلة من المتمردين فقط تمكنت من الإفلات من عملية التسوية هذه[١٠]. الكل تقريباً تعلموا كيف يحبون «الأخ الأكبر». وأولئك الذين لم ينساقوا لذلك مازال نظام السيطرة يقصدهم في محاولاته التي يثيرها لفهم «ما حدث في الستينات».

---

(١٠) جيري ماندر: «Four Arrangements for the Elimination of Television». نيويورك، Qiull، ١٩٧٨، ص ١٩٧.

١٧

هل تُسترد الجنة؟

١٤ ـ تاريخ المخدرات بإيجاز

منعت الحضارة الأوروبية في البداية النباتات المخدرة وتعاطيها، ثم تجاهلها الناس ونسوها. وشهد القرن الرابع حظر الديانات السرية ـ عبادة باخوس وديانا، وآتيس وسيبيل. صارت النزعة التوفيقية التي كانت ناجحة ومميزة في العالم الهلّليني صفة من معالم الماضي. إنتصرت المسيحية على المذاهب الغنوسطية الروحية كالفالنتينية والمارشيونية وغيرهما ـ التي كانت آخر معاقل الوثنية. هذه المراحل العميقة في تاريخ تطور الفكر الغربي أغلقت الباب تماماً على التواصل مع فكر «الأرض». الدين المفروض من الأعلى، وإلى جانبه فيما بعد المعرفة العلمية المفروضة أيضاً من الأعلى، صارا بديلين عن أي نوع من التجربة المباشرة مع عقل ما وراء الطبيعة.

مخدرات حضارة السيطرة المسيحية، إذاكانت نباتات أو مواد مصنّعة، صارت منبهات ومنشطات ـ مخدرات للعمل أو لقلة الاهتمام أو لتسكن الألم. العقاقير المخدرة في القرن العشرين تستخدم فقط لأهداف طبية أو استجمامية. لكن حتى العالم الغربي مازال يحتفظ بذاكرة ضئيلة عن القابلية البدائية عند بعض النباتات لإثارة النشوة.

إن استمرارية طقوس السحر خلال قرون طويلة في أوروبا، والتي تستخدم النباتات المخدرة، دليل على أن المعرفة الروحية للدخول في أبعاد موازية بتغيير كيميائية الدماغ لم تضع تماماً. نبات السحرة في أوروبا ـ الداتورة والِيبروح وعنب الثعلب ـ لم يكن يحتوي على المواد الإندولية المثيرة للهلوسة. وكان قادراً مع ذلك على إحداث حالات مختلفة من الوعي. صلة الأنثوية البدائية بالعالم السحري الذي يتصف بالجرأة والسلطة، رأتها بوضوح كنيسة القرون الوسطى ورأت طابعها التهديدي:

في القرون الوسطى كانت الساحرة لاتزال Hagazussa، تجلس على السياج الذي يلتف حول الحدائق ويفصل القرية عن البرية. كانت تستطيع المشاركة في العالمين معاً. وكما نقول اليوم كانت نصف

شيطانية. لكنها مع الوقت فقدت طبيعتها المزدوجة وتحوّلت أكثر فأكثر إلى تمثيل كل ما تنبذه الحضارة، وأعيدت بعد تشويهها إلى عالم الليل[1].

كانت هذه النباتات قاعدة الدخول إلى الأبعاد الأخرى بسبب ندرة الأنواع التي تحتوي على المواد المهلوسة في أوروبا.

المواد المهلوسة في العالم الجديد

تنتشر نباتات الهلوسة التي تحتوي على الإندول مع طقوسها في المناطق الاستوائية والمجاورة لخط الاستواء في العالم الجديد. وهي لا تتوفر على هذا النحو في المناطق الاستوائية في إندونيسيا وجنوب شرق آسيا. ما هو سبب هذا التفاوت في كثافة انتشار النباتات المهلوسة؟ لم يتمكن أحد من الإجابة على هذا السؤال. لكننا نلاحظ من الناحية الإحصائية أن العالم الجديد يبدو الموطن المفضل للنباتات المخدرة. فطر البسيلوسبين الذي يتواجد اليوم بأنواع أوروبية ضئيلة الحجم من فصيلة بسيلوسبين لم يلعب دوراً ما يبدو في الطقوس الشامانية الأوروبية أو في العقاقير الطبية القديمة. لكنه كان معروفاً في الطقوس الشامانية في المكسيك منذ ثلاثة آلاف سنة. وفي العالم الجديد أيضاً لا تزال هناك عبادات ترتكز إلى استخدام DMT (ديمثيلتريبتامين) من فصيلة البيتا ـ كاربولين التي تحتوي على الهارمين C والمركّب الشبية بالأرغوت في نبات نجمة الصباح.

نتيجة لهذا التجمّع للنباتات المهلوسة في العالم الجديد دون سواه لم يستطع العلم الغربي اكتشافها إلا في وقت متأخر نسبياً. وقد يكون هذا سبب عدم وجود المواد المخدرة في العقاقير التي كانت تستخدم في الغرب لمعالجة الأمراض النفسية. وفي تلك الأثناء، ومع التعرّف إلى تأثير الحشيش والأفيون على المخيلة الرومنطيقية، صار حلم الأفيون أو الحشيش هو المثال على مفعول «المخدرات الذهنية» الجديدة التي أذهلت الأدباء البوهيميين منذ أواخر القرن الثامن عشر. وهكذا بدأ اللجوء إلى النباتات المهلوسة في العلاج النفسي لأنها تعكس حالة الاضطراب العصبي.

في القرن التاسع عشر أخذ المستكشفون ـ الطبيعيون يعودون ومعهم تقارير إثنوغرافية لا تخلو من الدقة عن حياة الشعوب المحلية. ريتشارد سبروس وألفرد راسل والاس، الباحثان في علم النبات، جابا منطقة الأمازون في الخمسينات من ذلك القرن. في المنطقة العليا من نهر ريونيغرو شاهد سبروس مجموعة من الهنود يحضرون مخدراً غير مألوف. وعرف فيما بعد أن

---

(١) هانير يتر دوير: «Dreamtime: Concerning the Boundary Between Wilderness and Civilization». أوكسفورد، Basil Blackwell، ١٩٨٥.

العنصر الأساسي في المخدر كان نبتة متعرّشة سمّاها بانيستيريا كابي. وبعد عدة سنوات، أثناء قيامه برحلة في غرب الإكوادور رأى النبتة نفسها تستخدم في تحضير مخدر يدعى أياهواسكا[٢]. (أنظر الرسم ٢٥).

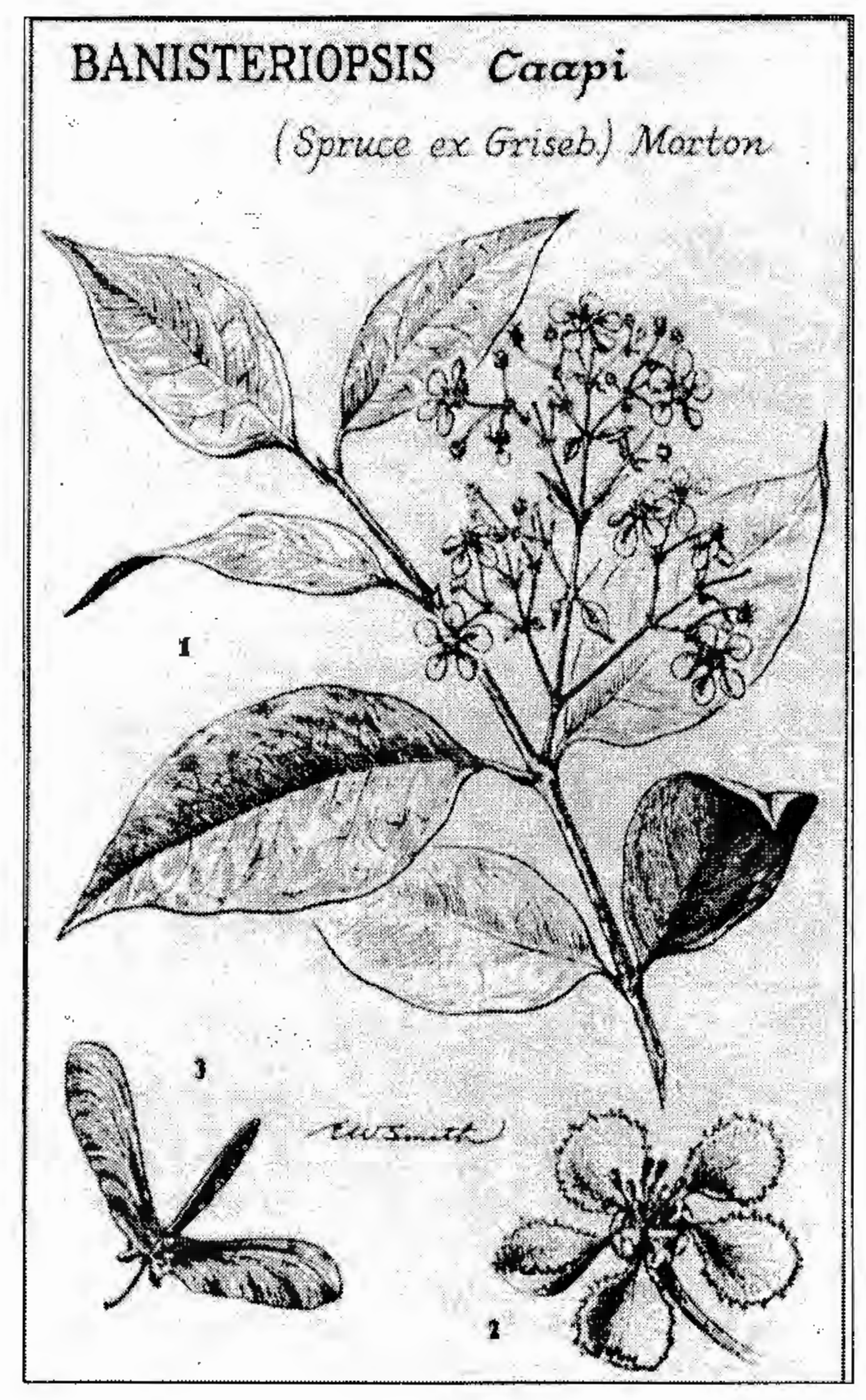
لايزال الأياهواسكا حتى اليوم يلعب دوراً فاعلاً في التقاليد الروحية للعديد من القبائل في غابة المطر في أميركا الجنوبية. والذين هاجروا إلى حوض الأمازون استخدموا الأياهواسكا أيضاً وابتكروا نظامهم النباتي الطبي الخاص الذي يرتكز إلى استخدام التهيؤات للمساعدة على الشفاء من الأمراض.

كلمة أياهواسكا من لغة كويشوا تعني بشكل تقريبي «نبيذ الأموات» أو «نبيذ الأرواح». هذه الكلمة لا تدل فقط على الشراب الذي يحضّر بل تدل في الوقت نفسه على النبتة المعترشة الخشبية العنصر الأساسي في تركيبة ذلك الشراب. وأنسجة هذه النبتة غنية بالمواد القلوية من نوع البيتا ـ كاربولين. وأهم صنف من البيتا ـ كاربولين موجود في النبتة التي تعرف اليوم باسم بانيستيريوبسيس كابي هو الهارمين. الهارمين إندول، لكنه لا يتسبب في الخدر إلاّ عند تناوله بجرعات كافية؛ وهو فيما عدا ذلك يعتبر مانعاً للأكسدة، أحاديّ الأمينية، ويستمر مفعوله لفترة قصيرة. وهكذا فإن مادة DMT التي تكون عادة غير فاعلة إذا أخذت بواسطة الفم، تصبح مخدراً قوياً إذا تم تناولها بالطريقة نفسها مع الهارمين. شعوب منطقة الأمازون تمكنت ببراعة من التوصل إلى هذه الحقائق من خلال بحثها عن وسائل للوصول إلى الأبعاد السحرية الأساسية في الشامانية[٣]. في تركيبة الأياهواسكا مزجوا النباتات التي تحتوي على DMT مع النباتات التي تحتوي على موانع الأكسدة MAO، واكتشفوا آلية المنع الأحادي الأمينية للأكسدة MAO التي لم تصفها الأبحاث العلمية العقاقيرية في الغرب قبل الخمسينات في القرن العشرين.

في ظل وجود الهارمين تصبح مادة DMT. مخدراً قوياً يدخل مجرى الدم ويتمكن لاحقاً من تجاوز هذا الحاجز ويتسرب إلى الدماغ. هذه التجربة في التسرب البطيء للـ DMT تستمر ما بين أربع وست ساعات وهي التي تهيىء متعاطي الأياهواسكا لرؤية الحقيقة السحرية والشامانية. الدراسات الأنثروبولوجية التي تدعي الموضوعية تميل إلى التقليل من شأن أهمية هذه الحالات المختلفة للوعي في تشكيل البنية الحضارية في المجتمعات القبلية في الأمازون.

(٢) ريتشارد سيروس: «Notes of a Botanist on the Amazon and Rio Negro». في مجموعة أ. ر. والاس، لندن، Macmillan، ١٩٨٠.

(٣) ريتشارد إيفانز شولتس، بحث بعنوان: «The Beta-Carboline Hallucinogens of South America». في مجلة Journal of Psychoactive Drugs, 14، عدد ٣، ١٩٨٢، ٢٠٥ ـ ٢٢٠.



الشكل (٢٥)

بانيستريوبسيس كابي، رسم إ.و. سميث من كتاب ر.إ. شولتس:
«The Botany and Chemistry of Hallucinogens». (سبرينغفليد، Charles Thomas، ١٩٧٢، رسم ٢٧، ص ١٠٤).

تجربة تناول الأياهواسكا ـ مادة DMT العضوية ممزوجة مع عريشة بانيستيريوبسيس ـ لها مزايا عديدة تجعلها مختلفة عن تجربة تدخين الـ DMT. الأياهواسكا أكثر تهدئة ويستمر مفعوله لفترة أطول. تهيؤاته تتوجه نحو العالم العضوي والطبيعي على عكس الأشكال الجبارة والغريبة عن جو عالمنا التي تترافق مع وهج الـ DMT الذي سرعان ما يتلاشى. لماذا يكون هناك اختلاف أساسي بين مركبات تبدو متماثلة من حيث التكوين؟ في الواقع صلة الأنواع المميزة من التهيؤات بالمركبات التي تستحثها لاتزال غير واضحة تماماً. في المناطق المحلية حيث تستخدم تعتبر الأياهواسكا إكسيراً شافياً لأمراض عدة وتدعى لابورغا، «الشربة». فاعليتها في القضاء على طفيليات الأمعاء مثبتة؛ وفاعليتها في الشفاء من الملاريا موضع بحث اليوم؛ وتاريخها الطويل مع الشامان وفاعليتها النفسية الجماعية ذكرها نارانجو ودوبكين دو ريوس ولونا وغيرهم[٤].

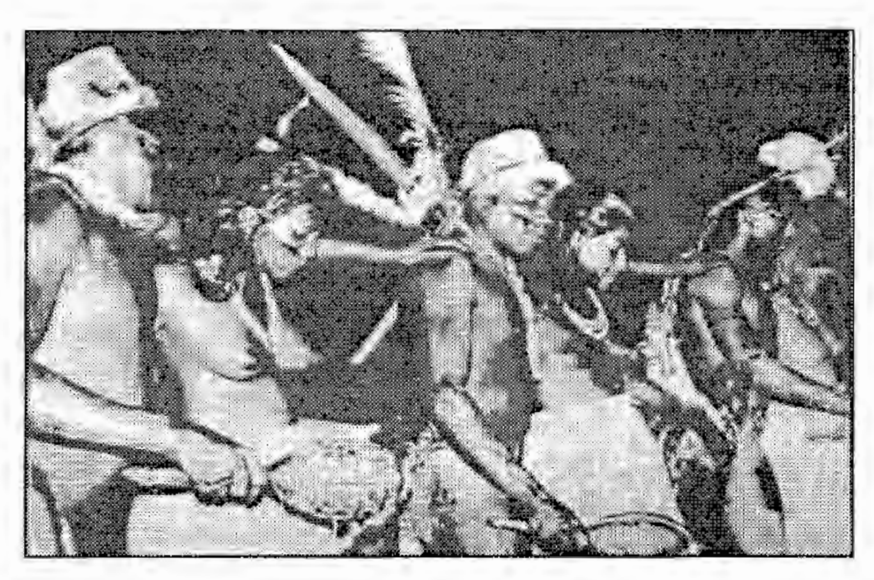
أياهواسكا

التجربة التي تستحثها الأياهواسكا تشتمل على أنسجة مطرّزة من الخيالات المرئية قابلة بشكل خاص لأن تنساق وتتوالى بفعل الغناء. لذلك فإن تراث استخدام الأياهواسكا يتضمن مجموعة كبيرة من «الإيكاروس» أو الأغاني السحرية (أنظر الرسم ٢٦). إن المستوى الذي يريد أن يحرزه متعاطي الأياهواسكا من حيث المعرفة والإتقان والتفاني يعود إلى عدد الأغاني السحرية التي حفظها. في حلقات الشفاء، المريض والمعالج يتناولان الأياهواسكا ويغنيان معاً الأغاني السحرية، ويعيشان تجربة مشتركة ذات طابع مرئي بالدرجة الأولى.

تأثير استخدام مواد الإندول المثيرة للهلوسة لفترات طويلة على الحالتين العقلية والجسدية ليس واضحاً تماماً. إن تجاربي مع سكان الأمازون أقنعتني أن من يتعاطى الأياهواسكا لفترة طويلة يتمتع بحالة صحية رائعة وينجح من الإندماج والتكامل مع الآخرين. تعليم الأياهواسكا يتضمن استخدام الصوت واقتراح توجيه الطاقة المعالجة إلى أجزاء الجسم وإلى جوانب غير معروفة في تاريخ حياة الفرد حيث يكون الضغط النفسي متمركزاً. هذه الوسائل تبدو مذهلة في موازاتها لأساليب العلاج النفسي الحديث؛ تعكس أيضاً تفهماً لوجود إمكانيات وطاقات لاتزال غير معروفة لدى النظريات العلاجية في الغرب.

---

(٤) كلوديو نارابخو: «The Healing Journey: New Approoches to Consciousnes». نيويورك، Ballantine، ١٩٧٣؛ مارلين دوبنك دو ريوس: «Visionary Vine: Psychedellic Healing in the Peruvian Amazon». سان فرنسيسكو، Chaudler، ١٩٧٢؛ لويس إدواردو لونا: «Vegetalismo: Shamanism among the Mestizo Population of the Peruvian Amazon». ستوكهولم، Alquist & Wiskell، ١٩



الشكل (٢٦)
طقس أياهواسكا عند التوكانو في منطقة في الأمازون الكولومبية. مع الشكر لمكتبة Fitz Hugh Ludlow.

إن الأكثر إثارة للاهتمام من بين الأمور التي يطرحها هذا الكتاب هي ما يروج باستمرار عن حالات التفكير الجماعي أو التخاطر التي تعرفها الشعوب القبلية الأقل احتكاكاً بالمجتمعات الأكثر تقدماً. نزوعنا نحو الشك والتجريب يدفعنا إلى رفض ذلك بوصفه مستحيلاً، لكننا يجب أن نفكر مرتين قبل أن نتسرّع. إن الدرس الأساسي الذي يجب أن نتعلمه من تجربة التخدير هو إلى أي مدى جعلتنا القيم الحضارية غير المدروسة حدود اللغة سجناء، عن غير قصد، للفرضيات التي نطلقها. إنه لأمر يستدعي الانتباه إنه حيث عرفت المواد المثيرة للهلوسة في مختلف أنحاء العالم كان استخدامها يترافق مع اكتساب معرفة الشفاء السحري والتجرد الذاتي. وتشير التقارير بوضوح إلى انخفاض معدل الإصابة بأمراض عقلية خطيرة بين أفراد هذه الشعوب.

بداية العلاج النفسي بالعقاقير

إن اهتمام الباحثين في مجال العقاقير السيكولوجية في عصرنا الحديث باستخدام الشعوب القديمة للنباتات المثيرة الهلوسة لم يمر عليه وقت يذكر. إنه يعود لحوالي مئة سنة تقريباً، إلى الجولة التي قام بها عالم الأدوية الألماني لويس لوين في الولايات المتحدة الأميركية.

عند عودته إلى برلين سنة ١٨٨٧، حمل لوين معه مجموعة من براعم البيّوت، وهو نوع من الصبّار الأميركي يحتوي على مادة مخدرة، وقد حصل عليها عن طريق شركة بارك ـ دايفيس خلال إقامته في ديترويت. وبدأ أبحاثه باستخراج ما فيها من مركبات وتجريبها بنفسه. بعد

حوالي عشر سنوات شاع أمر هذا الصبّار حتى أن الطبيب والكاتب سايلاس واير ميتشيل كان أول أميركي وصف سنة ١٨٩٧ تخدير البيّوت:

كانت الحالة التي امتدت طوال ساعتين سحريتين أبعد من قدرتي على وصفها والتعبير عن جمالها وروعتها. نجوم... ضباب شفاف من الألوان... ثم اندفاع مفاجىء لنقاط ضوئية بيضاء لا تُحصى غطت حقل الرؤية، كما لو أن ملايين النجوم غير المرئية في المجرة اللبنية تدفقت في نهر متألق... خطوط متعرّجة مشرقة الألوان... مزيد من الألوان الرائعة تلاشت مثل أن أستطيع تسميتها. وللمرة الأولى بدأت تظهر أشياء محددة في هذا الإطار من الألوان. رمح حجري أبيض وصل الى ارتفاع شاهق وصار برجاً قوطياً ذا بناء متقن وواضح المعالم، تزينه مجموعة من التماثيل البالية إلى حد ما وذلك أمام الأبواب وعلى الرفوف الحجرية. رحت أحدّق في كل زاوية وإفريز. وحتى في الحجارة التي كانت عند تلاقيها مغطاة أو معلقة بحلقات بدت مصنوعة من حجارة ثمينة ضخمة، كأنها كتل من الفاكهة الشفافة(٥).

ملذّات الميسكالين

سنة ١٨٩٧ تمكن آرثر هيفتر، وهو منافس لِ لوين، من عزل وتناول الميسكالين الصافي. والميسكالين مادة مخدرة قوية موجودة في صبّار البيّوت Lophophora Williamsii. عرف هنود المكسيك هذه المادة واستخدموها منذ بضع مئات من السنين على الأقل. وهي معروفة في البيرو أيضاً حيث تستخرج من أنواع مختلفة من الصبّار منذ آلاف السنين.

هافلوك إليس، عالم النفس ومن الباحثين الأوائل في علم الجنس، الذي كان يتبع خطى واير ميتشيل، سرعان ما قدّم وصفه الخاص لملذات الميسكالين:

لم تكن التهيؤات تشبه أشياء مألوفة؛ كانت واضحة للغاية، لكنها في الوقت نفسه جديدة؛ تقترب وتبتعد باستمرار من التشابه مع الأشياء التي نعرفها. رأيت حقولاً عظيمة من المجوهرات، التي ظهرت بمفردها أو في أكوام، والتي كانت تشعّ وتتألف أحياناً، أو تتوهج ببريق فاتر. ثم كنت أراها تتحول إلى أزهار، أو تتخذ أشكال فراشات رائعة، أو تصبح ثنايا لا متناهية في أجنحة حشرات قزحية لمّاعة... أشكال هائلة، ومشاهد مذهلة... يبدو لنا أنه لا وجود لأي نمط محدد للتهيؤات المختلفة في المراحل المتتالية في حالة التخدّر بالميسكالين، فهذه عملية اعتباطية. الصفة الوحيدة التي نستطيع أن نطلقها على سياق توالي التهيؤات هي أن هذه التهيؤات تكون في البداية ذات طابع بسيط ثم تزداد تعقيداً(٦).

كان الميسكالين بالنسبة لمجربيه أكثر فاعلية من الحشيش أو الأفيون. وبدأت هذه المادة تلفت

---

(٥) مذكور في كتاب أ. هوفر وهـ. أوزموند: «The Hallucinogens». نيويورك، Academic Press، ١٩٦٧، ص ٨.
(٦) المصدر نفسه، ص ٩.

انتباه السورياليين وعلماء النفس الذين شاركوا بدورهم في رؤية صور خفية ومدهشة من أعماق «اللاّوعي» الذي عرّف مؤخراً. كان الدكتور كيرت بيرنجر أول من طرح فكرة التخدير في العلاج النفسي، وهو تلميذ لوين ومن أصدقاء هيرمن هيسّة وكال يونغ. دراسته الفينومينولوجية شدّدت على وصف التهيؤات الداخلية. أجرى مئات التجارب على أفراد تعاطوا الميسكالين ونقل شهاداتهم المذهلة:

ثم عدت إلى الغرفة المظلمة ثانية. ملامح البناء المذهلة استحوذت عليّ، ممرات لامتناهية على الطراز المغربي تتحرك كأنها أمواج تتدفق بصور مختلفة لأشكال غريبة. كان رسم صليب يتكرّر باستمرار ويتخذ أشكالاً لامتناهية. وعلى نحو متواصل كانت تظهر الخطوط المركزية للزخرفة وتسعى كأنها ثعابين أو تمتد كأنها ألسنة نحو الجوانب، لكن دائماً في خطوط مستقيمة. كتل الكريستال كانت تظهر باستمرار، في أشكال وألوان مختلفة. ثم تصبح المشاهد أكثر ثباتاً، ويتكوّن ببطء نظامان كونيان بينهما فاصل ما يقسمهما إلى نظام علوي وآخر سفليّ؛ ينبعث منهما نور خاص بهما ويمتدان في فضاء لا نهائي. أشعتهما الداخلية ذات الألوان البرّاقة بدأت تكتمل وتتخذ شكل الموشور المستطيل اللمّاع. وفي الوقت نفسه أخذا يتحركان. اقترب النظامان من بعضهما البعض وتجاذبا وتنافرا[٧].

سنة ١٩٢٧ أصدر بيرينجر مؤلفه الضخم Der Meskalinrausch، الذي ترجم إلى الإسبانية، ولم يترجم حتى اليوم إلى الإنكليزية. إنه عمل خلاّق، كان بمثابة خطوة أولى على طريق ترسيخ علم البحث العقاقيري. وفي السنة التالية صدر كتاب هاينريك كلوفر بالإنكليزية: Mescal, The Divine Plant and Its Psychological Effects.

اعتمد كلوفر في كتابه هذا إلى ملاحظات واير ميتشل وهافلوك إيليس وأعاد طرح فكرة العقاقير المثيرة للتهيؤات أمام العالم الذي يتحدث بالإنكليزية. والبارز في عمل كلوفر أنه أخذ على محمل الجد ما أثارته لديه التجارب من هلوسة وكان أول من حاول إعطاء وصف فينومينولوجي لتجربة التخدير:

سحب تدافعت من الشمال إلى اليمين عبر حقل الرؤية. ذنب طائر تدرج (وسط الحقل) تحوّل إلى نجمة صفراء برّاقة؛ والنجمة تحولت إلى ذرّات. تحرك مسمار وأطلق شرراً؛ مئات المسامير تحركت. توالى ظهور أشياء متغيّرة سريعة ذات ألوان جميلة. دولاب دار (قطره حوالي سنتميتر واحد) وسط أرض فضية. فجأة برزت صورة الرب كما تبدو في الرسومات المسيحية ـ تصميم على رؤية حقل مظلم متجانس. ظهرت أحذية حمراء وخضراء. معظم هذه الظواهر بدت أقرب من مسافة القراءة[٨].

(٧) المصدر نفسه، ص ٧.

(٨) هاينريك كلوفر: «Mescal: The Divine Plant and Its Psychological Effects»، لندن، Kegan Paul، ١٩٢٨، ص ٢٨.

فترة إحياء حديثة

يعود البحث في مواد الإندول المثيرة للهلوسة إلى العشرينات من هذا القرن. شهدت ألمانيا حملة إحياء فعلية في مجال البحث في العقاقير السيكولوجية. في هذا الجو السائد أبدى لوين وغيره اهتماماً بالهارمين، وهو إندول كان يُعتقد أن مصدره الوحيد هو بانيستريوبسيس كابي، النبتة المعترشة التي تعرّف إليها ريتشارد سبروس قبل حوالي ثمانين سنة، وفي كتابه الأخير عبّر لوين عن إعجابه بهذه النبتة، والكتاب الذي حمل عنوان Banisteria Caapi, ein neues Raushgift Und Heilmittel صدر سنة ١٩٢٩. حماس لوين ورفاقه أمر يمكن فهمه: الباحثون الإثنوغرافيون أمثال الألماني ثيودور كوخ ـ غرونبيرغ، عادوا من الأمازون بأخبار عن قبائل تستخدم عقاقير نباتية تستحث التخاطر وذلك من أجل تنظيم مجتمعاتها على أحسن صورة. سنة ١٩٢٧ تمكن الكيميائيان إ. بيروت وم. رايموند ـ هامت من عزل العنصر الفاعل في بانيستريوبسيس كابي وسمياه تلياثين. وبعد بضع سنوات، تحديداً سنة ١٩٥٧، أدرك الباحثون أن التلياثين مماثل للهارمالين الذي يستخرج من بيغانوم هارمالا، وصار اسم الهارمين يستخدم بدلاً من تلياثين.

وفي الثلاثينات من هذا القرن أخذ الحماس الذي أثارته مواد الهارمالا القلوية يفتر شيئاً فشيئاً، وكذلك فَتُر أيضاً الإهتمام بدراسة العقاقير عند الشعوب القديمة. لكن تظل هناك حالات استثنائية.

بلاس بابلو ريكو من أصل نمساوي ولد باسم بلاسيوس باول ريكو، هاجر إلى المكسيك وكان متعدد الاهتمامات. أسفاره العديدة حملته إلى الولايات المتحدة والإكوادور وأخيراً إلى المكسيك حيث تركزت أبحاثه في علم النبات عند الشعوب القديمة وكذلك المعرفة الفلكية البدائية، أي دراسة ملاحظات الحضارات القديمة ومواقفها من النجوم والكواكب. راقب ريكو بدقة كيف يستخدم السكان المحليون الذين عاش بينهم النباتات المختلفة. سنة ١٩١٩، كتب ردّاً على مقالة لويليام سافّورد جاء فيه أن شامان شعبي الميكستيك والمازتيك مازالوا يستخدمون الفطر المثير للهلوسة وليس صبّار البيّوت، في طقوسهم لإحداث التهيؤات[٩]. وسنة ١٩٣٧ أرسل ريكو إلى هندي واسّين، وهو باحث إثروبولوجي وأمين المتحف الإثنوغرافي في غوتنبيرغ في السويد، رزمة تحتوي على نموذجين من النبات وجدهما ريكو مثيرَين للاهتمام. إحتوى النموذج الأول على مجموعة من بذور نجمة الصباح من

(٩) أنظر فيكتور أ. ريكو في: «Magishe Gife, Raush-und Betäubungsmittel der neuem Welt». برلين، Express Edition، ١٩٨٧.

فصيلة إيبوموبا فيولاسيا التي تحتوي على مادة مهلوسة قريبة من إل إس دي.

أما النموذج الثاني، فقد احتوى على جزء شبه متآكل من Teonanácatl، أول فطر فيه بسيلوسبين يجذب الاهتمام العلمي. وهكذا وضع ريكو أسس دراسة المواد المهلوسة في نبات المكسيك وقاد عمليتي البحث والاكتشاف؛ وقد تابعهما من بعده ألبرت هوفمان الكيميائي السويسري، الذي استطاع تصريف المادتين المخدرتين في مختبره.

همسات عن فطر جديد

ريكو حصل على الفطر من روبرتو وايتلندر، مهندس أوروبي يعمل في المكسيك. وفي السنة التالية، سنة ١٩٣٨، شارك وايتلندر مع ابنته والأنثروبولوجي جان باسيت جونسون في احتفال تعاطي الفطر الذي يستمر ليلة بكاملها ويدعى فيلادا، وكانوا بذلك أول مجموعة من البيض تشاهد هذه الطقوس.

قدّم واسين فيما بعد عيّنات ريكو إلى هارفارد، حيث لفتت انتباه الباحث في علم النبات القديم ريتشارد إيفانز شولتز. كان شولتز طالباً في كلية الطب إلى أن اطّلع على مؤلف كلوفر حول الميسكالين. ظن شولتز أن عيّنة الفطر من نوع تيوناناساتل الغامض الذي وصفه المؤرخون الإسبان. وقام بمعاونة طالب في قسم الأنثروبولوجيا في جامعة بال يدعى ويستون لابار بنشر تقرير عن صحة كون التيوناناساتل فطراً مخدراً.

في السنة التالية زار شولتز برفقة ريكو قرية هوالتا دو جيمينيز. في مرتفعات سييرا مازاتيكان. هناك قاما بجمع عينات جديدة من الفطور المخدرة وقدماها إلى مختبرات هارفارد. لكن أواخر الثلاثينات لم تكن فترة مناسبة للخوض في الأبحاث لذلك فإن هذه المجالات توقفت فيما كانت القوى العظمى تعدّ العدة للدخول في الحرب العالمية الثانية. ريكو تقاعد، وحين كان اليابانيون يعززون قبضتهم على مزارع المطاط في مالايا قبل شولتز عرضاً بالتوجه إلى حوض الأمازون لدراسة إمكانية استخراج المطاط لصالح إدارة الخدمات الاستراتيجية في حكومة الولايات الأميركية. لكنه أصدر قبل ذلك، سنة ١٩٣٩، كتاباً عنوانه: The Identification of Teonanacatl, a Narcotic Basidio mycete of the Aztecs(10).

وفي كتابه هذا قدّم تحليلاً صحيحاً لمشكلة غامضة كانت لا تزال موضع مناقشة بين الباحثين في شؤون أميركا الوسطى.

---

(١٠) ريتشارد إيفانز شولتز: «Plantae Mexicanae II: The Identification of Teonaná Catl a Narcotic Basidiomycete of the Aztecs». في Botanical Museum Leaflets of Harvard University، ١٩٣٩، ٧: ص ٣٧ ـ ٥٤.

إبتكار مادة إل إس دي

فيما كانت الأضواء آخذة في الخفوت في أوروبا برز حدث هام. سنة ١٩٣٨ كان ألبرت هوفمان منهمكاً في أبحاثه في مختبرات ساندوز في بازل في سويسرا. كان هوفمان يأمل في التوصل إلى عقار جديد يخفف من آلام الولادة. وفيما كان هوفمان يشتغل بالمواد المقلّصة للأوعيـة الدموية المستخرجة من الأرغوت، تمكن من تركيب أسيد دايثيلاميد طرطرات ـ LSD-25. اكتفى هوفمان، الباحث المتواضع، بتدوين عملية التركيب ووضع المركّب جانباً دون تجريبه. ظلّ المركّب في المخزن محاطاً بأوروبا النازية خمس سنوات، كانت الأكثر دماراً في تاريخ الإنسانية. من المثير للخوف أن نتصور بعض النتائج المحتملة لو أن اكتشاف هوفمان عُرف قبل وصول الحرب إلى تلك المرحلة.

ربما كان ألفريد جاري يتوقع الحدث العظيم ويشير إليه عندما كتب: «The Passion Considered as an Uphill Bicycle Race»[11] عام ١٨٩٤. الدادائيون والسورياليون ومن سبقوهم التفوا حول «جاري» ومدرسته واستفادوا الكثير من محاولات اكتشاف فوائد الحشيش والميسكالين لتعزيز تعبيرهم الإبداعي. هؤلاء هيأوا الأجواء لوعي المجتمع لمادة إل إس دي. كل متحمس لهذه المادة يعرف ما حدث يوم ١٦ نيسان/أبريل سنة ١٩٤٣، عندما انتاب البرت هوفمان إحساس غريب وكان المخدر قد تسرّب إلى جسمه لأنه أمسك المادة الكيميائية دون قفاز، فترك عمله باكراً وركب دراجته وأخذ يجوب شوارع بازل:

> كنت مجبراً على ترك عملي في المختبر في فترة مبكرة من بعد الظهر والتوجه إلى البيت، بعدما أصبت بحالة قلق وشيء من الدوار. استلقيت على فراشي وغصت فيما يشبه حالة التخدّر الحالم المزعجة، والتي تميزت بخصوبة ملفتة للمخيلة. في هذه الحالة الشبيهة بالحلم، وعيناي مغمضتان (بدا لي ضوء النهار مزعجاً) شاهدت سيلاً متدفقاً من الصور والأشكال الرائعة في إطار من الألوان الأخّاذة. بعد حوالي ساعتين زالت تلك الحالة[١٢].

صندوق بيندورا ينفتح

وأخيراً بدأت سنة ١٩٤٧ أخبار اكتشاف هوفمان تنتشر حول تلك المادة المخدرة الفاعلة على مستوى الميكروغرام. ومع هدوء الأوضاع في الخمسينات فُتح صندوق بندورا.

---

(١١) ألفريد جاري: «Selected Works of Alfred Jarry, Roger Shattunk and Simon Watson Taylor eds.»، نيويورك، Grove Press، ١٩٦٥.

(١٢) ألبرت هوفمان: «LSD My Problem Child». لوس أنجلس، Tarcher، ١٩٨٣، ص ١٥.

سنة ١٩٥٤ كتب ألدوس هاكسلي The Doors of Perception، عن المثقف الأوروبي المندهش من إدراك الأبعاد الحقيقية للوعي والكون:

ما نراه نحن فقط تحت تأثير الميسكالين الفنان مُعَدّ لرؤيته في كل وقت. بصيرته ليست محدودة في إطار ما هو نافع بيولوجياً أو اجتماعياً فقط. قليل من معرفة العقل الكلّي يتسرّب عبر فتحة الدماغ والأنا ويصل إلى وعيه. إنها معرفة عن المغزى الفعلي لكل وجود. بالنسبة للفنان، ولمن تعاطى الميسكالين، الستائر هي حروف هيروغليفية حيّة تجسد بطريقة غريبة معنى لغز وجودنا غير المفهوم. ملساء أكثر من الكرسي، وقد تكون أقل من نتلك الأزهار السماوية، ثنيات بنطلوني الرمادي كانت مشبعة بحالة «الكونية». لمن هي مدينة بهذه الحالة المميزة، لا أعرف[١٣].

سنة ١٩٥٦ قام الكيميائي التشيكوسلوفاكي ستيفن زارا بتركيب مادة دي إم تي، ديمثيل تريبتامين. وتظل هذه المادة هي الأقوى والأسرع بين المواد المثيرة للهلوسة. عندما يدخن الـ DMT يصل التخدّر إلى ذروته في غضون دقيقتين تقريباً، ويخمد خلال عشر دقائق. لكن حقن الـ DMT يجعل المفعول يستمر لفترة أطول. وهذا ما رواه الباحث:

في الدقيقة الثالثة أو الرابعة بعد الحقنة تبدأ عوارض الخمول، التي تترافق مع الإحساس بالوخز الخفيف والرعشة وقليل من الغثيان وتمدّد الحدقتين، وارتفاع ضغط الدم وزيادة سرعة النبض. وتبدأ في الوقت نفسه ظاهرة التهيؤات، وهلوسة التخدير، وتتوالى من بعدها الهلوسة الفعلية. في المرحلة الأخيرة تتدفق أشكال شرقية ذات ألوان برّاقة، وفي النهاية رأيت مشاهد رائعة كانت تتبدل بسرعة مذهلة[١٤].

بعد حوالي سنة، في أيار/مايو ١٩٥٧، كتب غوردن وفالنتينا واسون مقالتهما الشهيرة في مجلة لايف، التي أعلنا فيها عن اكتشاف مركّب فطر البسيلوسبين. هذه المقالة إلى جانب غيرها من النصوص التي نشرت حول هذا الموضوع، أقنعت الناس بأن النباتات قد تتسبب بتهيؤات غير اعتيادية. واسون الذي كان يعمل في القطاع المصرفي في نيويورك ويعرف جيداً أصول التعامل مع الرأي العام، لجأ إلى صديقه هنري لوس، الذي يملك مجلة لايف، عندما أراد منبراً عاماً للإعلان عن اكتشافه. كان طابع المقالة متناقضاً تماماً مع جو الهستيريا والتشويه اللذين سيطرا على الأوساط الأميركية فيما بعد. عالجت المقالة الموضوع بصدق وتفصيل وانفتاح علمي.

ألبرت هوفمان أكمل بعض النواحي الكيميائية الناقصة في اكتشاف واسّون، وتلاه من حيث الأهمية في تاريخ صناعة العقاقير المخدرة وذلك بعزله للبسيلوسبين وتحديد تركيبته الكيميائية سنة ١٩٥٨.

---

(١٣) ألدوس هاكسلي: «The Doors of Perception». نيويورك، Harper، ١٩٥٤، ص ٣٣.

(١٤) ستيفن زارا: «Psychotropic Drugs». في مجموعة س. جاراتيني وف. غيتي (أمستردام، Elsciver، ١٩٥٧، ص ٤٦٠.

خلال حوالي اثنتي عشرة سنة، ما بين ١٩٤٧ و١٩٦٠، كان الباحثون قد توصلوا إلى تنقية معظم المواد الإندولية المثيرة للهلوسة وتحديد خواصّها. وليس من قبيل الصدفة أن العقد التالي كان الأكثر اضطراباً في تاريخ أميركا منذ مئة سنة.

إل إس دي والستينات

كي نفهم دور المخدرات في الستينات يجب أن نسترجع ذاكرة التاريخ القديم واهتمام الإنسان بتذويب الحدود بينه وبين الآخرين في طقوس جماعية تعتمد على تناول نباتات مثيرة للهلوسة. إن تأثير هذه المواد نفسي بالدرجة الأولى ولا يخضع لشروط حضارية إلاّ بشكل جزئي؛ هذه المواد تعمل في الواقع على تذويب كافة الشروط الحضارية. إنها تستحث عملية تغيير القيم الجماعية، ويجب أن تُعرّف بأنها عوامل لإزالة الشروط المهيمنة؛ إنها حين تكشف نسبية القيم التقليدية تصبح قوى حاسمة في الصراع السياسي للسيطرة على تغيّر الصور الاجتماعية.

كان من نتائج الطرح المفاجىء لعامل فاعل مثل إل إس دي، إحداث ردّة جماعية عن القيم السائدة، خصوصاً تلك القيم التي تستمد من نظام السيطرة الذي تعوّد كبت الوعي والإدراك.

يتميز إل إس دي عن سائر المخدرات بقوة فاعليته. تظهر آثار المخدر في جسم الإنسان الذي تعاطى جرعة من خمسين ميكروغرام، أو ٥/١٠٠,٠٠٠ من الغرام. وليست هناك مواد أخرى معروفة تحدث أثراً من جرعة أقل من هذه. وهذا يعني أننا نستطيع نظرياً الحصول على عشرة آلاف جرعة، كل واحدة مئة ميكروغرام، من غرام واحد صاف من هذه المادة. نسبة كمية الجرعة إلى قيمتها في السوق تفسر أكثر من أي جانب آخر سرعة انتشار المخدر وحظره لاحقاً. ليس للمخدّر لون أو رائحة ويمكن مزجه مع السوائل؛ مئات الجرعات يمكن إخفاؤها تحت طابع بريدي. لم تكن جدران السجون ولا حتى حدود الدول تشكل عائقاً لانتشار إل إس دي. قد يُصنّع من أي مكان تتوفر فيه التقنية الضرورية ويوزّع بسرعة. ملايين الجرعات يصنّعها عدد قليل من الناس. نمت أسواق هرمية حول مصادر التصنيع وتلتها الاتحادات الإجرامية التي مهّدت لظهور الفاشية.

لكن إل إس دي ليس مجرد سلعة ـ إنه سلعة تذيب الآلية الاجتماعية التي تتحرك من خلالها. هذا الواقع كان السبب في فشل كل المحاولات لاستخدام هذا المخدر كوسيلة لترويج برنامج سياسي.

هذا العامل السيكولوجي الرافض يحدث بالضرورة نفوراً من أي برنامج سياسي. عندما أدركت ذلك مختلف الأحزاب التي حاولت السيطرة على الوضع، اتفقت فيما بينها على أمر

واحد ـ ضرورة حظر المخدّر. أما كيفية التنفيذ ومَنْ سيقوم بذلك فقد تولّى شرحها جاي ستيفنز في دراسته: «Storming Heaven» ومارتن لي وبروس شلاين في دراستهما: «Acid Dreams»[١٥]. أوضح هؤلاء الباحثون أن الوسائل التي استخدمتها الامبراطوريات الاستعمارية لترويج الأفيون بنجاح في القرن التاسع عشر تبنّتها وكالة الاستخبارات المركزية لتطويع الحالة الأميركية الداخلية خلال حرب فيتنام حتى كادت تزعزع البنية النفسية الاجتماعية بأسرها.

قال لين وشلاين:

وصل استخدام الشباب في الولايات المتحدة الأميركية لمخدر إل إس دي إلى ذروته في الستينات، بعد فترة قصيرة من إطلاق وكالة CIA لعدة عمليات تهدف إلى تقويض أسس اليسار الجديد والتقليل من شأنه تمهيداً للقضاء عليه. هل هي مجرد صدفة تاريخية أم أن الوكالة اتخذت بالفعل خطوات لترويج تجارة الأسيد المعروف؟ لا عجب أن الناطقين باسم الوكالة يستبعدون تماماً هذه الفكرة. ريتشارد هيلمز المسؤول السابق عن الوكالة قال في تصريح له أمام الجمعية الأميركية لناشري الصحف سنة ١٩٧١: «نحن لا نستخدم المواطنين الأميركيين كأهداف، يجب على أمتنا أن تكون واثقة من أننا نحن الذين نتولى قيادة الـ «CIA»، رجال شرفاء نتفانى في سبيل خدمة بلادنا».

لكننا نجد تصريح هيلمز بالكاد مطمئناً خصوصاً في إطار الدور الذي لعبه في إطلاق عملية MK-ULTRA، التي استخدمت بعض الأميركيين دون أن يعرفوا، كمجال لتجريب مخدر إل إس دي وغيره من المواد ذات التأثير المباشر على مستوى الوعي.

وكما تبين لاحقاً، فإن كل مخدر تقريباً ظهر في السوق السوداء خلال الستينات ـ الماريجوانا والكوكايين والهيروين وبي سي بي PCP وأميل نايترايت والفطور ودي إم تي والبربيتوريت والغاز المضحك... كان يخضع مسبقاً للفحص والتدقيق من قبل أخصّائيين في الوكالة وقيادة الجيش، وفي بعض الأحيان كان هؤلاء يتولون تنقيته أيضاً. ومن بين كل الوسائل التي درستها الوكالة خلال حملتها التي استغرقت خمساًوعشرين سنة وكلّفت مئات الملايين من الدولارات واستهدفت محاولة السيطرة على العقل البشري، لم يسترع انتباهها أو يحفّز حماسها أكثر من مادة LSD-25. ظلّ المسؤولون في الوكالة لفترة من الزمن مفتونين بتلك المادة المهلوسة. أولئك الذين جرّبوها في بداية الخمسينات كانوا مقتنعين من أنها سوف تحدث ثورة في عالم التجسّس. وخلال فترة تولّي هيلمز مسؤولية القيادة، خاضت الوكالة حملة كبيرة غير شرعية ضد الحركات المعادية للحرب وغيرها من عناصر الانشقاق في الداخل[١٦].

ونتيجة لحملة هيلمز الناجحة كان اليسار الجديد في حالة تشتت عندما تقاعد هيلمز من

---

(١٥) جاي ستيفنس: «Storming Heaven: LSD and the American Dream». نيويورك، Grove Press، ١٩٨٥.
(١٦) لي وشلاين، (نافذ)، ص xxi.

الوكالة سنة ١٩٧٣. معظم الملفات التي تعلّقت ببرامج الوكالة المختصة بالمخدرات والتحكّم العقلي أتلفت بناء على أوامر هيلمز قبل فترة من تقاعده. كانت الملفات تُمزّق بسبب «مشكلة الحصول على الورق» كما ادعى الدكتور سيدني غوتليب المسؤول عن دائرة الخدمات التقنية في الوكالة. وضاعت في هذه العملية ملفات عديدة تتعلق باستخدام المخدرات الكثيرة للهلوسة لتنفيذ غايات محددة، ومنها جميع النسخ المدوّنة يدوياً من ملف مصنّف تحت عنوان: «إل إس دي: بعض الجوانب غير التخديرية»(١٧).

كانت تلك المرحلة استثنائية، ومما زاد في خصوصيتها أوهام أولئك الذين حاولوا السيطرة عليها. نستطيع القول أن الستينات شهدت صراعاً بين توجهين في نشر المخدرات كادا يصلان إلى حد التصادم. في الجانب الأول كانت هناك الاتحادات الدولية لتسويق الهيرويين التي حاولت تخدير تجمعات السود الأميركيين، واستحالة الطبقة المتوسطة لدعم المغامرة العسكرية. وفي الجانب الثاني كانت هناك الاتحادات الإجرامية المستقلة التي صنّعت ووزعت مئات الملايين من جرعات إل إس دي وخاضت حملة واسعة النطاق لتعزيز سيطرتها في هذا القطاع.

وفي نهاية تلك المرحلة سادت حالة من التحفّظ. إنتهت الحرب في جنوب شرق آسيا بهزيمة كبيرة للمؤسسة العسكرية الأميركية، ولم يبق في الوقت نفسه أثر للطروحات الطوباوية حول المخدرات. حُظرت جميع العقاقير المخدرة حتى تلك التي كانت بالكاد معروفة مثل إيوجين وبوفوتنين. كان الغرب في تلك الفترة يمر في مرحلة إعادة بناء للقيم؛ خلال السبعينات والثمانينات سادت الرغبة في التنكّر لأثر الستينات واتخذت ما يشبه طابع الهاجس العام. ومع نهاية السبعينات. صار برنامج الإدارة الجديدة أكثر وضوحاً: بعدما فقد الهيرويين معظم سحره، يستوعب التلفزيون حياة الفقراء ويترك الكوكايين للأثرياء.

في نهاية الستينات كانت الأبحاث في مجال المخدرات ممنوعة ليس في الولايات المتحدة فقط، بل في كافة أنحاء العالم. وذلك على الرغم من الحماس الشديد الذي أحدثته الاكتشافات بين علماء النفس والطلاب الذين كانوا يدرسون السلوك البشري؛ حماس كان يوازي ما عرفته الأوساط الفيزيائية عند اكتشاف إنقسام الذرة القابلة للاستخدام في إعداد أسلحة للتدمير الشامل تستحوذ على اهتمام المؤسسة المسيطرة، اعتبرت تجربة التخدير هاوية سحيقة لا أمل في النجاة منها.

فترة القمع هذه سادت على الرغم من أن عدداً من الباحثين كان يستخدم مادة إل إس دي

(١٧) المصدر نفسه، ص ٢٨٦.

لعلاج حالات كانت تعتبر غير قابلة للعلاج. أبرام هوفر وهامفري أوزموند كنديان متخصصان في الطب النفسي وضعا جدولاً بنتائج إحدى عشرة تجربة منفصلة عن الإدمان على الكحول وتوصلا إلى أن ٤٥ في المئة من المدمنين الذين عولجوا بمادة إل إس دي تحسنت حالتهم[١٨]. وحصل أيضاً على نتائج واعدة في محاولة علاج الشيزوفرينيا، والتوحّد عند الأطفال، والانهيار العصبي الشديد. معظم النتائج ظهرت بعد إعلان حظر استخدام إل إس دي، ولم يتم الإعداد لاختبارات أفضل ولم يعد هناك مجال للاستمرار في هذا العمل لأنه مخالف للقانون. مُنع الطب النفسي من استخدام إل إس دي لعلاج الألم والإدمان والتعلق بالكحول والانهيار العصبي وذلك لأجل غير مسمى[١٩]. وبذلك انتقلت مهمة تطوير معرفتنا بالنباتات المهلوسة إلى مجال علم النبات المتواضع.

ريتشارد شولتز والمواد المثيرة للهلوسة في النباتات

محور ذلك التغيّر الهادىء في علم النبات رجل واحد: ريتشارد إيفانز شولتز ـ شولتز الذي لم يستطع مواصلة أبحاثه بسبب الحرب العالمية الثانية. عاش شولتز أكثر من خمس عشرة سنة في حوض الأمازون؛ كان منهمكاً بدراسة محصول المطاط الطبيعي إلى أن تم اكتشاف المطاط الصناعي ولم يعد عمله مجدياً؛ كما أنه اهتم بالأزهار السحلبية في غابة المطر وآلتي بلانو وجمع عيّنات منها. وأثناء تجواله كان من الواضح أنه لم ينس اهتمامه بتجارب كلوفر على الميسكالين ولا إعجابه بالنباتات المخدرة في المكسيك.

بعد سنوات كتب عن جولته في وادي سيبوندي في جنوب كولومبيا وعن رؤيته للشامان هناك: «ربما تكون الشامانية في هذا الوادي الحركة الأرقى على الأرض في معرفتها المتطورة للمخدرات». وهذه الظاهرة كانت صحيحة أيضاً في المنطقة العليا من الأمازون، وخلال العقود التالية كان شولتز وتلاميذه هم الذين ينشرون المعرفة النباتية الحديثة.

ركز شولتز بحثه حول النباتات المخدرة منذ البداية ولاحظ أن السكان المحليين الذين احتفظوا بتراث من معرفة النبات الطبي وطرق استخدامه للعلاج كانوا مستعدين لفهم تأثيراته على الوعي. بعد بحثه المبكّر حول البيّوت والفطور، إلتفت شولتز إلى مختلف الأنواع المثيرة للتهيؤات مثل نبتة نجمة الصباح التي تستخدم في أوكساكا. سنة ١٩٥٤ أصدر بحثاً حول

(١٨) أ. هوفر وهـ. أوزموند: «New Hope for Alcoholics». نيويورك، University Books، ١٩٦٨.

(١٩) ليستر غرينسبون وجايمز ب. باكالار: «Psychedelic Drugs Reconsidered» نيويورك، Basic Books، ١٩٧٩، ص ٢١٦.

النشوق في الأمازون وأعلن للعالم بالتالي استمرارية الاستخدام الشاماني التقليدي لمادة دي إم تي التي ينتجها النبات.

في السنوات الخمس والثلاثين التالية قامت مجموعة هارفارد بالبحث الدقيق ودوّنت كل ما استطاعت معرفته عن النباتات المخدرة. هذا الجزء المركزي الآخذ في التوسّع تدريجياً، والذي يضم معلومات تصنيفية واثنوغرافية وعقاقيرية وطبية، يشكل صلب قاعدة المعطيات التي يلجأ إليها الباحثون في كل أنحاء العالم اليوم.

تأسس علم العقاقير النفسية عند الأعراق البشرية في هارفارد برعاية شولتز؛ وكان تيموثي ليري موجوداً أيضاً في هارفارد في تلك الفترة ولفت الاهتمام بجهوده لوضع تجربة التخدير في البرنامج الاجتماعي.

ليري في هارفارد

ربما لا يكون ليري أو شولتز وجدا ما يثير إعجاب أحدهما بالآخر. كانا مختلفين للغاية ـ شولتز برهمي كتوم، وهو باحث وعالم نباتي. وليري شاماني مخادع وعالم اجتماع. كانت تجربة ليري المخدرة الأولى مع الفطور؛ وذكر فيما بعد أن لقاءه الأول مع البسيلوسيين في المكسيك كان دعوة له للقيام «بمهمته الدنيوية». لكن سياسة المنفعة عطّلت مشروع البسيلوسبين في هارفارد؛ مادة إل إس دي أكثر توفراً وأقل كلفة ـ من البسيلوسبين. كان مايكل هولينغسهيد هو المسؤول عن ترويج مادة إل إس دي في أواسط هارفارد:

> ليري تعلّق بهولينغسهيد كأنه مرشده الروحي. كان يرافقه حيث يذهب... ريتشارد ألبرت ورالف ميتزنر، وهما زميلان مقربان من ليري، أزعجتهما حالته اليائسة. ظنّا أنه فقد عقله بالفعل واعتبرا هولينغسهيد مسؤولاً عن ذلك. لكنهما غيّرا موقفهما عندما تسنّى لهما بدورهما تجريب ما في داخل وعاء المايونيز. هولينغسهيد قدّم المخدّر إلى الباحثين في مشروع البسيلوسبين، ومنذ ذلك الحين صار مخدر إل إس دي جزءاً من عملهم[٢٠].

بسيلوسبين: المخدرات في السبعينات

بعد موجة القمع التي اجتاحت عالم المخدرات والتي بدأت بقرار حظر استخدام مخدر إل إس دي في تشرين الأول/أكتوبر سنة ١٩٦٦، تراجع الاهتمام بتطوير المواد المختلفة وتقلّص نطاق تحرّكه. وقد يكون أهم حدث في السبعينات، من وجهة نظر الذين انتبهوا لفاعلية التخدير بعد تجارب أولية خاضوها على مادتي إل إس دي وميسكالين، صدور كتيبات تشرح

(٢٠) لي وشلاين، (نافذ)، ص ٨٤.

وسائل زراعة فطر البسيلوسبين في البيوت، وذلك في أواخر سنة ١٩٧٥. من الكتيبات الأولى التي نشرت كتيّب بعنوان: «البسيلوسبين: دليل زراعة الفطر السحري» «Psilocybin: The Magic Mushroom Grower's Guide» والذي توليت مع أخي تأليفه وذلك باسمين مستعارين هما أ.ت. أوس وأ.ن. أوريك. بيعت أكثر من مئة ألف نسخة من الكتيب في السنوات الخمس التالية، وبيعت أيضاً كتيبات قلّدته. وهكذا فإن البسيلوسبين المرغوب فيه والمألوف من خلال كتابات واسون وليري، صار متوفراً بالنسبة لعدد كبير من الناس ولم يعد هناك مبرر للسفر إلى أوكساكا للاستمتاع بتجربته.

تخدير البسيلوسبين يختلف نوعياً عن تخدير إل إس دي. تداعيات الهلوسة تنساب بسهولة أكثر، ويرافقها كذلك إحساس بأنها ليست مجرد عدسة لتفحص الذات، بل وسيلة تواصل مع عالم الشامان الأرقى. مجموعات من الأخصائيين والراغبين في التدخل في عالم النفس الداخلي اهتمت بمفعول الفطور وخاضت تجربة استخدامه. وحتى اليوم لا تزال هذه المجموعات من المحترفين والمهتمين بمعرفة ذلك البعد الداخلي، تشكل المحور في وسط اعترف بتجربة التخدير وطبقها في الحياة اليومية أو المهنية واقتنع بالتعلّق بها والتعلّم منها.

إلى هذه المرحلة توصل تاريخ تعاطي البشر لنباتات تخدر، أو تحدث تيهؤات، أو تسبب الاستغراق في نوبة تأمل. ونحن اليوم لا نعرف عنها بالفعل أكثر ما عرفه أسلافنا. وربما تكون معرفتنا أقل من معرفتهم في هذا الخصوص. إننا في الواقع لسنا متأكدين مما إذا كان العلم قادراً على خوض هذه المهمة على الرغم من أنه الأداة المعرفية التي بتنا نتكل عليها إلى أبعد حدّ. نستطيع أن نبدأ البحث بالرجوع إلى مجالات علم الآثار والنبات والعقاقير العصبية، لكن المشكلة هي في الواقع أن هذه الأساليب لدراسة تجربة التخدير تبدو وكأنها تقود إلى الرابط الداخلي بين الذات والعالم هو البعد الأكثر عمقاً لوجودنا.

معنى تجربة التخدّر

ماذا يعني لنا أن الجهود التي بذلها علم العقاقير لتقليص العقل إلى آلية جزيئية يحتوي عليها الدماغ أنتجت تصوراً للعقل يطرح تناسبيته الكونية؟ والعقاقير المخدرة عوامل تحمل إمكانية الرجوع بنا إلى مستوى الحيوان وتحويلنا إلى حلم مشعّ من الكمال الممكن تحقيقه.

يقول الفيلسوف الاجتماعي الإنكليزي توماس هوبز: «بين الرجل والآخر ما هو حسّي، وبين الرجل والآخر ما هو إلهي». ولقوله هذا نضيف «وهذا يكون أكثر وضوحاً مع استخدام المخدرات».

لم تعرف الثمانينات أية تطورات في أبحاث المخدرات. كانت مواد الأفيتامين المركّبة مثل

MOA متوفرة منذ بداية السبعينات، وخلال الثمانينات ظهرت مادة MDMA أو إكستاسي بكميات كبيرة نسبياً. هذه المادة الأخيرة بدت فاعلة عند استخدامها في العلاج النفسي الموجّه[٢١]. لكن سرعان ما حظرت هذه المواد وصار تداولها سرياً قبل أن تترك أي أثر على المجتمع. كان الخوف من المخدرات في الثمانينات ناجماً عن انتشار «كراك» كوكايين، وهو مخدر يحقق أرباحاً كبيرة في توزيعه ويتسبب بحالة إدمان شديد، لذلك كان سلعة مثالية في نظر البنية التحتية التي كانت قد تأسست لتوفير الكوكايين العادي في الأسواق.

كلفة التوعية في مجال المخدرات والعلاج بها ضئيلة نسبياً عند مقارنتها بالنفقات الباهظة في العمل العسكري، ويمكن احتواؤها. لكن ما لا يمكن احتواؤه هو التأثيرات التي ستتركها المخدرات على تشكل الصورة الذاتية في حال كانت كل المخدرات شرعية ومتوفرة. هذا هو الجانب الخفي الذي يجعل الحكومات غير راغبة في البحث في مسألة شرعية المخدرات: إن التغيّر في الوعي غير المتحكم به الذي يحدثه تعاطي المخدرات، بما فيها المخدرات النباتية، يثر مخاوف حضارة السيطرة والنظام الذي يركّز على الذات.

الوعي العام للمشكلة

حتى اليوم لا يزال وعي الناس عموماً لموضوع المخدرات مشوّشاً، والتلاعب برأيهم سهلاً. هذا الوضع يجب أن يتغيّر. يجب أن نستعد للسيطرة على مشكلة علاقتنا بالمواد المخدرة. وهذا لن يتم باللجوء إلى نمط سلوكي غير بشري يزيد حالة القمع الجماعي من خلال رموز السيطرة. لن تعود هناك شعارات مثل «قولوا لا للمخدرات» أي شعار غبي أو مدّع كهذا لن يجدي نفعاً. ولن ننقاد أيضاً وراء توجهات فلسفية مريحة ترى أن المتعة الحرّة هي الكأس المقدسة للتنظيم الاجتماعي. دربنا الوحيد المعقول يبدأ بنزع صفة الإجرامية عن المخدرات، التوعية العامة، واعتماد الشامانية كطريقة توفيقية ومحترفة للوصول إلى الحقيقة. نفوسنا هي التي تصاب بالمرض عندما نسيء استخدام المخدرات، والشامان يعالج النفوس. مثل هذه التدابير لن تؤدي في وقت مقيد إلى حلّ مشكلة المخدرات، لكنها سوف تحافظ على السبيل الذي نحتاجه إذا كنا نريد إعادة بناء موقف المجتمع من النبات أو المواد المختلفة، من حيث استخدامها وإساءة استخدامها.

علاقة التكافل السيكولوجي والفيزيولوجي التي انقطعت بيننا وبين النباتات المثيرة للتهيؤات هي السبب غير المعترف به للنفور من الحداثة والذهنية المهيمنة على الطريقة عموماً. هناك نزوع

(٢١) صوفيا أدامسون: «Through the Gateway of the Heart». سان فرنسيسكو، Four Trees Press.

عام للخوف من المخدرات، وحضارة السيطرة وأجهزتها الدعائية تعزّزان هذا الموقف وتتحكمان به. مازال البعض يجنون ثروات طائلة غير مشروعة؛ والحكومات تغسل أيديها مما يجري. هذه ليست سوى المحاولة الأكثر حداثة لاستغلال وقمع حاجاتنا الغريزية العميقة للاتصال بعقل الأرض الحيّ.

١٥ ـ توقّع الجنة البدائية

فَلْنعد إلى أنواع الخيارات المتاحة للذين يرغبون فعلياً في تقديم اللاّتوازن الذي خلقه التاريخ داخل نفوسهم. هذا يتطلب إلقاء نظرة على النباتات المثيرة للهلوسة المتوفرة في أماكن مختلفة من العالم في المجتمعات غير الغربية.

خيارات فعلية

هناك بالطبع فطور البسيلوسبين التي اكتشفها غوردون وفالنتينا واسون ـ تلك الفطور السحرية في المنطقة الوسطى في المكسيك والتي لعبت بالتأكيد دوراً أساسياً في ديانة حضارتي المايا والتولتيك. من هذه الفطور نوع ستروفاريا كوبنسوس المعروف، والذي يفترض أنه في الأصل من تايلاند لكنه اليوم متوفر في مختلف المناطق الاستوائية الدافئة.

على مرتفعات المكسيك ينمو نوعان من نبات نجمة الصباح. Ipomiea Purpura وTurbina Corymbosa (Rivea سابقاً). خواص الأرغوت التي أثارت اهتمام ألبرت هوفمان وقادته فيما بعد إلى اكتشاف مادة إل إس دي، والتي تتجسد في أنه يقلص العضل الأملس وسيشكل بالتالي عنصراً مساعداً في المخاض، كانت معروفة منذ القدم لدى القابلات في سييدا مازاتيكا. وقدرة الأرغوت تذويب الحدود المرئية وتسريب التهيؤات المعرفية جعلته البديل المفضل عندما لم تكن الفطور التي تحتوي على البسيلوسبين متوفرة[١].

باستثناء الميسكالن، وهو نوع من الأمفيتامين، كل النباتات الشامانية ـ بما فيها مجموعة نجمة الصباح في المكسيك ومجموعة البسيلوسبين ـ هي مواد إندولية مثيرة للهلوسة.

---

(١) جان. ج.ر. إلفرينك؛ بحث بعنوان: «Some Little-Known Hallucinogenic Plants of the Aztecs». في مجلة «Journal of Psychoactive Drugs 20»، عدد ٤.

ويجب أن لا ننسى المواد الإندولية الأخرى ذات الفاعلية القصيرة الأجل مثل تريبتامين وبيتا ـ كاربولين. بالإمكان استخدام مادة التريبتامين بمفردها أو بالإضافة إلى البيتا ـ كاربولين. وحالة البيتا ـ كاربولين مثيرة للهلوسة بمفردها لكنها تزداد فاعلية عندما تستخدم كمانع للتأكسد فتعزّز تأثر التريبتامين وتجعله قابلاً للحدوث عند تناول تلك المادة بواسطة الفم.

لم أذكر أية مواد صنعية، لأنني أريد التمييز بين النباتات التي تحدث التهيؤات وبين الفكرة العامة عن المخدرات. مشكلة المخدرات في العالم مسألة مختلفة تماماً تتعلّق بمصير الدول والاتحادات الإجرامية. أتحاشى المخدر المصنوع وأفضل المواد العضوية المثيرة للهلوسة لأنني مقتنع بأن تاريخ استخدامها الشاماني الطويل هو الدمغة الأولى للموافقة عليها، وهذا ما يجب البحث عنه عند انتقاء مادة ما لما تحمله من تأثيرات ممكنة على النمو الذاتي. وعندما تكون النبتة مستخدمة منذ آلاف السنين نستطيع أن نتأكد من أنها لا تتسبب في إحداث أورام أو حالات إجهاض أو تحمل مخاطر فيزيولوجية غير مقبولة. على امتداد الزمن، وبواسطة التجربة تمّ انتقاء أفضل النباتات فاعلية وأقلّها سُمّيّة للاستخدام الشاماني.

هناك أيضاً مقاييس أخرى يجب الانتباه لها عند تقييم مادة ما. يجب أن تستخدم فقط المركبات التي لا تتسبب بأذى للدماغ؛ وبالتالي تجنّب المواد الغريبة منه والتي لا يستطيع إخضاعها لعلمية الأيض.

من الطرق المستعملة للحكم على علاقة الناس بنبتة معينة، ملاحظة إلى أي مدى تكون موادها مضرة في عمليات الأيض. عندما يتناول المرء نبتة ويشعر أن نظره ليس سليماً بعد ثمان وأربعين ساعة، أو أن ركبتيه لم تسترجع ليونتهما بعد ثلاثة أيام، هذا يعني أن ما تناوله كان مؤذياً.

مادة التريبتامين المثيرة للهلوسة

هذه المقاييس تبين برأيي أهمية التريبتامين والسبب الذي يجعلني أقول بأن فطر البسيلوسين كان مادة مهلوسة تركت تأثيرها على الوعي البدائي. مواد التريبتامين، بما فيها البسيلوسبين، مماثلة في تركيبتها للكيميائية العصبية في جسم الإنسان. دماغ الإنسان، وجهازه العصبي، يستمران بواسطة ٥ ـ هيدروكسي تريبتامين، المعروف أيضاً بالسيروتنين. الـ DMT قريب جداً من السيروتنين، وهو مركّب مثير للهلوسة يستخدمه الشامان في الأمازون، وله فاعلية قوية على الناس، وإذا دُخّن يزول مفعوله في أقل من خمس عشرة دقيقة. هذا التماثل في بنيتي هذين المركّبين قد يدل على الصلة التطورية القديمة بين عمليات الأيض في الدماغ وهذه المركّبات بالذات.

بعد طرح الخيارات يبقى أمامنا البحث في الأساليب. الدوس هاكسلي اعتبر أن تجربة التخدير «نعمة بلا مسوّغ». وقد قصد بذلك أنها بحد ذاتها ليست ضرورية ولا كافية للخلاص الشخصي. كما أنها قد تتسبب في الحيرة. قد تتوفر جميع الشروط للنجاح ومع ذلك يفشل المرء في الوصول. لكن لا مجال للفشل لوتوفرت شروط النجاح وقام المرء بالمحاولة تلو الأخرى ـ ربما يكون هناك عامل متغير مؤقت.

الأسلوب الجيد بسيط: على المرء أن يرتاح ويصمت وينتبه. هذه الخطوات هي أساس الأسلوب الناجح. يجب أن يستعد المرء للإنطلاق في هذه الرحلات ومعدته فارغة، وهو في مكان مظلم وصامت وفي إطار مريح ومألوف يشعر فيه بالإدمان. «الوضع» و«الخلفية» كلمتان استخدمهما تيموثي لير ورالف ميتزنر في الستينات، تحددان نقطتي الارتكاز في أسلوب التعاطي للمخدر[٢]. يشير «الوضع» إلى مشاعر المرء وآماله ومخاوفه وتوقعاته الداخلية، و«الخلفية» تشير إلى الإطار الخارجي الذي سوف تتحقق فيه الرحلة الداخلية ـ مستوى الصوت ومستوى الضوء ومستوى التآلف بالنسبة للمسافر. يجب أن يساهم الوضع والخلفية معاً في تعزيز الإحساس بالأمان والثقة. كل المؤثرات الخارجية يجب تقليصها إلى أبعد حد ممكن ـ نزع شريط التليفون، وتوقيف كافة الآلات. على المرء أن يتفحص الظلام خلف عينيه المغمضتين متوقعاً رؤية شيء ما. ليس مايراه مجرد صور تتوالى (كما يحدث عندما نضغط على جفوننا المغمضة)، مع أن التجربة تبدأ على هذا النحو. الظلام المريح والصامت هو الإطار المفضل الذي يفسح للشامان مجال الإنطلاق في ما تسميه الأفلاطونية الجديدة الصوفية «رحلة الأوحد إلى الأوحد».

هناك كثير من الصعوبات اللغوية والمفاهيمية في محاولة شرح طبيعة التجربة للآخرين. معظم الذين يقرأون كتابي عرفوا في حياتهم تجارب يمكن أن يصفوها بأنها «تخديرية». لكن هل يعرف كل واحد منا أن تجربته قد تكون فريدة ومختلفة عن أي تجربة أخرى؟ هذه التجارب بمجملها تتراوح بين الإحساس بوخز خفيف في القدمين وحتى التواجد في عوالم هائلة وغريبة، حيث يجفل العقل وتخفق اللغة. ويشعر المرء بحضور ما يفوق الوصف الكلي. تتداعى الذكريات، وتتبعثر وتتفتت، كثلوج العام الماضي التلألؤ يسبق نور النيون، واللغة تولّد ذاتها. لا مجال للمبالغة وهنا تكمن أهمية مناقشة هذه الأمور.

---

(٢) تيموثي ليري ورالف ميتزنر: «The Psychedelic Experience: A Manual Based on the Tibetan Book of the Dead»، نيوهايد بارك، نيويورك، University Books، ١٩٦٤.

بماذا يشعر المرء؟

كيف كان عالم جنة عدن المفقود؟ وما هو ذلك الإحساس الذي تركنا غيابه نعيش كغرباء على مر التاريخ؟ بداية فعل مادة الأندول المهلوسة تبدأ أولاً بتنشيط جسدي، بإحساس في الجسم. هذه المواد ليست مخدرة بل منشّطة للجهاز العصبي المركزي. يكون في الغالب طابع الموجة الأولى من المشاعر الجسدية شبيهة بما نسميه «الرغبة في القتال أو الفرار». يجب ضبط الدماغ الخلفي والانتظار حتى تزول حالة الاضطراب.

مركّب فاعل يؤخذ بواسطة الفم مثل البسيلوسبين يصل إلى ذروة تأثيره خلال ساعة ونصف؛ والمركّب الذي يُدخّن مثل دي إم سي يبدأ تأثيره في أقل من دقيقة. لكن مهما كانت الوسيلة لتناول هذه المواد فإن مفعولها مذهل حقاً. أفكار غريبة، تكون مضحكة، تبصّر لافت، يكون عميقاً أحياناً، كسر من الذكريات ودفق من التداعيات. في حالة التخدير هذه لا يكون الإبداع شيئاً يعبّر عنه المرء، بل يراه.

وجود هذا البعد من المعنى الذي يُعرف لا يبدو أنه على صلة بماضي المرء أو بتطلعاته، يحملنا على التفكير بأننا في مواجهة مع آخر مفكر أو مع البنى العميقة في النفس والتي تظهر فجأة. وربما تكون المواجهة مع كليهما. إن عمق هذه الحالة وما تتصف به من إمكانية لتكون تغذية إسترجاعية إيجابية في عملية إعادة بناء الشخصية، كان يجب أن يجعلا من المخدرات وسيلة أساسية في العلاج النفسي. الأحلام لفتت انتباه الباحثين في طبيعة العملية النفسية، وكذلك التداعي الحرّ والتراجع بفعل التنويم المغناطيسي؛ لكن هذه الحالات لا تبدو أكثر من ثقوب يختلس منها النظر إلى العالم الخفي للدينامية النفسية، عند مقارنتها بالرؤية الواضحة التي توفرها المواد المخدرة.

في مواجهة الجواب

لسنا اليوم في صدد البحث عن الجواب بقدر ما نحن في صدد مواجهة الجواب. الجواب موجود لكنه يكمن في الناحية المرفوضة من الحدّ الاجتماعي للتسامح والشرعية. لذلك نجد أنفسنا في وضع غريب. الباحثون المعنيون يعرفون أن المواد المخدرة هي الأدوات الأكثر فاعلية لدراسة العقل؛ لكن معظمهم يعملون في أطر أكاديمية تجعلهم مجبرين على تجاهل الجواب الذي يعرفونه. وضعنا اليوم لا يختلف كثيراً عن وضع القرن السادس عشر عندما اكتشف التلسكوب وانهارت الصورة المرسومة للسماء. كانت تجربة الستينات دليلاً على أننا لن ننجح في التعاطي مع الأدوات التخديرية بدون تحوّل اجتماعي وفكري. هذا التحول يجب أن يبدأ الآن ومع كل واحد منّا.

إن الطبيعة في غناها التطوري والتشكلي تقدم لنا نموذجاً يُحتذى في مهمة التحوّل الذاتي. حياة الإنسان المستقبلية قد تتخذ الأخطبوط رمزاً؛ وذلك لأن الحيوانات الأخطبوطية الرأسية الأرجل والحبّار، التي تبدو مخلوقات متدنية، لديها نظام متقن من التواصل يستند إلى التخدير والتخاطر ـ وهي تشكل نموذجاً موحياً لاتصال البشر ببعضهم البعض في المستقبل.

الأخطبوط

لا يحاول الأخطبوط الاتصال بواسطة أصوات خافتة تصدر عن فمه، مع أن الماء يعتبر إطاراً جيداً لتوصيل الإشارات الصوتية؛ بل يبتكر الأخطبوط لغته الخاصة. لدى الأخطبوطيات مجال لتغيير لونها وأن تصبح مبقعة أو منقطة، إلى جانب طبيعتها الرخوية، مما يساعدها على الاختفاء وعلى توصيل لغتها بتغطية وكشف الأجزاء المتغيرة من جسمها. عقل الأخطبوط وجسمه كيان واحد، كلاهما مرئيّ؛ الأخطبوط يلبس لغته كأنها جلده الثاني، ولا يستطيع منع نفسه عن التواصل. إن استخدامه لسحب «الحبر» ليحجب نفسه قد يكون السبيل الوحيد الذي يتيح له بعض الخصوصية. وقد يكون الحبر نوعاً من السائل التصحيحي يستخدمه الأخطبوط المهذار عندما يسيء التعبير عن نفسه. مارتن موينيهام كتب عن وسائل الاتصال المعقدة عند هذه الحيوانات:

> أنظمة الاتصال لدى الحيوانات الرأسية الأرجل مرئية بمعظمها. وهي تشتمل على تغييرات في الألوان والأوضاع والحركات. قد تكون الأوضاع والحركات طقسية أو لا طقسية. لكن تغييرات اللون هي على الأرجح طقسية دائماً. يمكن جمع مختلف الأنماط في أساليب عديدة هي في الغالب معقدة؛ إنها تتغير بسرعة كبيرة. كونها مرئية لا يعني أن المراقب يستطيع وصفها بسهولة. إنها بالغة التعقيد...
>
> أنماط التغيير عند الأخطبوط، كغيرها من الأنماط عند حيوانات أخرى، تتضمن معلومات. وهذه الرسائل، إن كانت إرادية أم لا، لا يبدو أنها تستند إلى بناء الجمل فقط بل إلى مستوى بسيط من القواعد اللغوية أيضاً[٣].

مثل الأخطبوط، قدرنا أن نصبح ما نفكر،أن نترك أفكارنا تصبح أجسامنا، وأجسامنا تصبح أفكارنا. هذا أساس «اللوجوس» المتكامل الذي وصفه المفكر الهلّيني فيلور يوداس ـ لوجوس يشتمل على حضور الإلهة، لا في السمع بل في الرؤية. هانز جوناس يشرح فكر فيلا يوداس على النحو التالي:

> لوجوس متكامل تخلص من إزدواجية الإشارة والشيء، ولم يعد بالتالي مقيداً بأشكال الكلام، ولا

(٣) مارتن موينيهام: «Communication and Non Communication by Cephalopods». بلومنختون، India University Press، ١٩٨٥.

يحتاج لواسطة السمع، بل يراه العقل مباشرة بوصفه حقيقة الأشياء. أي أن تضاد الرؤية والسمع يوجد موحداً في إطار «الرؤية» ـ هذا يعني أنه لا يوجد تضاء بل اختلاف في الدرجة يتناسب مع مفهوم الحضور الحدسيّ المباشر للشيء. إنطلاقاً من هذا المفهوم يعتبر «السمع» في مقابلة «الرؤية» كأنه ينوب عنها بشكل مؤقت وليس منفصلاً عنها. كما أن الانتقال من السمع إلى الرؤية يكون في هذا السياق مجرد تطور من معرفة محدودة إلى معرفة ملائمة للانعكاس المعرفي نفسه(٤).

الفن والثورة

الإحياء البدائي دعوة لاستعادة حق مولدنا، مهما بدا ذلك مزعجاً بالنسبة لنا. إنها دعوة للتأكد من أن الحياة التي تُعاش بعيداً عن تجربة التخدر التي استندت إليها الشامانية الأصيلة هي حياة مهمّشة محظورة وخاضعة للأنا ولخوف التلاشي في المزيج الغريب من الأحاسيس المحيطة بنا. قدرتنا على تجاوز المعضلة التاريخية تكمن فعلاً في عملية الإحياء البدائي.

وهناك أمر آخر. صار من الواضح اليوم أن التطورات الجديدة في حقول مختلفة ـ شراكة العقل ـ الآلة، وتصنيع العقاقير المختلفة، وتخزين المعطيات والصور وتقنيات الاسترجاع ـ تتضافر معاً لتشكل تصوراً شيطانياً أو ملائكياً لحضارتنا. أولئك الذين يقفون إلى الجانب الشيطاني من هذه العملية. يدركون جيداً إمكانية تحقيق هذا الجانب ويندفعون للسيطرة على الحقل التقني؛ وانطلاقاً عن هذا الوضع يأملون في تحويل كل فرد إلى مستهلك مؤمن في إطار فاشيّ لا يستطيع أحد الإفلات من هيمنة صوره.

الرد الشاماني، والرد البدائي، والرد البشري، على هذا الوضع يجب أن يكون بتحديد موقع الرغبة الفنية وإطلاقها. هذا الدفع الفني من المؤثرات الأولية للشامانية، وتعمل المخدرات بشكل فاعل على تعزيزه. إذا كانت المخدرات مواد تذيب الأنا المسيطرة، فهي في الوقت نفسه تعمل كالأنزيمات التي تغني المخيلة الإنسانية وتفتح آفاق اللغة. إنها تدفعنا إلى وصل وإعادة وصل محتويات العقل الجامع بأساليب تكون باستمرار أكثر ابتكاراً وجمالاً وتحقيقاً للذات.

إذا كنا جديين بشأن الإحياء البدائي فنحن بحاجة إذاً إلى مثال يدفعنا بسرعة إلى الإمام لنتجاوز مرحلة الاختناق التاريخي إلى مدى يكون أكثر رحابة وإنسانية وتعاطفاً. إحساسنا بالواجب السياسي وبالرغبة في تخليص الروح الجماعية للبشرية، وبالحاجة لوصل نهاية التاريخ ببدايته ـ كل هذا يفرض علينا رؤية الشامانية كنموذج يُحتذى؛ وفي إطار الأزمة العالمية الحالية لا نستطيع التغافل عن جدية أساليبها.

---

(٤) هانز جوناس: «The Phenomen on of Life». نيويورك، Dell، ١٩٦٦، ص ٢٣٨.

توسّع نطاق الوعي

منذ سنوات، وقبل أن يستخدم همفري أوزموند كلمة «مخدر»، كان هناك وصف ظاهراتي لهذا النوع من العقاقير يقول إنها «عقاقير توسّع نطاق الوعي». أعتقد أن هذا الوصف جيد. إذا التفتنا إلى حياتنا على هذا الكوكب، وافترضنا أن توسّع الوعي لن يكون مطروحاً بوضوح في المستقبل، تُرى أي مستقبل سيكون في انتظارنا؟ إن الموقف المدافع عن «المخدر» يعتبر في الأساس تهديداً للنظام السائد، لأنه بعد التفكير فيه بعمق يتبين أنه موقف ضد المخدرات وضد الإدمان. ويجب أن لا نخطىء في التقدير، لأن المسألة المطروحة هي مسألة المخدرات. إلى أية درجة؟ أو إذا طرحنا السؤال في صيغة مختلفة، إلى أية درجة سنكون واعين؟ من سيكون واعياً؟ ومن سيكون غير واعٍ؟

نحن بحاجة إلى تعريف واضح لما نقصد بكلمة «مخدر». المخدر هو الذي يتسبب بإحداث سلوك غير مجرّب، واستحواذي وإدماني. من يخضع للسلوك الاستحواذي لا يتفحصه بل يقوم به ولا يترك شيئاً يقف في طريق إحساسه بالاكتفاء. هذا هو نمط الحياة السائد: نشاهد ونستهلك ثم نشاهد ونستهلك أكثر فأكثر. وخيار «المخدر» متروك في زاوية صغيرة لا أحد يذكره، مع أنه يشكل الدافع الوحيد الموجّه ضدّ توجيه الناس نحو حالات مصمّمة من الوعي. وهذه التصاميم لم يضعها الناس، بل هي تصاميم ماديسون أفنيو والبنتاغون ونقابات فورتشون ٥٠٠. هذا ليس مجرد وصف كلامي بل حقيقة ما يحدث لنا.

عندما أنظر إلى لوس أنجلس من الجو ألاحظ دائماً أنها تشبه طريقاً مرسوماً: بشوارعها المتعرّجة وأزقتها المسدودة، ووحدات بشرية موزعة هنا وهناك. هذه الوحدات التي تحافظ على الإشتراك بمجلة ريدرز دايجست وعلى إدارة التلفزيون باستمرار، تشكّل أجزاء قابلة للتغيير ضمن آلة كبيرة. هذه هي الحقيقة المروّعة التي رآها مارشال ماكلوهان ووينđهام لويس وغيرهما: تحويل عامة الناس إلى قطيع، بحيث يُلغى تاريخهم ومستقبلهم ولا يعرفون سوى اللحظة الذهبية التي يعيشونها، والتي ابتكرها نظام موثوق به، وهي تربطهم بشكل لا مفر منه إلى شبكة من الأوهام التي لا مجال لانتقادها. تلك هي النتيجة القصوى لقطع العلاقة التكافلية مع رحم أرض الكوكب. إنها نتيجة فقدان الإحساس بالمشاركة، وعدم التوازن بين الجنسين؛ وهي المرحلة النهائية للتدهور إلى حالة من الإرتباك الذي لا معنى له.

والفضل في تزويدنا بمعدات لمقاومة هذا الرعب يعود إلى أبطال لا تتغنّى بهم القصائد، من علماء نبات وكيميائيين، أشخاص مثل ريتشارد شولتز والزوجان واسون وألبرت هوفمان. نحن نعيش اليوم في أسوأ القرون تشوشاً، وهؤلاء الباحثون وضعوا بين أيدينا وسائل تخوّلنا القيام

بشيء ما. لكن مجال علم النفس كان راضياً وصامتاً. اقتنع علماء النفس بنظرية السلوكية لخمسين سنة، مع أنهم كانوا يدركون أنهم يرتكبون خطأ في حق البشرية بتجاهلهم ما تقدمه المخدرات من إمكانيات.

حرب المخدرات

هذه هي المرحلة المناسبة لتركيز التفكير في هذه المسائل. منذ بعض الوقت تعرض «ميثاق الحقوق» للانتهاك بحجة ما يسمى بحرب المخدرات. إن مسألة المخدرات تثير مخاوف الناس (القطيع) أكثر من الشيوعية، ويعتبرونها أكثر خطورة.

فكرة الابتعاد المتكلف عن الجماعة التي تتعاطى المخدرات يجب أن تتغير جذرياً؛ وإلاّ فإننا سنخسر المطالبة بحقنا وكذلك فرصة اكتشاف البعد التحذيري. قد لا نستطيع أن نقول غالباً إن قضية المخدرات قضية تمسّ حق المواطن وحريته. إنها قضية تتعلق بالمنطلق الأهم لحرية الإنسان: الممارسة الدينية وخصوصية التفكير الفردي.

قيل في الماضي أنه لا يجدر إعطاء حق الانتخاب للنساء لأن هذا سيؤدي إلى خراب المجتمع. وقبل ذلك كان الملوك يتمسكون بالسلطة المطلقة حتى لا تعمّ الفوضى البلاد. واليوم يقال لنا إن السماح بتعاطي المخدرات يتأتى عنه انحلال المجتمع. هذا هُراء! كما رأينا، يمكننا كتابة تاريخ البشرية في إطار سلسلة من العلاقات مع النباتات، علاقات تقام وتُفصم. وقد بيّنا كيف كانت النباتات والمخدرات والسياسة تتفاعل معاً بقسوة ـ من تأثير السكر على المركنتلية إلى تأثير البنّ على العامل في العصر الحديث، ومن فرض البريطانيين الأفيون على الشعب الصيني إلى استخدام وكالة الاستخبارات الأميركية للهيرويين في الغيتو لوضع حدّ للتململ والاستياء.

التاريخ هو قصة هذه العلاقات؛ والدروس التي نستطيع تعلمها منه قد نرفعها إلى مستوى الوعي ونعمل على تأصيلها في السياسة الاجتماعية واستخدامها لإيجاد عالم يكون أكثر تعاطفاً، أو نستطيع تجاهلها، كما كان ممنوعاً البحث في الشأن الجنسي حتى تمكن فرويد وغيره من طرحه. هذا القياس صحيح لأن الإمكانية المعرفية التي قد تتيحها التجارب على النباتات المثيرة للهلوسة تشكل جزءاً أساسياً من إنسانيتنا مثل وضعنا الجنسي. وإلى أي مدى نستطيع التحول إلى مجتمع ناضج قادر على طرح هذه القضايا، أمر متروك لنا.

فضاء فوقي وتحرّر

إن ما يخافه المدافعون عن حلّ لوديت «قُل لا فقط» هو عالم ذابت فيه كل القيم التقليدية للجماعة في مواجهة بحث لا ينتهي عن الاكتفاء من قبل المهووسين بالمخدرات أفراداً

وجماعات... لا نستطيع أن نستبعد حدوث ذلك. لكن ما نستطيع رفضه هو الادعاء بأن هذا المستقبل المثير للقلق يمكن تفاديه «بإحراق الساحرات» ومنع الأبحاث ونشر الأكاذيب والمعلومات الخاطئة على نحو هستيري.

كانت المخدرات تشكل جزءاً من الهم الحضاري منذ بداية التاريخ. لكن مع تقدم الوسائل التقنية القادرة على تقتير وتركيز المواد الفاعلة في النباتات، بدأت المخدرات تبتعد عن الخلفية العامة للشؤون الحضارية وتحولت إلى بلاء.

ليست مشكلتنا مع المخدرات، بل مع كيفية التحكّم بوسائلنا التقنية. هل تظهر في المستقبل أنواع جديدة مصنّعة تتفوق بإدمانيتها على الهيروين والكراك كوكايين؟ الجواب بالتأكيد نعم ـ إلا إذا استطعنا أن نعي ونبحث في احتياج الإنسان الأساسي للإتكالية الكيميائية، ومن ثم نجد مجالات للتعبير عن هذه الحاجة. نحن نكتشف اليوم أن البشر مخلوقات تخضع للتصور الكيميائي، وهذا يثير مخاوفنا كما حدث للفيكتوريين عندما اكتشفوا أن البشر يتعلّقون بالوهم والهوس الجنسيين. قدرتنا على مواجهة أنفسنا هي شرط مسبق ضروري لإيجاد مجتمع يكون أكثر إنسانية وانتماء للنظام الطبيعي. ومن المهم أن نذكر في هذا السياق أن سعينا لمواجهة أنفسنا لم يبدأ مع فرويد ويونغ ولن يتوقف عندهما. هذا الكتاب يؤكد على أن الخطوة التالية على طريق الوعي الذاتي تبدأ فقد عندما ندرك حاجتنا الداخلية والمشروعة لبيئة غنية بالحالات الذهنية التي يمكن إحداثها بعمل إرادي. أعتقد أننا نستطيع البدء بالعملية بمراجعة أصولنا. وبالفعل حاولت جاهداً أن أبيّن أننا نجد في الوسط البدائي، الذي بدأ فيه تكوّن الوعي الذاتي، مفاتيح الغاز تاريخنا المضطرب.

الجديد في هذا الإطار

مركّبات الإندول المثيرة للهلوسة، التي يمنع ترويجها والبحث فيها، يعرضها هذا الكتاب كعوامل للتغير الثوري. إنها عوامل بيو ـ كيميائية لا تبدو فعاليتها القصوى في التجربة الفردية المباشرة بل في التكوّن الجينيّ للجنس البشري. حاولت الفصول السابقة لفت الانتباه إلى أن تحسّن الدقة البصرية باستمرار وزيادة النجاح التناسلي والتطوير المتناهي لوظائف الدماغ اللغوية، كانت نتائج منطقية لدخول البسيلوسبين في غذاء الإنسان الأول. وإذا استطعنا إثبات أن الوعي البشري ظهر بتعاون الإندولات في التطوير العصبي عندئذٍ ستتغير الصورة التي نحتفظ بها عن أنفسنا، وعلاقتنا بالطبيعة، معضلة استخدام المخدر القائمة حالياً.

لن يوجد حل لمشكلة المخدر أو لمشكلة التدمير البيئي أو لمشكلة تكديس الأسلحة النووية، إلاّ إذا استعدنا الصلة التي تربطنا بالأرض. هذه العملية تبدأ بتحليل حشد الظروف الفريدة التي

كانت ضرورية للتنظيم الحيواني كي يقفز إلى مستوى الوعي الذاتي. وعندما نفهم محورية التكافل بين البشر والنبات بوساطة المواد المهلوسة نستطيع أن ندرك وضعنا العصبي الوظيفي الحالي. إن استيعاب الدروس من هذه المراحل البدائية قد يكون المنطلق لإيجاد حلول ليس فقط لكيفية ضبط المجتمع لاستخدام المادة وإساءة استخدمها، ولكن أيضاً لحاجتنا العميقة والمتزايدة لإيجاد بعد روحي في حياتنا.

تجربة الـ «دي إم تي»

في بداية هذا الفصل ورد ذكر ال «دي إم تي» على أنه ذو أهمية خاصة. ماذا تحمل تجربة ال «دي إم تي» إلى فراغنا الروحي؟ هل تقدم إجابات؟ هل تعطينا مواد التربيتامين ما يشبه حالة النشوة التي عرفها مجتمع المشاركة قبل أن تتحول «الجنة» إلى ذكرى؟ وإذا كان ذلك صحيحاً، ماذا نستنتج منه؟

خلال فترات اهتمامي بمركبات الإندول المثيرة للهلوسة توقفت مراراً عند مسألة تحوّل التعبير واللغة، والتي لم تحظ بالاهتمام الكافي عموماً. عندما يتسلّل المرء إلى ما دون التأثير السطحي لل «دي إم تي» بخصوص تجربة تحيط بكل كيانه ويشعر بنشوة كأنه يخترق غشاء. عقله ونفسه يتكشفان أمام عينيه. ينتابه إحساس بأنه تجدّد؛ لكن دون أن يتغيّر، كأنه مصنوع من ذهب وأعيد إلى فرن مولده. يكون تنفسه طبيعياً، وخفقات قلبه منتظمة وتفكيره واضحاً ودقيقاً. لكن كيف يبدو له العالم؟ ما هي طبيعة المعطيات الحسية التي يتلقاها؟

تحت تأثير ال «دي إم تي» يصبح العالم متاهة صحراوية، أو قصراً شاسعاً، أو جوهرة من المريخ، مليئاً بالأشكال التي تتدفق إلى الذهن بخشية غامضة وصامتة. يهيمن اللون على التجربة ويسود الإحساس بأن سراً سوف ينكشف. وهناك أيضاً حضور لأزمنة أخرى، ولطفولة المرء، ولما يثير دهشته مراراً. وسط هذه التجربة، عند نهاية التاريخ البشري، تفتح بوابات على هول الفراغ الذي لا يوصف بين النجوم، تفتح على اللانهاية.

اللانهاية التي كما رآها هرقليطس تشبه طفلاً يلعب بكرات ملوّنة. هناك يوجد العديد من المخلوقات المصغّرة ـ أقزام الفضاء الفوقي. هل هؤلاء الأطفال هم أصل الإنسان؟ يشعر المرء أنه داخل محيط من الأرواح يقع ما وراء ما نسميه بسذاجة الموت. أم أنهم تجسيد لأنفسنا بوصفنا الآخر، أم تجسيد للآخر بوصفه نحن؟ أم أنهم الأقزام الذين أضعناهم منذ شحب ضوء طفولتنا السحري؟ هنا تكمن روعة نادراً ما تذكر، وظهور يفوق أكثر أحلامنا غرابة. هنا عالم ما هو أغرب مما يمكننا تصوّره. هنا اللغز الحيّ يتكشف لنا كما عاشه أجدادنا منذ خمسة آلاف سنة. التريبتامين يعطينا هبة اللغة الجديدة؛ يسمعنا غناء أصوات لؤلؤية يتساقط كأوراق أزهار ملوّنة

ويتدفق مع الهواء كالمعدن السائل الذي يحوّل إلى ألعاب وهدايا مختلفة كالتي تقدمها الآلهة للأطفال. الإحساس بالإرتباط العاطفي يزداد حدّة وهولاً. الألغاز التي تظهر حقيقية ولو أنها تروى لما هي مما ظلّ حجر على حجر في العالم الصغير الذي ضللنا طريقنا فيه.

ليس هذا عالم عطارد والأجسام الغريبة، وليس أيضاً عالم أطلنطيس الذي تنشده حورية يتردد صدى صوتها في أزقة أميركا المجنونة بالكراك. أل «دي إم تي» لا يحدث هلوسة لا عقلانية. أعتقد أن ما نختبره في حضور الـ «دي إم تي» حقيقي. إنه بُعد قريب - مخيف ومؤثر وأبعد من قدرتنا على التصوّر، ومع ذلك نستطيع اكتشافه بالطريقة المعتادة. يجب أن نرسل أخصائيين جريئين، ليستكشفوا ذلك العالم وينقلوا إلينا ما رأوه.

يظهر الـ «دي إم تي»، كما بيّنا سابقاً، كجزء من عمليات الأيض العصبي، وهو الأكثر قوة بين مركبات الإندول الموجودة بشكل طبيعي. بسهولة مدهشة يحطم الـ «دي إم تي» كافة الحواجز ويحمل المرء إلى بعد آخر أخّاذ، يفوق التوقّع، وهذا بحدّ ذاته معجزة من معجزات الحياة. هذه المعجزة الأولى تليها معجزة ثانية: بسهولة مطلقة وبساطة تتعرّف أنظمة الأنزيمات في الدماغ البشري إلى جزيئيات الـ «دي إم تي» عند نقاط التشابك العصبي. وفي غضون بضع مئات من الثواني تكون الأنزيمات قد أبطلت مفعول الـ «دي إم تي» تماماً وبدون إحداث أي أذى وحوّلته إلى منتجات جانبية لعملية الأيض الاعتيادية. إن سرعة الدماغ في استرجاع معدلات مركّب الآمين الاعتيادية في ظل وجود الإندول الأكثر قوة، قد تكون دليلاً على وجود صلة تطورية قديمة بين البشر ومواد التريبتامين المثيرة للهلوسة.

على الرغم من أنه لا يعتقد حالياً أن البسيلوسبين والبسيلوسين، وهما مركبا الإندول الموجودان في فطر ستروفاريا كوبنسوس، يتحولان مباشرة إلى «دي إم تي» قبل أن يؤثرا على الدماغ، لكن طريقة تسربهما أشبه ما تكون بالطريقة العصبية التي تظهر فيها فاعلية الـ «دي إم تي». قد تظهر فاعليتها في نقاط التشابك نفسها، لكن الـ «دي إم تي» يتفوق عليهما في الفاعلية. قد يكون سبب الاختلاف أن الـ «دي إم تي» يجتاز حاجز الدم في الدماغ بسهولة أكثر، ويصل إلى مركز الفاعلية في وقت أقل. تآلف هذه المواد مع مركز التشابك متماثل.

وكما أشرنا سابقاً أن الأبحاث على الـ «دي إم تي» عند البشر خصوصاً كانت غير كافية إجمالاً. عندما كان يدرس الـ «دي إم تي» كان يُحقن في الجسم. هذا الإجراء يعتبر الأفضل لتجريب المواد المخدرة لأنه بالإمكان تحديد الجرعة بدقة بالغة. لكن في حالة الـ «دي إم تي» لا تكشف هذه الطريقة «زمن التحول» الرائع الذي يرافق تدخين الـ «دي إم تي». تأثير الـ «دي إم تي» عند الحقن في العضل يستمر حوالي ساعة؛ وعند تدخين المادة يصل مفعولها إلى الذروة

في غضون حوالي دقيقة واحدة. في حوض الأمازون تستخدم بعض القبائل نباتات تحتوي على مادة الـ «دي إم تي». يلجأ هؤلاء إلى نسغ أشجار الفيدولا، الشبيهة بأشجار جوزة الطيب، أو إلى البذور المطحونة والمحمصة لشجرة كبيرة تدعى أنادينانثيرا بيريغرينا Anadenanthera Peregrina. لكن عملية التنشق لا يقوم بها الشخص بمفرده بل بمساعدة صديق ينفخ له في منخريه المسحوق الذي وضع في قصبة مجوّفة (أنظر الرسم ٢٧). قد تكون العملية موجعة، لكنها تؤكد أن الشامان في الأمازون عرفوا ما لم يعرفه الباحثون عن مادة الـ «دي إم تي»: وذلك أن أفضل وسيلة لتعاطي المادة تكون بامتصاصها في غشاء الأنف المخاطي.



الشكل (٢٧)

صورة لشابين يتنشقان الـ دي إم تي. من كتاب شولتز: «Where the Gods Reign». (لندن: Lynergetic Press، ١٩٨٨، ص ١٩٥).

الفضاء الفوقي والقانون

ربما تعترضون على ما ورد وتتساءلون: «لكن أليس الـ «دي إم تي» ممنوعاً»؟

بالفعل، الـ «دي إم تي» مركب مصنّف في الجدول رقم «١» في الولايات المتحدة. والجدول

«١» يشتمل على المخدرات التي لم تثبت فاعليتها في المجال الطبي. حتى الكوكايين ليس مدرجاً في هذا الجدول. البسيلوسبين والـ «دي إم تي» صنفا في الجدول «١» بدون أي دليل علمي يؤيد استخدامهما أو يرفضه. في ظلّ حالة الذعر التي سيطرت على أواخر الستيات، كان تسبّب هذين المركبين للهلوسة يكفي - لإدراجهما في قائمة متشدّدة لدرجة أن البحث الطبي ليس محبّذاً في هذا المجال.

في مواجهة مثل هذا الخوف الهستيري، نشير إلى أن الكنيسة في وقت من الأوقات كانت تمنع تشريح الجثث وتعتبره نوعاً من السحر. علم التشريح الحديث وضع أسسه طلاب الطب الذين كانوا يلجأون إلى ساحات القتال أو يسرقون جثث مَنْ تنفذ فيهم أحكام الإعدام. وهؤلاء مقابل محاولاتهم يتعرضون للتوقيف والسجن. هل سنكون أقل جرأة في مجابهة حدود المعروف والممكن؟

ذهنية السيطرة ترفض التغيير، وكأنها تعرف أن حدوث نوع من التغيير قد يجردها من قوتها مرة واحدة وأخيرة. بالنسبة لظاهرة مواد الإندول المهلوسة كان الخوف من الثمرة السخية - التي ليست سوى ثمرة شجرة المعرفة. أكلها يعني أن تصبح كالآلهة، وهذا بالتأكيد يؤدي إلى انهيار نظام السيطرة.

لقاءات مع عقل فوقي مذهل

انحلال التفكير العقلاني الغربي وصل إلى مسافة بعيدة، يستطيع أن يبينها كل من يقرأ أي كتاب شعبي حديث عن علم الفلك أو فيزياء الكم. لكني مع ذلك أود إثارة بعض الاندفاع بطرح فكرة عن وجود رابط ما بين الأبعاد نستحوذ عليه مباشرة عبر استخدام مواد الأندول المهلوسة التي عرفها البشر منذ زمن طويل وكان لها دورها في عملية تطورهم. مثل هذه المركبات تعمل على ما يبدو كضوابط للتغيير الحضاري وقد تكون وسيلة للوصول إلى غائية نظام شامل متحكم بذاته، ربما هو العقل الفوقي للكائنات، أو «عقل الكوكب»، أو ربما هناك جنس آخر مختلف جذرياً عنا يشاركنا العيش على الأرض.

هذه مجرد افتراضات، وليس لديّ حدس يرجّح افتراضاً من بينها على سواه. لكنني واثق من امتلاكي القدر الكافي من المعطيات و«المعرفة العامة» مما يخوّلني القول أن ما يدور في تجربة التخدير بمادة «دي إم تي» هو أكثر خصوصية مما يمكن تصوره في إطار لفظة «تخدير». أثناء هذه التجربة يجد العقل نفسه في عالم غريب مقنع بحقيقته. ليس عالماً عن أفكارنا أو آمالنا أو مخاوفنا، بل عالم عن الأطفال - عن أفراحهم وأحلامهم وأشعارهم. لماذا؟ ليست لدي أدنى فكرة عن ذلك. هذه وقائع؛ وهذا طابع التجربة.

إلى جانب العديد من المدارس الفكرية في القرن العشرين حاولت سيكولوجيا يونغ بحث بعض الظواهر ذات الصلة بالشامانية. الخيمياء (الكيمياء القديمة) التي درسها يونغ باهتمام بالغ، كانت الوريثة لحقبة طويلة من التقاليد الشامانية والأساليب السحرية، وكذلك لمجموعة من الإجراءات الكيميائية العملية مثل تصنيع المعادن والتحنيط. يونغ أصرّ أن رموز الخيمياء وصورها من نتاج اللاوعي ويجب تحليلها بالطريقة التي تحلل بها الأحلام. من وجهة نظر يونغ، إن وجود الأشكال نفسها في تخيلات الخيميائيين وفي أحلام مرضاه، دليل قوي يثبت صحة نظريته حول اللاوعي الجماعي ورموزه العامة.

في سياق دراسته تناول يونغ حكايات الـ «كابيري»، أطفال الخيمياء الذين يشبهون الجن، وقد ورد ذكرهم في المراحل الأخيرة من التجارب الخيميائية(٥). هؤلاء الأطفال يشبهون الأرواح الصغيرة التي يطلبها الشامان لمساعدته. يونغ اعتبرهم أجزاء مستقلة من النفس أفلتت بشكل مؤقت من قبضة «الأنا». لكن التفسير بأن هؤلاء الجن هم «أجزاء مستقلة من النفس» ليس تفسيراً على الإطلاق. هذا شبيه بأن نصف الجني القزم بأنه شخص غير عادي مادي ليس له أصل محدّد. مثل هذه التفسيرات ليس سوى محاولات لتحاشي مواجهة الطبيعة العميقة للتجربة نفسها.

لم يكن العلم عاملاً مساعداً في حلّ مسألة صلات الإنسان المحيّرة بأنماط أخرى من الذكاء. إنه يفضل توجيه اهتمامه إلى حيّز آخر، ويصرّ على أن التجارب الذاتية، مهما كانت غريبة، ليست ميدانه. هذا بالفعل موقف مؤسف، لأن التجارب الذاتية هي كل ما نستطيع القيام به أصلاً. على أي حال تمكن علم الفيزياء، الأكثر موضوعية بين العلوم، من إثبات غلبة الطبيعة الذاتية على الكون الذي يوصف بأنه موضوعي. في الفيزياء الحديثة يكون المراقب الذاتي على صلة مباشرة بالظاهرة التي يراقبها، وهذا يشكل رجوعاً إلى وجهة النظر الشامانية. قد تكون الأهمية الفكرية الفعلية لفيزياء الكم نابعة من احترامها الجديد للذاتية وإعطائها الأولوية لها. العودة إلى الذات تعني دفعاً جديداً كبيراً للغة، لأن اللغة هي المادة التي يتكون منها العالم الذاتي.

من خلال التخدير نعرف أن «الله» ليس فكرة بل عالم ضاع في الفكر البشري. هذا العالم أعيد استكشافه في زمن خطر يهددنا ويهدّد عالمنا. هل هذا تزامن، أم صدفة، أم تجاوز لا معنى له للأمل والدمار؟ منذ سنوات كرّست جهدي لمحاولة فهم اللغز الكامن في أصل التجربة التي تحدث بفعل مواد التريبتامين المهلوسة؛ وهذا ما لا يستطيع العلم توضيحه. كنت أعرف بالطبع

(٥) س.ج. يونغ: «Psychology and Alchemy». لندن، Routeledge & Kegan Paul، ١٩٥٣، ص ١٩٠.

هواجس المرء تتسع لتشمل الفضاء بأسره. لكنني وجدت في الأحداث المناخية المحيطة بنشوء الرعوية واللغة عند البشر، الصدى القديم للأشياء التي شعرت بها واختبرتها شخصياً.

والآن علينا مواجهة الجواب الذي بحثنا عنه ووجدناه. أمام وميض بُعد شاسع بالكاد يستطيع ذهن الإنسان الإحاطة به. وجودنا ووجود كوكبنا آخذان في الزوال؛ وبالمقياس الجيولوجي للزمن لا يفصلنا عن النهاية أكثر من دقائق معدودة. مستقبلنا يكمن في العقل؛ والأمل الوحيد في الاستمرار لكوكبنا المتعب هو أن نجد أنفسنا في العقل ونتخذه رفيقاً يساعدنا على التوحّد مجدداً مع الأرض وعلى السفر إلى النجوم في الوقت نفسه. مرحلة تغيير، أكثر جدية من أية مرحلة سبقتها، تلوح أمامنا في الأفق القريب. احتفظ الشامان بمعرفتهم لكيفية الوصول إلى «الآخر» خلال آلاف السنين؛ والآن ومع توسّع انتشار هذه المعرفة بدأت انعكاسات هذا الوضع تظهر شيئاً فشيئاً.

إنني بالطبع لا أتوقع من أحد أن يتبنّى آرائي بطريقة سطحية. هذه الاستنتاجات تستند إلى تجارب يستطيع القيام بها كل من يشاء التعرّف إلى الـ إل دي إم تي»، لا تستغرق التجربة أكثر من خمس عشرة دقيقة. إنني لا أعطي أهمية لانتقاد الذين لم يكلفوا أنفسهم القيام بهذه التجربة البسيطة والمحدّدة. لأن هؤلاء برأيي ليسوا جديين في التعاطي مع الموضوع طالما أنهم لا ينفقون بضع دقائق من وقتهم لتجريب هذه الظاهرة.

إن تجربة التخدير العميق لا تحمل فقط إمكانية بناء عالم من الناس الأصحاء الذين يعيشون بتوازن مع الأرض ومع بعضهم البعض، بل تعد أيضاً بخوض مغامرة مميزة، والوصول إلى ما هو غير متوقّع تماماً ـ إلى عالم آخر قريب يعج بالحياة والجمال. لا تسألون أين يقع؛ لا نملك الآن سوى القول بأننا نعجز عن تحديد ذلك. أننا نعترف بجهلنا فيما يتعلق بطبيعة العقل وإلى أي مدى يكشف العالم عن ذاته وماهيته. منذ عدة آلاف من السنين كان حلماً أن نفهم هذه الأمور، وقد فشلنا. والفشل سيتكرّس إلاّ إذا تذكرنا احتمال وجود «الآخر الكلّي».

بعض المضلّلين يبحثون في الفضاء عن صحون سوف تدخل إلى نطاق عالمنا وتحملنا إلى الجنة؛ والبعض الآخر يبشرون بالخلاص بطرق مختلفة. من الأفضل للباحثين أن يوجهوا اهتمامهم إلى علماء النبات والأنثروبولوجيين والكيميائيين الذي وجدوا المواد الشامانية وعرفوها وحددوا خصائصها. بفضل هؤلاء صرنا نمتلك أداة الخلاص للبشر. إنها أداة عظيمة لكن يجب أن تستعمل. إدماننا عبر العصور الذي شمل السكر والكوكايين والتلفزيون، كان سعياً للوصول إلى الشيء الذي خسرناه في الجنة. اليوم صار الجواب معروفاً. لم نعد نبحث عن هذا الشيء. لقد وجدناه.

إستعادة أصولنا

استخدام نباتات كالتي وصفناها سوف يساعدنا على فهم هبة مشاركة النبات الثمينة والتي ضاعت مع فجر التاريخ. معظم الناس يتوقون لمعرفة حقائق عن هويتهم الفعلية. إن جهل المرء لهويته يفقده صوابه وروحانيته الداخلية. وهذه الصورة تنطبق على معظم الذين يعيشون اليوم في ظل الديموقراطيات الصناعية التي تمتلك الوسائل التقنية المعقّدة. هؤلاء يجدون مصداقيتهم في قدرتهم على الطاعة واتباع أنماط التغيّر التي تبثها إليهم وسائل الإعلام. ينهمكون في تناول الطعام الرديء، ومتابعة الإعلام السيىء، والاهتمام بالممارسات السياسية الفاشية التوجه، إنهم محكومون بالعيش التخديري بمستوى متدنٍ من الإدراك. هؤلاء الأحياء الأموات يخضعون للتسكين التلفزيوني ولم يعد يهمهم سوى ممارسة الاستهلاك.

أعتقد أن فشل حضارتنا في التوصل إلى حل لمسألة المخدرات والسلوك الاعتيادي المؤذي مصدر تعاسة لنا جميعاً. لكننا إذا نجحنا في إعادة بناء تصوّرنا لذاتنا وللعالم، نستطيع أن نجعل من العقاقير السيكولوجية المنطلق لتحقيق آمالنا وأحلامنا. لكن علم العقاقير تحوّل في الواقع إلى وسيلة شيطانية للإنحدار المستمر نحو تجميد الحريات المدنية وتفتيتها.

معظم الناس يدمنون مادة ما، والأهم من ذلك أنهم يدمنون أنماطاً من السلوك. الأشخاص الذين لم يتورطوا في علاقة مع محفّز من الغذاء أو المخدر نادرون وتفضيلهم للعقيدة واختيارهم المتعمّد للآفاق المحدودة يظهر أنه فشل في إيجاد بديل فعلي لتعاطي مادة ما.

حاولت في هذا السياق دراسة تاريخنا البيولوجي وتاريخنا الحضاري المعروف بحثاً عن شيء ربما يكون مفقوداً. كان هدفي دراسة ترتيبات البشر مع النباتات، التي سادت لفترة ثم قطعت منذ آلاف السنين. هذه العلاقات ساهمت في تشكيل كافة جوانب هويتنا كمخلوقات تعي ذاتها ـ لغاتنا، قيمنا الحضارية، سلوكنا الجنسي، ما نذكره في ماضينا وما ننساه. النباتات هي الحلقة المفقودة في البحث لفهم عقل الإنسان وموقعه في الطبيعة.

المساهمة الجوهرية

في الولايات المتحدة تريد الحكومة أن تظهر وكأنها ترغب في القضاء على المخدرات، ولهذا صلة مباشرة بدرجة تبنّي الحكومة للقيم المسيحية المتزمتة. نحن نعيش وهم الانفصال الدستوري بين الكنيسة والدولة في الولايات المتحدة. إن الحكومة الفيدرالية عندما بادرت لحظر الكحول في الماضي، وعندما تتدخل في حقوق حرية الإنجاب، أو في استخدام البيّوت في الطقوس الدينية عند السكان الأصليين، أو عندما تحاول بطريقة غير عقلانية التحكّم في المواد الغذائية، إنها بذلك تعمل على تعزيز قيم الجناح اليميني المتعصب.

سوف يتبين أن حقنا في تقرير نوعية طعامنا وشرابنا هو نتيجة طبيعية لإحساسنا بكرامتنا كبشر، طالما نقوم بذلك دون التعدي على حريات الآخرين. إن توقيع الماغناكارتا، والقضاء على العبودية، ومنح المرأة حق الاقتراع ـ هذه الملاحظات التي تغير فيها تعريف ما كان يوصف بأنه عدالة، أطاحت ببنى اجتماعية متحجرة كانت تستند أكثر فأكثر إلى التمسك المتزمت بمبادئها الأولى. إعلان الحرب على المخدرات تقوم به حكومات تستنكر تجارة المخدرات وفي الوقت نفسه تضمن وترعى اتحادات المخدرات الدولية. مثل هذا الأسلوب محكوم عليه بالفشل.

لم يكن المقصود بإعلان الحرب على المخدرات الانتصار في هذه الحرب. بل سوف تؤجل قدر الإمكان لإتاحة المجال لمختلف النشاطات الاستخبارية لجني ملايين الدولارات من تسويق المخدرات عالمياً؛ وبعد ذلك يتم الإعلان عن الهزيمة. و«الهزيمة» تعني كما تبين في الحرب الفيتنامية، أن وسائل الإعلام تقوم بعرض الأبعاد الفعلية للموقف وتكشف عن اللاعبين الحقيقين، وأن إطلاع الجمهور على تورط وغباء وفساد المؤسسة يفرض وضع توجه سياسي جديد. عند التلاعب بالأمم والشعوب بترويج المخدرات والمهدئات، لعبت الحكومات الحديثة دور المشارك في إحداث كارثة أخلاقية توازي بعث تجارة العبيد في القرن الثامن عشر، أو بتجاوزات الماركسية ـ اللينينية التي أعلنت مؤخراً.

قضية التشريع

يبدو الاستنتاج واضحاً: التشريع وحده يشكّل المنطلق لسيامة مخدرات صحيحة. وهذا الرأي توصّل إليه بالفعل كثيرون من المهتمين بنزاهة بهذا الموضوع، لكن الملابسات السياسية لقضيــة التشريع جعلت البحث فيه بطيئاً. أرنولد ترياخ في كتابه الذي صدر مؤخراً The Great Drug War، قدّم طروحات مقنعة في إطار الدعوة إلى تغيير في سياسة المخدرات:

> تعاطي السلطة الأميركية مع مسألة إساءة استخدام المخدرات يجب أن يكون شبيهاً بتعاطيها في السابق مع العقائد الدينية المتصارعة؛ اعتبرت كل العقائد احتمالات لوضع أسس أخلاقية سليمة وأعطي كل إنسان حق ممارسة العقيدة التي يؤمن بها. موضوع المخدرات يجب معالجته بالأسلوب نفسه ـ كأنه مذهب أكثر مما هو علم. إنني أتمنى لو يعترف القانون والطب بالطبيعة الذاتية واللاعلمية لمسألة الإسراف في استخدام المخدر وذلك بإصدار تعديل أول يضمن حرية اختيار تعاطي المخدر، لكن المحدودة بعض الشيء بمبادىء طبية موضّحة[٦].

لكن ترياخ لا يناقش ولا يشير حتى إلى الدور الذي ستلعبه هذه المواد في مرحلة ما بعد القمع. مسألة المخدرات تبدو غير مهمة بالفعل إذا كان المقياس الوحيد لتأثيرها على المجتمع هو

(٦) أرنولد ترياخ: «The Great Drug War»، نيويورك، Macmillan، ١٩٨٧، ص ٣٦٣.

الانتباه لملايين الدولارات التي كان يمكن جمعها عند تسويق المخدرات في الشوارع. فقط مادة «إل إس دي» تظل مطروحة كمشكلة أكثر تشعباً. وتجدر الإشارة هنا إلى أن تقدير كميات المخدرات التي تنتج وتستهلك في الولايات المتحدة صار مسيّساً وبالتالي لم يعد له معنى.

لكن هناك مقياساً آخر للأهمية الاجتماعية لمادة ما وهو يدل على أننا مقصرون على الأقل في البدء بمناقشة الأثر الاجتماعي لتعاطي المخدرات عندما نفكر بمسألة التشريع. كان هذا المقياس دافعاً لاهتمام وكالة الاستخبارات والاستخبارات العسكرية بالمخدرات خلال الستينات عبر برامج مثل MK (للسيطرة على التفكير) وMK-ULTRA. إن الاعتقاد السائد بأن الدراسات في هذين البرنامجين توصلت إلى الاستنتاج بأن التلفزيون هو الخيار الأفضل للتنويم المغناطيسي الجماعي، غير صحيح مع أنه منطقي. إنني أعتقد أنه بعد تشريع استخدام المخدرات سوف يثبت أن الخوف من انتشار تعاطي الكوكايين أو الهيروين بإفراط لا أساس له. وأعتقد أيضاً أن الاهتمام بالمخدرات واستخدامها سيزداد، وهذا ما يجب توقعه والاستعداد له.

يبدو أن إجماعاً جديداً بدأ يتشكل. ما كان في السابق ناقصاً وغير واعٍ صار اليوم واعياً ومتماسكاً في الوقت نفسه.

إن إنهيار البديل الماركسي أمام الديموقراطية الاستهلاكية بإعلامها الكثيف وتقنيتها العالية، كان سريعاً وكاملاً. وللمرة الأولى في تاريخ الكوكب صار هناك إجماع، وإن كان باهتاً، حول «القيم الديموقراطية». هذا التوجه سوف يلاقي مقاومة فعلية من مختلف أشكال التعصب الديني في التسعينات. إنه ظاهرة لتوسّع الوعي الذي ترافق مع التغير السريع في ميدان نشر المعلومات. الديموقراطية مفصل فكرة المساواة في النمط البدائي الذي ساد بين المجموعات المترحلة.

وجود «مشكلة المخدرات» يتناقض مع التوجه نحو التوسيع العالمي للوعي عبر نشر القيم الديموقراطية. إن المجتمع الذي يعمل على التحكم باستخدام مواطنيه للمخدرات، هو مجتمع ينزلق بالتأكيد نحو الديكتاتورية. ليس هناك قدر معين يجب توفره من قوة الشرطة أو مراقبتها لحياة الناس أو تدخلها في ذلك، ويكون كافياً لأجل وضع حد لهذه المشكلة. لذلك لن يكون هناك حدود للقمع الذي ستمارسه المؤسسات الخائفة أو سيطالب به المواطنون الذين غسلت أدمغتهم.

اقتناع متواضع

سياسة المخدرات التي تحترم القيم الديموقراطية يجب أن تسعى لتوعية الناس كي يختاروا ما يتناسب مع احتياجاتهم ومثلهم. هذا الإجراء البسيط والضروري تأخر للأسف في الظهور.

يجب وضع خطة شاملة تسعى لحل مشكلة المخدرات في أميركا بشكل جدي، وقد تتضمن عدة احتمالات أذكر منها ما يلي:

١ ـ فرض ضريبة فيدرالية بقيمة ٢٠٠ في المئة على التبغ والكحول. وقف كافة المعونات المالية التي تقدمها الحكومة لقطاع إنتاج التبغ؛ التشدّد في توضيح التحذيرات التي تكتب على العلب. كما أنه يجب فرض ضريبة مبيع على السكر ومشتقاته بقيم ٢٠ في المئة، وكافة أشكال الدعم لإنتاج السكر يجب أن تتوقف. أكياس السكر يجب أن تحمل تحذيرات أيضاً، ويصبح السكر مادة إجبارية في برنامج التغذية في المدارس.

٢ ـ إجازة كل أنواع القنّب وفرض ضريبة فيدرالية بقيمة ٢٠٠ في المئة على منتوجات القنّب. يجب ذكر المعلومات حول المادة ومدى تأثيرها على الصحة على العلبة.

٣ ـ توقيف قروض صندوق النقد الدولي والبنك الدولي في البلدان المنتجة للمخدرات القوية. فقط بعد التأكد من استجابة الدولة تُستأنف القروض.

٤ ـ تبنّي الشدة في مسألة السلاح وتطبيقها على قطاع الإنتاج وحيازة السلاح أيضاً. سهولة الحصول على الأسلحة جعلت جرائم العنف ترتبط بمشكلة إدمان المخدرات.

٥ ـ يجب الاعتراف بشرعية الطبيعة، كي يُسمح بزرع وتملّك كافة النباتات.

٦ ـ يجب السماح بعلاج المخدرات والمطالبة بتغطية التأمين الصحي له.

٧ ـ يجب تعزيز الرقابة على القطاعات النقدية والمصرفية. تواطؤ البنوك حالياً مع الاتحادات الإجرامية يفتح مجال تبييض الأموال على نطاق واسع.

٨ ـ هناك حاجة ملحة لتوفير الدعم العام للأبحاث العلمية حول كافة جوانب استخدام المادة وإساءة استخدامها، والتوافق أيضاً على ضرورة توعية الناس في هذا المجال.

٩ ـ بعد سنة واحدة من تطبيق ما ورد يجب رفع يد الإجرام عن كل المخدرات التي لا تزال محظورة في الولايات المتحدة. يُلغى دور الوسيط وتتولى الحكومة بيع المخدرات بزيادة ضريبة ٢٠٠ في المئة على قيمة الكلفة، وتوضع الأموال في صندوق خاص يتولّى دفع الكلفة الاجتماعية والطبية والتعليمية لبرنامج التشريع. ويمكن وضع أموال الضرائب على الكحول والتبغ والسكر والقنّب أيضاً في هذا الصندوق.

١٠ ـ وبعد سنة أيضاً تصدر قرارات عفو عن جميع الذين تورطوا بقضايا بالمخدرات التي لا تشتمل على استخدام السلاح أو التعدي المؤذي.

إذا بدت هذه الاقتراحات جذرية فذلك يعود لأننا تخطينا بها نطاق المثل التي كانت في

الأصل أميركية بمعظمها. من أسس النظرية الأميركية للسياسة الاجتماعية أن حقوقنا غير القابلة للتبدل هي «الحياة، الحرية، والسعي وراء السعادة». إن الادعاء أن حقنا في السعي وراء السعادة لا يشتمل على حقنا في تجريب النباتات والمواد ذات الفاعلية النفسية يجعل الطرح النظري ضيقاً وجاهلاً. الأديان الوحيدة التي تحمل إضافة لما تقدمه الأنماط الأخلاقية المتفق عليها تقليدياً هي الغشية ونشوة الرقص والتخدير بواسطة المواد المهلوسة. الواقع الحي للغز الوجود كامن فيها؛ وكل إنسان له حق ديني بممارسة دينية وفق شروطه الخاصة به. هذا المبدأ يجب أن يتكرّس في قانون في المجتمعات المتمدنة.

الخاتمة: رحلة في بحر من النجوم

وصلنا في قصتنا إلى النقطة التي يندمج فيها التاريخ مع مساعي القوى السياسية الحالية. إن الذين يقصرون اهتمامهم في مناقشاتهم على مسألة المواد المخدرة والإسراف في استخدامها، يجب أن يلتفتوا إلى مشكلات أخرى تتساوى معها من حيث الأهمية: الفقر والتكاثر السكاني وتدمير البيئة، والأزمات السياسية؛ وهذه جميعاً نتائج حتمية لنظام السيطرة. عند التعاطي مع هذه المشكلات الاجتماعية يجب أن نتذكر أن جذور إنسانيتنا تقع في مكان آخر، في فيض الطاقات الذهنية التي عرفها جنسنا البشري منذ عدة آلاف من السنين ـ القدرة على التسمية والتصنيف والمقارنة والتذكّر. هذه القدرات تعود إلى الصلة التكافلية التي عرفناها مع فطور البسيلوسبين في مجتمع المشاركة في أفريقيا، ما قبل التاريخ.

انقطاع ثقتنا بالصلة التكافلية مع النباتات المهلوسة جعلنا أكثر عرضة للتجاوب العصبي مع بعضنا البعض ومع العالم المحيط بنا. وبعد آلاف السنين من الحرمان نجد أننا نكاد جميعاً نصاب بالذهان على كوكب يعج بالمنتوجات السامة الصناعة العلمية.

إذا لم نقم بذلك نحن، من إذاً؟

وإذا لم يكن الآن، فمتى؟

آن الآوان كي نبدأ حواراً يستند إلى تخمين موضوعي لما تفعله حضارتنا وما تعنيه. العقيدة والأيديولوجية صارتا طرازاً قديماً؛ إن فرضياتهما المؤذية تجعلنا نغمض أعيننا عن رغبتنا التهديمية وعن نهب الموارد التي هي بالفعل ملك أطفالنا وأحفادنا. ما لدينا من وسائل لا يحقق غرضنا؛ أدياننا لم تعد سوى حالات من الهوس؛ وأنظمتنا السياسية صارت تقليداً مشوّهاً لما أردناها أن تكون.

كيف نأمل في إحداث تحسن؟ على الرغم من أن مخاوفنا من المجابهة النووية تراجعت مع التغيرات الأخيرة في الكتلة الشرقية، لكن العالم لا يزال مصاباً بالجوع والازدياد السكاني والعنصرية والتفرقة بين الجنسين والأصولية الدينية والسياسية. نحن نملك القدرة ـ صناعياً وعلمياً واقتصادياً ـ على تغيير العالم، ولكن يجب أن نسأل هل لدينا القدرة على تغيير أنفسنا، وعقولنا؟ أعتقد أن الإجابة على هذا السؤال تكون: نعم، ولكن بمساعدة الطبيعة. لو أن الحل يكمن في الوعظ والإرشاد، كنا وصلنا إلى عتبة الوجود الملائكي منذ فترة طويلة؛ ولو أن التشريع هو الجواب كنا تعلمنا الفضائل أيضاً.

مساعدة الطبيعة تعني الاعتراف بأن الدافع الديني لا يأتي من الطقس، ولا من العقيدة، بل من نوع من التجربة الجذرية ـ تجربة التكافل مع النباتات المهلوسة، ومن خلالها تجربة التكافل مع الحياة على الكوكب، هذا الطرح توقعته كتابات المفكر الغربي آرثر كومستلر:

الطبيعة تخلّت عنا، والله لم يعد يسمعنا والوقت ليس في صالحنا. إن التأمل في الوصول إلى خلاص يُصنّع في المختبر يبدو تفكيراً مهووساً بالمادية أو ساذجاً؛ لكن هذا التفكير يعكس في الواقع حلم الخيميائي القديم بإعداد إكسير الحياة. نحن لا نريد الحياة الأبدية بل نريد التحوّل من بشر مهووسين إلى بشر عاقلين. عندما يقرر الإنسان تولي مصيره بنفسه عندئذٍ يصبح هذا التحول ممكناً[١].

يستنتج كومستلر من دراسة تاريخ العنف المؤسساتي أنه من الضروري اللجوء إلى نوع من التدخل العقاقيري حتى نتمكن من العيش بسلام مع بعضنا البعض. ويواصل عرض رأيه مقدماً اقتراحاً حول التدخل العقاقيري السيكولوجي الواعي والعلمي في حياة المجتمع، والذي يلعب دوراً بارزاً في المحافظة على مِثَالَيِ الاستقلال والحرية. لكنه لم يكن يعي أن مهمة توجيه المجموعة البشرية نحو حالة من التوازن والسعادة قد تشتمل على طرح تجريب الأفق الفوقي الداخلي في حياة البشر.

العثور على المخرج

بدون الانفتاح على البعد الفوقي والمتجاوز للذات، الذي تتيحه لنا مواد الإندول المهلوسة الموجودة في النباتات، سيكون مستقبل البشر قاتماً بالفعل. فقدنا القدرة على التأثر بقوة الأساطير، وتاريخنا يجب أن يقنعنا بمغالطة العقيدة. إننا نحتاج إلى بُعد جديد للتجربة الذاتية يثبت على الصعيدين الفردي والجماعي أصالة الأنماط الاجتماعية الديموقراطية ووظيفتنا في هذا الجزء الصغير من الكون.

اكتشاف هذا البعد يعتبر فرصة ومخاطرة. إن الاستمرار في البحث عن جواب لا يخلو من

سذاجة وغباء. يجب أن نكون تخطينا هذا الادعاء؛ اليوم يُفترض فينا مواجهة الجواب، وهذا يعني الاعتراف بأن العلم الذي أعددناه لنسلمه إلى أجيال المستقبل ليس سوى كتلة من الحطام. ليس سكان غابات المطر المنكوبين هم الذين يثيرون الشفقة، ولا مزارعو الأفيون في قبائل بورما الذين يهدّدون البشر وآمالهم بل نحن.

من الأراضي المعشوشبة إلى سفينة النجوم

تاريخ البشرية بدأ مع المجتمع الأفريقي المتوازن وتدافعت الأحداث على امتداد خمس عشرة ألف سنة حتى القرن العشرين الذي يتصف بهيمنة الوهم والسقوط والموت الجماعي. اليوم نحن نقف على حافة الهرب إلى النجوم، والواقع الفعلي للتقدم التكنولوجي، والإحياء الشاماني الذي ينذرنا من التخلي عن ذاتنا وعن الجماعة القبلية التي كانت محيطنا. نباتات الشامان تكشف العوالم التي نتصور أننا أتينا منها، عوالم من الضوء والقوة والجمال تقع بشكل أو بآخر في خلفية الإيمان بالآخرة في الديانات الكبرى في العالم. نستطيع الوصول إلى هذا الإرث السخيّ فقط عندما نجدد لغتنا وأنفسنا.

تجديد لغتنا يعني رفض الصورة المرسومة لنا والموروثة من حضارتنا المسيطرة. صورة المخلوق المذنب الذي ارتكب خطيئة ويستحق بالتالي الطرد من الجنة. الجنة هي حقنا الموروث ويستطيع كل واحد منا المطالبة بها. الطبيعة ليست عدونا حتى نغتصبها ونحتلها. الطبيعة هي نحن، ويجب أن نعزها ونستكشف معالمها. عرفت الشامانية ذلك منذ البداية، وقالت في تعاليمها الأصيلة إن الدرب يحتاج إلى حلفاء، المقصود بالحلفاء النباتات المهلوسة والوجود المعرفي الغامض والمتألق والفوقي الذي يكمن في بعد قريب من الجمال الأخاذ والتفهّم، والذي تنكرنا له حتى كادت الفرصة تضيع.

في الرؤية ننتظر أنفسنا

نستطيع الآن التوجه نحو رؤية جديدة لأنفسنا لدورنا في الطبيعة. نحن القادرون على التأقلم والمفكرون والصانعون والذين يعرفون كيف يحلّلون مشكلاتهم. هذه الهبات العظيمة التي خُصصنا بها وحدنا والتي نتجت عن رحم الكواكب التطوري ليست ملكاً لنا. نستخدمها كما يحلو لنا أو يرضينا أو يتحقق مجدنا. إنها ملك الحياة؛ إنها الميزات الخاصة التي نستطيع المساهمة بها لصالح بيئة الوجود العضوي، إذا كنا نريد أن نلعب دور الحريص على أمنا الطبيعة والراعي والحاضن لها.

هنا يكمن لغز كبير. وسط مسيرة الطبيعة البطيئة نجد أنفسنا، وربما نرى أنفسنا للمرة الأولى. نحن ملوّنون، ومشاكسون ونحيا بالأماني والأحلام، وعلى حدّ علمنا فريدون في

نوعنا في الكون. مضى زمن طويل ونحن نائمون ومقيّدون بالسلطة التي تخلينا عنها للأجزاء الأقل نبلاً فينا وللأشخاص الأقل نبلاً بيننا. حان الوقت كي نقف ونواجه الواقع بأننا يجب أن نغير تفكيرنا ونستطيع ذلك.

ليل تاريخ البشرية الطويل يقترب أخيراً من نهايته. الآن سكن الهواء وبدأت بشائر الفجر الوردي تلوح في الشرق. لكننا نعرف أن المساء قد يزداد عمقاً وأن الظلال قد تتفاقم نحو ليل ليس له آخر. إنها بأي من الحالين نهاية القصة. قدرنا أن نلتفت دون ندم مما كنا عليه لمواجهة أنفسنا وأهلنا وأحبائنا وأطفالنا، لنجمع معداتا وحيواناتنا وأحلامنا القديمة، حتى نستطيع التحرك عبر أفق التفاهم الأكثر عمقاً. هناك، حيث كنا دائماً مرتاحين، ونعرف أنفسنا، نأمل أننا سنحظى بالمجد وننتصر في بحثنا عن المعرفة في حياة المخيلة اللانهائية، وننعم أخيراً بجنة عدن التي اكتشفناها مجدداً.

هذا الكتاب هو دراسة جزئية جداً حول تاريخ المخدرات في الشرق وفي الغرب . منذ بداية تجارة التوابل حتى حشيشة الكيف والكوكايين وغيرها من المواد .

ويتساءل المؤلف لماذا يعتبر البحث عن السعادة غير شرعي في هذا العالم . طالما أنه مستمر من نباتات متوفرة في الطبيعة ويقدم بالتالي حلولاً واقتراحات لحل مشكلة انتشار المخدرات في هذا العصر انطلاقاً من جولات واكتشافات عايشها على الطبيعة واكتشف من خلالها أن هناك علاقة ضائعة ومجهولة في شرح وفهم انتشار اللغات والذكاء والثقافة لدى الجنس البشري .

